غازي عبد الرحمن القصيبي

سيرة شعرية







غازي عبد الرحمن القصيبي

سيرة شعرية





مطبوعات
PUBLICATIONS

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القصيبي ، غازي عبد الرحمن
سيرة شعرية. / غازي عبد الرحمن القصيبي - ط٣ - جدة،
١٤٢٤هـ
٣٨٠ص ؛ ٢٤سم
ردمك: ٣-٠٢٥-٢٥-٩٩٦٠

١- الشعر العربي - السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١١,٩٥٣١ ١٤٢٤/٣١٤٠

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٣١٤٠
ردمك: ٣-٠٢٥-٢٥-٩٩٦٠

تصميم الغلاف
والإخراج الفني والتنفيذ



تليفون : ٦٧١٥٨٩٥



فهرست

مقدمة

يمثل هذا الكتاب سيرتي الشعرية ويقف عند هذا الحد لا يكاد يتجاوزه. بمعنى أن الكتاب يتحدث عني كشاعر فحسب، لا كتلميذ، ولا كمدرس، ولا كعميد كلية، ولا كإداري، ولا كعضو في مجلس الوزراء؛ ولا كسفير، ولا كأب، ولا كأخ، ولا كزوج، ولا كإبن. وفي كل تجربة من هذه التجارب، وكثير غيرها، ما يكفي لكتابة مؤلف. ومنها في مجموعها تتكون السيرة الذاتية الكاملة.

على أن فصل السيرة الشعرية عن السيرة الذاتية أمر بالغ الصعوبة، ذلك أن الشعر لا يمثل سوى وجه واحد من شخصية الإنسان الشاعر. ولقد حاولت أن أتغلب على هذه الصعوبة بأن أورد في أماكن متفرقة من الكتاب أجزاء من السيرة الذاتية لم يكن هناك بد من إيرادها، متجنباً الاسترسال، مرجئاً الحديث المفصل عن حياتي إلى الوقت الذي يتاح لي فيه أن أكتب سيرة ذاتية كاملة.

والهدف من الكتاب متواضع ومحدد. لقد قلت في أكثر من مناسبة وأكرر هنا إنني لا أعتبر نفسي شاعراً عظيماً، ولا أتوقع أن أصبح في يوم من الأيام شاعراً عظيماً. إنني لا أطمع أن يكشف الكتاب عن جوانب خفية من عبقرية متقدة، ولا أن يوضح للنقاد والقراء ما اختلفوا فيه من أمري، ولا أن يضيف أسماء جديدة إلى قوائم المعجبين. في هذا كله من الاعتداد بالنفس ما لا أحسه من نفسي، ومن الغرور الأبله ما لم يطف لي ببال. إن هدف هذا الكتاب -ببساطة- هو أن يكون عوناً للباحثين الذين يتعرضون على نحو أو آخر لاشعاري، ودليلاً أمام قاريء الشعر العادي يسهل له عملية السفر داخل دواويني، إن كان يزمع القيام بمثل هذه الرحلة.

لقد كنت أشعر خلال إعدادي رسالة الماجستير ثم أطروحة الدكتوراه أن مهمة الباحث تسهل إلى حد كبير إذا وجد أمامه مادة شخصية مكتوبة بقلم الإنسان الذي يدور حوله البحث. في هذا ما يغني الباحث عن الحدس والتخمين وما يجنبه مؤونة الغوص في المصادر الثانوية بحثاً عن معلومات قد لا يتضمنها مصدر من هذه المصادر وما يريحه من عناء المراسلات والمقابلات الشخصية. ولقد ازددت اقتناعاً بهذه الفكرة نتيجة للإستفسارات

العديدة التي تلقيتها عبر السنين من طلاب وباحثين وكتاب وصحفيين وهي جميعها متعلقة بتجربتي الشعرية وتطورها[1].

وأعتقد أنه لو لجأ كل أديب عربي إلى تحرير كتاب عن حياته الأدبية لكان في ذلك ما يثري حركة التاليف والنقد. وأود أن أذكر، على سبيل المثال، الكتاب الذي وضعه الشاعر صلاح عبدالصبور عن تجربته الشعرية، والكتاب الذي ألفه الشاعر نزار قباني في الموضوع نفسه. وأظن أن كل من اطلع على هذين الكتابين يدرك أن الشاعرين قدما خدمة جُلّى إلى الباحثين والنقاد.

ولعل في محاولتي المتواضعة اليوم ما يشجع بعض الاخوة من الشعراء والأدباء السعوديين على الاقدام على محاولات مماثلة. فإن تم ذلك حقق الكتاب، بفضل الله، هدفاً جديداً يفوق في الأهمية هدفه الأصلي.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

(١) مصدق ذلك أنه بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب .. تضمنت كل الدراسات التي كتبت عن شعري، بدون استثناء تقريباً، معلومات مستقاة من الكتاب.

سيرة شعرية
الجزء الأول

الفصل الأول

البداية

الشعر صعب وطويل سلمه !

الحطيئة

يصعب عليَّ الآن وأنا أقفز قفزاً إلى بوابة الأربعين[1] أن أعود بذاكرتي إلى اليوم الذي بدأت فيه علاقتي بالشعر. إنني واثق ، أو أكاد أكون واثقاً ، أن هذه العلاقة لم تولد مع اليوم الذي كتبت فيه شيئاً كنت أتصوره وقتها قصيدة ، بل ولدت قبل ذلك بفترة طويلة. ذلك أنني كتبت أول قصيدة في سن الثانية عشرة ولكنني كنت قبل هذه السن مولعاً بالشعر ، وكنت بالتأكيد مولعاً بالأدب.

قد تبدو العبارة الأخيرة غريبة في أيامنا هذه حيث لا يتوقع أحد من الأطفال إعجاباً كثيراً أو قليلاً بالأدب. ولكنني أذكر تماماً أنني قبل أن أبلغ العاشرة قرأت كافة كتب كامل كيلاني وتجاوزتها إلى مجموعة طيبة من روايات يوسف السباعي وإلى معظم قصص تاريخ الإسلام التي كانت تصدرها دار الهلال بالإضافة إلى كل ما وقع تحت يدي من روايات أرسين لوبين ورو كامبول. كما أن تجربتي مع المسرح المدرسي بدأت في سن التاسعة واستمرت حتى مراحل الدراسة الثانوية وخلفت لي هواية باقية هي الشغف بالمسرح. كانت اللغة العربية من أول يوم مادتي المفضلة ، ولا أعتقد أنني أتجاوز حدود التواضع عندما أقول إنني كنت دائماً أحصل على أعلى الدرجات في الفصل في مواد اللغة العربية ، وفي الإنشاء بوجه خاص ، وكنت دائماً أتمتع بعلاقة ممتازة مع مدرسي اللغة العربية، بخلاف علاقتي المضطربة مع مدرسي الحساب الذي كانت درجاتي فيه لا تصل إلى الحد الأدنى إلا بعد جهد جهيد وبالإستعانة بالدروس الخصوصية.

لقد كان من أسباب تعلقي بالأدب التشجيع الذي لقيته من أحد مدرسينا في تلك الفترة ، الأستاذ أحمد يتيم رحمه الله ، وكان قارئاً ذواقة يحب القصص ويجيد روايتها ، وكان المشرف على النشاط المسرحي بالمدرسة ، ولا تزال في مكتبتي حتى اللحظة قصص تلقيتها منه كهدايا تشجيعية في مختلف المناسبات.

عندما أعود بذاكرتي إلى سنوات الدراسة الإبتدائية ، أتصور أنني كنت أتذوق الشعر إلى درجة تفوق ما كان يتوقع بالأمس أو اليوم من طالب الإبتدائية. ولقد تجلى هذا التذوق في السهولة الفائقة التي كنت أجدها في استظهار المحفوظات الشعرية وفي قيامي بترديدها في المنزل بمناسبة وبدون مناسبة.

على أنني لم أحاول ان أكتب بيتاً من الشعر إلا مع أول سنة من سنوات الدراسة الثانوية. ومن المناسب هنا أن أوضح للقراء من الجيل الجديد أن الدراسة في البحرين

(١) كان هذا سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

أيامها كانت مقسمة إلى مراحل ثلاث : الحديقة، وتتكون من ثلاث سنوات ، فالإبتدائية وتتكون من أربع ، والثانوية وهي بدورها أربع سنوات ، أما التوجيهية فكان لا بد من السفر إلى خارج البحرين للحصول عليها. كنت إذن طالباً في السنة الأولى من المدرسة الثانوية[١] عندما قررت الإلتحاق بنادي الشعراء ، أو بمعنى أدق عندما قررت الاستجابة لصوت الشعر الخفي في داخلي. وذلك أن الشعر ، في تصوري ، هو الذي يختارنا لعضوية مملكته السحرية ولا نملك أمام إرادته سوى الانصياع والإستسلام.

ويقتضي الإنصاف أن أقرر أن الدافع الرئيسي لكتابة قصيدتي الأولى كان وجود الصديق العزيز عبدالرحمن محمد رفيع ، الشاعر المعروف ، طالباً معي في الفصل ذاته. كان عبدالرحمن قد بدأ كتابة الشعر قبل لقائنا في الثانوية بسنة أو نحوها وكان ديوانه الشعري يتكون من قصيدتين يتيمتين. أولاهما وطنية مطلعها :

يا شعـوب العـرب هيا يا كـرام   ودعـوا النـوم وهـبوا للأمـام

أما الثانية فعاطفية ومطلعها

مـا دهـى ورد الجـنـيـنـة باكـيا   يسـكـب الدمـع تـرى ما الداعيا

وكانت القصيدة الثانية هي الأكثر ذيوعاً وشعبية بيننا. كنا نستمع إليها مرة أو مرتين في الأسبوع بطلب من أحد الأساتذة أو من أحد الطلاب أو بدون طلب.

وكان عبدالرحمن يتمتع بمكانه خاصة بين الطلبة والمعلمين بسبب هاتين القصيدتين وللقب الشاعر الذي تمتع به كنتيجه طبيعية لكتابة القصيدتين. وهكذا فإنني اعترف أن شيئاً كالغيرة كان الدافع الرئيسي المباشر لكتابة القصيدة الأولى. ولعل مما يخفف صعوبة الإعتراف ، وكل اعتراف صعب ، أن هذا الدافع المباشر لو لم يلتق بأرض خصبة مهيئة لإنبات الشعر لتلاشى وابتلعته الرمال.

هذا هو الدافع الفعلي أما المناسبة فقد كانت حريقاً كبيراً أتى على مجموعة كبيرة من «العشيش» -البيوت المبنية من سعف النخل- قرب المدرسة. وكانت نتيجة الحريق تشريد عشرات العائلات وإن لم يكن هناك ضحايا. كانت «القصيدة» مكونة من عشرة أبيات لا

---

(١) أي ما يعادل السنة الثانية من الإعدادي أو المتوسط اليوم.

أذكر منها الآن سوى :

يـا لــــــهـول الخـطب الـذي	اسـتـشـرى بقـوم آمـنـيـنـا
نـار مسـتـبـدة عـاتـيـة	ثم أبـت أن تسـتـكـيـنـا

ولا أشك اليوم أني كنت متأثراً تأثراً كبيراً بقصيدة حافظ إبراهيم الرائية في الحريق والتي كانت جزءاً من مقرر المحفوظات.

ولا أزال أذكر شعور الفرح العميق الممزوج بالخوف وأنا أحمل قصيدتي الأولى إلى عبدالرحمن طالباً منه التعليق. ولا أدري ماذا كانت مشاعر عبدالرحمن الحقيقية وهو يرى «مدعياً» يتقدم إلى الساحة لينازعه احتكاره الشعري ، ولكني أذكر تماماً أن رده كان مشجعاً للغاية وشكل دفعة قوية حفزتني على الاستمرار.

كانت معلومات عبدالرحمن العروضية أوسع من معلوماتي وأعتقد أنه تبين أن القصيدة بريئة من الوزن براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، ولكنه لم يقل شيئاً واكتفى بأن اقترح عليَّ أن أعدل البيت الأول ليصبح على النحو التالي :

يا لهول الخطـب والـرزء الذي	جـار واسـتـشـرى بقوم آمنـينـا

وهكذا أصبح في القصيدة بيت موزون واحد!

واستمرت المحاولات الشعرية طيلة السنتين التاليتين وكنت أسجلها في دفتر خاص مزقته بامتعاض عندما بلغت السادسة عشرة إذ تصورت وقتها وقد بدأت أكتب الشعر الموزون أ ن من العبث الإحتفاظ بكلام ركيك مهلهل كالذي احتواه الدفتر. وغني عن الذكر أنني اليوم آسف أشد الأسف على القرار المتسرع الذي اتخذته بتمزيق الدفتر. على أنني أذكر أن مستوى القصائد التي تضمنها ذلك الدفتر لم يختلف كثيراً عن مستوى القصيدة «النارية» ولم تكن هناك غير أبيات معدودة مستقيمة الوزن في المجموعة بأكملها وكانت لا تقل عن ثلاثين «قصيدة».

وأتذكر أن غالبية القصائد التي كتبتها في تلك الفترة كانت عاطفية مغرقة في الخيال تتحدث بسذاجة عن اللقاء في أحضان الطبيعة والزوارق السابحة تحت أضواء القمر في البحيرات الحالمة.

وأعتقد أنني في حدود الرابعة عشرة بدأت أكتب شيئاً يصلح أن يسمى شعراً ، من ناحية الشكل على الأقل. غير أنني عندما أعود إلى أوراقي القديمة لا أجدني احتفظت بشيء مما كتبت في تلك الفترة وإن كنت أذكر تماما أنني كنت أنشر ما أكتب في صحيفة الحائط الفصلية. وترسخ في ذاكرتي اليوم أصداء باهتة من قصيدتين وطنيتين كتبتهما في تلك الفترة . أذكر من الأولى البيت الأخير :

طرق العلا محفوفة ... بالشوك والدنيا حروبْ

وأذكر من الثانية المطلع :

وطنٌ يضيع وعزة تتحطم ... وأسىً يجور وغاصبٌ يتحكم

كما أتذكر أنني ألقيت عدداً من القطع الشعرية في الاحتفالات الأدبية في المدرسة.

ولقد بدأت في تلك الفترة «المساجلة» ، وهي كلمة مهذبة لما كان في واقع الأمر مهاجاة بيني وبين عبدالرحمن ، هذه المساجلة التي أستمرت سنوات طويلة ولم تنقطع نهائياً حتى الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور[1]. يبدو أن فترة الرعاية التي اختصني بها عبدالرحمن في البداية تلاشت عندما تبين أن القادم الجديد إلى ساحة الشعر لم يكتف بقصيدة أو قصيدتين بل أستمر في الكتابة حتى تمتع هو بدوره بلقب الشاعر. وكانت المساجلة تتخذ طابعاً طريفاً سرعان ما أصبح حديث المدرسة بأكملها. وكان لكل منا أنصاره ومؤيدوه ، وإن كان الانصاف يقتضي أن أعترف أن شعبية عبدالرحمن كانت أوسع من شعبيتي بكثير.

كان يوم الخميس من كل أسبوع مخصصاً للنشاط الأدبي يتخذ شكل قصة أو مقالة أو قصيدة يلقيها أحد الطلاب على المدرسة بأسرها قبل بداية الدروس. كان عبدالرحمن يلقي قصيدة في موضوع من الموضوعات ، ويضمن بعض أبياتها هجاءً ذكياً مبطناً موجهاً إليّ. ثم يجيء دوري فألقي قصيدة من نفس البحر والقافية أضمنها رداً على الهجاء. وهكذا. تضمنت هذه المساجلات قصيدة عبدالرحمن :

هي البحرين ينبوع اللآلي ... عروس في الخليج بلا مثال
هواها في الدم الفوار جار ... يهز القلب كالخمر الحلال

---

(١) من هذه المساجلة الأبيات التالية التي كتبها عبدالرحمن عندما زار الرياض مرة ولم يتمكن من مقابلتي :

أتينا للرياض أبا سهيل ... لنسعد باللقاء ونراك مده
فقالوا في اجتماع قلت خيراً ... وزير صناعة لا وقت عنده
فقل إن كان صبرك من حديد ... فإن الصبر عندي بات .خردة.

وردي عليها :

سئمنا الشعر في الدمن البوالي وقمنا نبتغي طلب المعالي

وقصيدتي :

صحت من نومها ومضت سراعا شعوب العرب تندفع اندفاعا

ورد عبدالرحمن :

صدى الأحرار ملء الشرق شاعا فشمر يا فتى العرب الذراعا

وبالإضافة إلى الهجاء العلني ، والذي كان لا بد أن يتم بحذر شديد حتى لا يشطب الأستاذ المشرف على النشاط الأبيات التي تتضمنه ، وكان هناك هجاء أعنف آخر يتم بتبادل القصائد في الفصل أو كتابتها على السبورة.

وأعتقد اليوم ، ولا أشك أن عبدالرحمن يشاركني الاعتقاد ، أن الدوافع وراء المهاجاة كانت أدبية محضاً بمعنى أنه لم يكن هناك سبب شخصي حقيقي يبرر الهجاء. لقد استمرت علاقاتنا وثيقة وطيدة حتى في الفترات التي وصلت فيها المهاجاة ذروة القسوة أو البذاءة. كنا ايامها نقرأ للأخطل وجرير ونحفظ النقائض ويبدو أننا بعد أن جربنا حظنا مع أشعار الوطنية والغزل قررنا أن نطرق هذا الفن من فنون الشعر ولما كنا الشاعرين الوحيدين في المدرسة كان من الطبيعي أن يهجو أحدنا الآخر. وعندما أرجع اليوم بذاكرتي إلى تلك الأيام أجد أن هذه المساجلة بالإضافة إلى الإثارة التي أسدلتها على النشاط الأدبي ، كانت أستفزازاً لمواهبنا وحافزاً لنا على الاجادة والإبداع.

ومع العام الخامس عشر استقامت لي القوافي والأوزان. ولقد شهدت تلك السنة حدثاً تاريخياً في مسيرتي الشعرية عندما رأيت أول قصيدة لي منشورة في صحيفة حقيقية هي «الخميلة» التي كانت تصدر أيامها في البحرين :

ماذا يفيد تأوهي ودموعي ليست لياليـنا بذات رجوع
مرت سراعاً كالخيال وخلفت ألم الحزين وحرقة الموجوع

وبقت لها الذكرى الطروب تلوح في ... قلبي الجريح وترتمي بضلوعي

وأجد في أوراقي القديمة حوالي عشر قصائد كتبتها في تلك السن. وكانت مواضيع القصائد تشكل اهتمامات فتى عربي يافع في تلك الفترة المضطربة القلقة من تاريخ العرب.

أجد قصيدة بعنوان «أخي» مطلعها :

أخي ضمد الجرح وانهض معي ... إلى عزنا أو إلى المصرع

ومنها هذا المقطع :

وبئس القوافي إذا لم تكن ... لهيبا يزلزل باس العدى
وبئس القوافي إذا لم تكن ... تزين للثائرين الردى
وبئس القوافي إذا لم تكن ... تعربد للظلم إن عربدا
وما قيمة العمر إن لم يكن ... جهاداً لنيل المنى مربدا
وفيم ترجى البلاد الشباب ... إذا لم يكن للبلاد الفدا ؟

وأجد قصيدة وطنية أخرى بعنوان «مع الليل» مطلعها :

مشى السكون وأغفى في الدجى القمر ... وأقفر الكون لا همسٌ ولا سمر

ومنها :

يا ليل ما دام في أرض خيال أسى ... ولوعةٌ وعيونٌ شفها السهرُ
وغاصبٌ تتحدى الشرق سطوته ... وجمرةٌ في ضلوع الشرق تستعرُ
فلن تشاهد مني غير عاصفة ... من الشجون بقلبي البكر تشتجرُ
حتى إذا لاح فجر البعث وانتفض ... الأساد .. في ثورة الأمجاد وابتدروا
وزمجروا في هضاب القدس واقتحموا ... الحصون .. كالموت لا يبقي ولا يذرُ
ألفيتني غرداً أشدو ويسحرني ... جلالك الفذ بالإلهام يزدخرُ
وإن بدا بدرك الوضاح راودني ... إليه شوقٌ وهام القلبُ والبصرُ

وأجد قصيدة عاطفية بعنوان «ثورة» لها ذكرى خاصة لأنها أعطتني ثقة كبيرة بالنفس. بعد كتابة هذه القصيدة ذهبت بها إلى عادل، شقيقي الذي يكبرني بسبع سنوات، وأخبرته أنني قرأتها في أحدى الصحف لنزار قباني وكانت شهرة نزار قد بدأت تجتاح العالم العربي. وكم كانت دهشتي بالغة عندما انطلت الخدعة على عادل. تقول القصيدة:

طردت غرامك من خاطري وأبعدت طيفك عن ناظري

سلوتك لا تأملي أن أعود كما كنت عبد الهوى الآسر

سلوت وشبّت لظى الكبرياء تعربد في قلبي الداعر

وتمتم صوت الإباء الجريح بأرجاء نفسي كالآمر

أفق ! ما كفاك خضوع الذليل أما لجنونك من آخر ؟

وكانت هناك قصة أخرى بطلها عادل. كنت في تلك الأيام أتابع بشغف شديد ركن الشعر الذي يظهر في زاوية من زوايا الصفحة الأسبوعية التي كان يحررها المرحوم صالح جودت في المصور ، وكان يختار لكل عدد قصيدة قصيرة لشاعر معروف من شعراء العالم العربي. كان أقصى أحلامي أيامها أن ينشر شيء من شعري في تلك الزاوية. كتبت رسالة طويلة إلى صالح جودت أخبره فيها أنني طالب بالمدرسة الثانوية ومغرم بالشعر وأرفقت له آخر قصيدة كتبتها ملتمساً منه أن ينشرها وموضحاً أن نشرها سيكون حافزاً حقيقياً على متابعة الرحلة الشعرية :

تعالي نملأ الدنيا أغاريداً وألحانا

تعالي نقطف الأحلام فالأشواق ترعانا

وهذا النبع بين العشب نشوانٌ بلقيانا

وهذا البلبل الصداح مخمورٌ بنجوانا

***

تعالي ذلك البستان يا ليلى ينادينا

وفيه الورد قد أغفى على حلم تلاقينا

وعين البدر من آفاقها العليا تناجينا

وماء الجدول الرقراق بالهمسات يشجينا

***

تعالي قبل أن يذبل في روضتنا الزهرْ
تعالي قبل أن يغرب عن أحلامنا العمرْ
وتقفر بعدنا الدنيا فلا همسٌ ولا شعرْ
ولا لقيا محببةٌ ولا حسنٌ ولا سحرْ

***

وكم كانت خيبة أملي مريرة عندما تابعت الأعداد التالية من المصور فلم أجد القصيدة ولكنني وجدت في أحدها تعليقاً من صالح جودت في باب رسائل القراء لا أزال أذكر كلماته واحدة واحدة : «قصيدتك تدل على موهبة لا زالت برعماً يتفتح. اقرأ كثيراً فلا ينقصك إلا التعمق». ورغم ما احتوى عليه الرد من تشجيع واضح إلا أن عدم نشر القصيدة كان صدمة نفسية كبرى.

وهنا تدخل عادل وقال إنني المسؤول عن عدم نشر القصيدة إذ كيف أتوقع من صالح جودت أن ينشر لطالب مبتديء في المدرسة الثانوية وهو الذي يفاخر بأن زاويته لا تنشر إلا لكبار الشعراء المعاصرين. كتب عادل رسالة أخرى بالآلة الطابعة وعلى ورق فاخر ووقعها بالاسم المستعار الذي كنت أكتب به تلك الأيام محمد العليني - ولهذا الاسم قصة سأعود إليها بعد قليل- وكانت الرسالة مليئة بالتعالي ، وجاء فيها أن الشاعر تقديراً منه لمكانة صالح جودت يخصه «بقصيدة من شعرنا الذي لم ينشر من قبل في أي من دواويننا المطبوعة». وكم كانت دهشتي بالغة عندما تصفحت المصور بعد أسبوعين- فإذا بالقصيدة واسمها «صورة حبيبي» تحتل الركن العتيد :

وضعتها فوق قلبي	كي يستريح ويهدا
فازداد خفقاً ووجفاً	وازددت شوقاً ووجدا
وقلت تطفيء ناري	فزادت النار وقدا
قد خان عهدي حبيبي	ولم تخن هي عهدا

ولا أدري إلى اليوم هل كانت هذه القصيدة أفضل من سابقتها أم أن الحرب النفسية التي استخدمها عادل كانت المسؤولة عن نشر القصيدة. المهم أن صالح جودت استمر ينشر لي بالاسم المستعار حتى التقيت به في القاهرة بعدها ببضع سنوات وأخبرته القصة بأكملها فانفجر ضاحكاً وروى لي عدة قصص مشابهة تدور كلها حول انخداع الناس ، بما فيهم النقاد ، بالاسماء اللامعة وعجزهم عن تقييم أي عمل أدبي تقييماً موضوعياً بمنأى عن شخص الكتاب.

والحديث عن عادل يجرني بالضرورة إلى الحديث عن موقف العائلة من هذا الابن الشاعر الذي كان ظاهرة جديدة لم تعهدها العائلة وسابقة غير مألوفة في تاريخ الأسرة. وتقتضي الأمانة أن أقول إنني لاقيت من البداية الكثير من المؤازرة. كان عادل من المبرزين في اللغة العربية وكان أيامها ، قبل أن تستحوذ الأعمال التجارية بوقته كله ، قارئاً ممتازاً ، واستقبل محاولاتي الشعرية بالاستحسان والتشجيع. كما كان نبيل ، شقيقي الذي يكبرني بخمس سنوات رحمه الله ، بدوره مولعاً بالأدب والشعر ورغم أن تعليقاته على محاولاتي الشعرية الأولى كانت في كثير من الأحيان لاذعة وجارحة ، إلا أنه بدوره كان سعيداً بهذا الأخ الشاعر.

أما سيدي الوالد ، رحمه الله ، فقد كان اعتزازه بهذا الابن الأديب ظاهراً واضحاً. ولا أزال وأذكر أنه في سنة ١٩٥٥م - ١٣٧٥هـ تلقى لقب «وزير دولة» من الملك سعود رحمه الله ، فكتبت قصيدة بهذه المناسبة مطلعها :

لا أهـنـيـك بهـذا اللقـب ... أنـت أسـمـى منه قـدراً يا أبي

ولا أزال حتى هذه الدقيقة أتذكر الغبطة البالغة التي شاعت في ملامحه وهو يقرأ الأبيات. لقد طلب مني أن أعيدها ، وكنا في يوم عيد ، وأكثر من مرة أمام الزائرين. وكان مثل هذا الطلب في تلك المرحلة من العمر مصدر سعادة عارمه ولم أتردد في الاستجابة إليه. ثم بعد أن مرت السنوات والتحقت بالجامعة بدأت أشعر بحرج متزايد في الاستجابة لرغبة الوالد في إنشاد القصائد أمام جلاسه وزواره مع معرفتي الأكيدة أن اعتزازه بي وبما أكتب هو الدافع. وقد اضطررت عندما بلغت الثامنة عشرة أن ألجأ إلى عادل للتوسط مع أبي ليعفيني من هذا الإنشاد العلني وقد استجاب رحمه الله ضاحكاً ولم يطلب متى بعدها أن ألقي قصيدة ما لم أتطوع بذلك. كنت ألمس هذا الشعور بالاعتزاز لدى جدتي رحمها الله - وهي التي قامت في تربيتي مقام والدتي التي توفيت إذ كنت في الشهر التاسع- ولدى بقية إخواني وأخواتي. وأعتقد اليوم ، لا بل أنني أجزم ، أن هذا الجو العائلي المتعاطف كان له أثره الفعال في استمراري في كتابة الشعر وأتصور أنني لو جوبهت برد فعل معاد لكان لذلك أثر سلبي قليل أو كثير.

وأحب أن أعود الآن إلى حكاية الاسم المستعار. كانت البحرين أيامها تغلي بمشاعر الوطنية والاستقلال شأنها شأن بقية أرجاء العالم العربي ، وكان وضعها الخاص باعتبارها محمية بريطانية يزيد تلك المشاعر التهاباً. لم يكن من المناسب لفتى في الخامسة عشرة أن يتعاطى «السياسة» عن طريق نشر القصائد المناوئه للاستعمار- والاستعمار أيامها كان يعني بريطانيا- لسببين رئيسين : أما أولهما فإن المدرسة لم تكن تنظر بعين العطف إلى مثل هذا النشاط يمارسه

طالب من طلبتها. وأما ثانيهما فإن العائلة- وسيدي الوالد بوجه خاص- لم تكن ترتاح إلى هذا المسلك يمارسه ابن من أبنائها ، وذلك خشية ما قد يسببه من أضرار بالعلاقات الوطيدة التي كانت -ولا تزال- تربط العائلة بحكومة البحرين. من هنا نشأت فكرة الاسم المستعار. على أن الصراحة تجبرني أن أذكر أنني أعتقد الآن أن هناك سبباً نفسياً لا يقل أهمية وهو أنني في تلك المرحلة المبكرة لم أشأ أن أواجه العالم الرسمي الحقيقي خوفاً أن يكون ما أنشره دون المستوى الذي أرجوه لنفسي ، وهذا بالمناسبة شعور لا يزال يراودني بين الحين والآخر. المهم أنني قررت أن أنشر باسم مستعار ووقع اختياري على اسم محمد العليني. وقد اخترت الاسم الأخير لأنه على وزن القصيبي ، أما الاسم الأول فقد أخترته لأنه أكثر الاسماء العربية شيوعاً. لقد كانت الغالبية العظمى من القصائد التي نشرتها في تلك الفترة سواء في صحف البحرين أو في مجلة المصور بهذا الاسم المستعار. وقد لفت هذا الشاعر الجديد إليه الانظار وتساءل الناس عن صاحبه وظهرت دراسة في احدى صحف البحرين عن شعر محمد العليني ، غير أن المتتبعين للحركة الأدبية في البحرين كانوا يعرفون تمام المعرفة الاسم الحقيقي للشاعر.

على أن الكتابة باسم مستعار لم تحل المشكلة. ذلك أن الشعور الشعبي ضد الوجود البريطاني في البحرين ازداد حدة ووجدت نفسي منساقاً في هذا التيار الجارف ألقي القصائد الوطنية في الاجتماعات الشعبية وأكتبها لتوزع باسم مستعار أو بدون اسم. ولقد أدى ذلك الموقف إلى توتر شديد في علاقاتي مع والدي ومع عادل. استمر حتى غادرت البحرين في منتصف سنة ١٩٥٦م-(١٣٧٦هـ). ولم تكن هذه آخر المشاكل التي سببها الشعر في علاقاتي مع الآخرين. فكم من قصيدة بعد ذلك أثارت ثائرة قليلين أو كثيرين. وهذا أمر لا خيار لي فيه فالشاعر لا يكتب ليرضي أحداً أو ليغضب أحداً وإنما ليعبر عن مشاعره ولا حيلة له بعد في ردود الفعل المستحسنة أو المستنكرة.

ولا أظنني بحاجة إلى القول بأن الشاعر ، أي شاعر ، كثيراً ما يجد نفسه في صراع مع بيئته ويزداد هذا الصراع كلما كانت بيئة الشاعر محافظة متزمتة. لقد تمتع الشاعر في تاريخنا الأدبي العربي بحرية كبيرة ، وكان الناس عموماً ينجحون في التفرقة بين شخص الشاعر وشعره. ولم أسمع خلال تاريخنا أن أحداً طالب برجم شاعر لأنه تحدث عن الوصال أو بجلده لأنه وصف الخمر. وفي قصيدة «بانت سعاد» التي ألقاها كعب بن زهير أمام الرسول عليه الصلاة والسلام غزل حسي مثير وتشبيه لنشوة الحب بسكرة الخمر ووصف تفصيلي لقوام الحبيبة، ولم يذكر لنا التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استهجن من ذلك شيئاً. والأمثلة على هذه الحرية الشعرية أكثر من أن تعد غير أنه كانت

هناك دائماً أقلية متزمتة تحاول تكميم كل صوت لا يروق لها باسم الدفاع عن القضيلة والأخلاق. وقد كانت لي مع هؤلاء مشاكل وخطوب ليس هذا المجال الأمثل لسرد تفاصيلها.

على أنني لا أود أن أترك موضوع المشاكل التي سببها لي الشعر قبل أن أروي حادثة طريفة وقعت وأنا في السنة النهائية من المدرسة الثانوية. كان في المدرسة بالإضافة إلى القسم العام الذي كنت أنتسب إليه قسم آخر يسمى القسم التجاري يدرس الطلبة مباديء المحاسبة والسكرتارية. وكانت المنافسة بين القسم العام والقسم التجاري على أشدها في مختلف المجالات وفي الميدان الرياضي على وجه الخصوص. وفي تلك السنة فاز فصلنا على الفصل التجاري في مباراة كرة القدم ، وهو انتصار لم يكن لي فيه من فضل سوى التشجيع الصاخب. وكان الفوز مناسبة قابلناها بالاحتفال وقابلها طلبة القسم التجاري بالغيظ والحنق. ثم مرت الأيام وهزم فصلنا هزيمة ساحقة في مباراة مع فصل السنة الثالثة ، وكانت شماتة منافسينا في القسم التجاري واضحة عنيفة ودفعتني إلى أن أكتب قصيدة في هجائهم :

كأنكمُ وحوشٌ يا تجاري	**بأخلاق كأخلاق الحمار**
شمتم بالكرام لأن فيكم	**نفوساً مثل حيات القفار**
وفيكم حرقةٌ كبرى تلظت	**ولن تطفي حرارتها «عذاري»(١)**

وقعت القصيدة على رفاقنا أسوأ موقع فأرسلوا وفداً كبيراً منهم إلى مدير المدرسة مطالباً بتوقيع أقسى العقوبات على الشاعر الهجاء. ومن حسن الحظ أن المدير كان من متذوقي الأدب فاطلع على القصيدة وضحك طويلاً وشرح للوفد أنه لا يستطيع توقيع عقوبات جسدية مقابل مخالفة أدبية. وذكر للمشتكين أنه يسمح لهم بهجائي أو الاستعانة بمن يقوم بذلك نيابة عنهم. كانت تلك المحاولة الأولى لاستعداء السلطات على شعري ، ولكنها لم تكن الأخيرة. غير أن تلك قصة أخرى !

ومع العام السادس عشر طرأ -فيما أتصور- تحسن واضح على ما أكتب مسّ الشكل والمضمون ويضم ديوان أبيات غزل مقطوعتين كتبتهما في تلك السن(٢). وأجد في أوراقي اليوم ما يقرب من ثلاثين قصيدة مكتوبة في تلك الفترة موزعة على ثلاثة محاور : الشعر الوطني والشعر الديني والشعر الغزلي. أجد من الشعر الوطني قصيدة عن فلسطين :

---

(١) عذاري : ينبوع ماء شهير في البحرين .

(٢) « اضحكي » و«من قبل» أبيات غزل : مكتبة دار العلوم ، الرياض ١٩٧٦م - ١٣٩٦هـ ص.ص : ٣-٦ .

رعودك في مهجتي تزأرُ | وجرحك في أضلعي ينغرُ
فما نحن في الشرق إلا شعوبٌ | يوحدها القيد والخنجرُ
وما نحن إلا انتفاضٌ عصوفٌ | يود له الموت مستعمرُ
وما نحن إلا السياط التي | تحمّلها صدرنا الأسمرُ
وما نحن إلا الأماني العذاب | لمستقبل بالمنى يزخرُ

وأجد قصيدة في الاسراء :

ليلةٌ قد هرم الدهر وما | برحت تخطر في زهو صباها
كلما مرّ عليها زمنٌ | زادها خلداً وبالفخر كساها
فمشت بين الليالي قمراً | يرسل النور ضحوكاً في دجاها
ليلةٌ تاهت وماست طرباً | عندما أشرق فيها نور طه
إذ سرى يرتاد فيها غاية | يقف الفكر صريعاً عن مداها

وأجد قصيدة عاطفية عنوانها «أنت» :

أنتِ أحلى من الربيع | وأبهى من الضياء
أنتِ أغرودة المنى | أنت أنشودة الرجاء
أنتِ حلم النجوم | والفجر حورية السماء
أنتِ لحن الهوى | وهمس العصافير للمساء

وأبيات بعنوان «بسمة»:

هذه البسمة رفت نسمةً | فوق صحراء حياتي المقفرة
فإذا بالكون يضحي جنة | من خيالات عذاب مسكرة
وإذا بي سابح في عالم | كل ما فيه زهور عطرة

ومع صيف سنة ١٩٥٦م - (١٣٧٦هـ) أنهيت دراستي في البحرين وانتقلت إلى القاهرة لالتحق بالمدرسة السعيدية طالباً بالتوجيهية، ثم بكلية الحقوق في جامعة القاهرة. وكان هذا الانتقال بداية مرحلة جديدة هامة في حياتي وفي تجربتي الشعرية سأعود إليها بعد قليل.

الفصل الثاني

المؤثرات الأولى

«الشعر .. ليس مجرد عواطف .. ولكنه تجارب»

ريلكه

الحديث عن المؤثرات التي لعبت دوراً في تجربتي الشعرية يسير وعسير في الوقت نفسه. هو يسير لأن سرد أسماء الشعراء الذين أعجبت بهم أو الكتب التي قراتها أمر لا يتطلب كثيراً من الجهد. وهو عسير لأمور عدة. منها أن التأثر عملية نفسية لا شعورية يعجز الشاعر نفسه في كثير من الحالات عن تبينها في نفسه أو في شعره ، ولهذا فكثيراً ما نجد شاعراً يغضب إذا قلنا له إننا نرى ملامح شاعر آخر في قصائده. ومنها أن التأثر لا يمكن ارجاعه ببساطة إلى شعراء بعينهم أو مؤلفات بذاتها إلا فيما ندر من الحالات وفي بداية التجربة الفنية. حقيقة الأمر أن ما يقرأه الشاعر من نثر وشعر وما يمر به في حياته من تجارب شقية وسعيدة والبيئة السياسية والثقافية والاجتماعية المحيطة به عناصر تمتزج وتتفاعل فيما بينها مشكلة في مجموعها القوى والأحاسيس والانفعالات التي تتسلل إلى وعي الشاعر وإلى لا شعوره وتترك بصماتها على حياته وعلى شعره. ومحاولة فصل هذه العناصر المتداخلة عن بعضها وتحليلها واحداً واحداً أمر في منتهى الصعوبة ، إن لم يكن أمراً مستحيلاً.

لقد بدأت قراءاتي الشعرية في حوالي الثانية عشرة ، بشاعرين مفضلين هما شوقي وحافظ. وأتصور الآن أن مرجع هذا الإعجاب هو تأثير الأساتذة المصريين الذين كانوا يدرسوننا اللغة العربية وآدابها ، بالإضافة إلى قطع المحفوظات الكثيرة التي تضمنتها المناهج لهذين الشاعرين. على أنه مهما كان السبب الحقيقي فقد كان هذان الشاعران قريبين إلى قلبي وقد قرأت «الشوقيات» وديوان حافظ إبراهيم مرات أكثر من أن أعدها ، وحفظت جملة لا بأس بها من شعر هذين الشاعرين. وأود أن أقف هنا وقفه قصيرة لأقول إن ما لاقاه هذان الشاعران في حياتهما من تكريم مبالغ فيه ، بلغ مدى سخيفاً مضحكاً بمبايعة شوقي أميراً للشعراء ، انقلب بمرور الأيام إلى معاداة ثم إلى لا مبالاة واستخفاف. ويندر اليوم أن نجد من النقاد المحدثين من يذكر شوقي أو حافظ بالخير. وفي هذا من التجني ما فيه ، خصوصاً بالنسبة لشوقي الذي لا أزال أعتبره شاعراً مبدعاً رغم أن جذوة إعجابي القديم به قد خبت. وأتصور أن التاريخ الأدبي سيدور دورة جديدة ويعيد تقييم هذين الشاعرين على نحو أكثر هدوءاً ويضعهما في موضعهما المناسب كشاعرين حقيقيين، لا أكثر من ذلك ولا أقل.

وفي سن الرابعة عشرة اكتشفت شاعراً مفضلاً ثالثاً هو محمد مهدي الجواهري وعندما أعود اليوم إلى قصائدي الوطنية الأولى أجد تأثير هذا الشاعر واضحاً ملموساً.

تقول إحدى هذه القصائد :

ثوري براكين الألم ... ثوري صواعق من نقم

ثوري صباحا يملأ ... الأرجاء يهزأ بالظلم

ثوري أنينا يخنق ... الألحان يغتال النغم

وقد كنت أعجب إعجاباً خاصاً بالقصيدتين الشهيرتين في رثاء أخيه ، ومطلع الأولى :

أتعلم أم أنت لا تعلم ... بأن جراح الضحايا فم ؟

ومطلع الثانية :

يوم الشهيد تحية وسلام ... بك والنضال تؤرخ الايام

ولا أزال، حتى اليوم، أعتبر أولاهما درة من درر الرثاء، وشعر الرثاء لصيق بقلبي، وجوهرة من جواهر الشعر العربي قديمه وحديثه.

ثم التقيت بشعر عمر أبو ريشة وقد دلني عليه الصديق القديم العزيز على سيار صاحب جريدة صدى الأسبوع في البحرين وكان أيامها يحرر جريدة القافلة التي كنت أنشر فيها قصائدي. وكان لقائي بعمر أبو ريشة نقطة تحول في مساري الشعري ولعلي لا أعدو الحقيقة إذ قلت إنني تأثرت به أكثر من أي شاعر آخر. وعندما أسعدتني الظروف بمقابلة عمر أبو ريشة قبل سنوات قليلة قدمت نفسي إليه على أنني تلميذ من تلاميذه ولم أكن أبالغ أو أجامل. بهرت بقصائد أبو ريشة ووجدت نفسي أمام شعر جديد بطعم جديد ونكهة جديدة. لقد استمر اعجابي بعمر أبو ريشة قوياً على مدى السنين وإن كنت أعتقد أن تأثيره في قصائدي الأولى كان أوضح من تأثيره في قصائدي في المرحلة الثانية. أجد في أوراقي القديمة قصيدة كتبتها في سن السادسة عشرة بعنوان «المسلول» :

قتل اليأس فيه حلم شبابه ... فتهاوى مرنحا بمصابه

ذاهلاً عن وجوده يحسب الكون نواحا يزيد من أوصابه

ساهما ترقص الدموع بعينيه وتسعى الآلام في أهدابه

ولا أظن أن أحداً من الأدباء بحاجة إلى كثير من ذكاء ليلمس التأثر الواضح بقصيدة أبو ريشة الرائعة «مصرع فنان» :

نام عن كأسه وعن أحبابه ... قبل أن ينقضي نهار شبابه

وفي المرحلة نفسها بدأت القراءة لنزار قباني وعن طريقه اكتشفت عالم الشعر الحديث المتحرر من رتابة التفعيلة ، وتوطدت علاقتي مع اللغة الشعرية الجديدة التي اكتشفتها لأول مرة عند أبو ريشة . لقد ذكر لي عدد من الأصدقاء ، وكتب بعض النقاد ، أن العديد من قصائد **أشعار من جزائر اللؤلؤ** تعكس روح المدرسة النزارية ولعل في هذه الملاحظة بعض الصحة. عندما أعود إلى قصائدي الغزلية القديمة ألمح الأسلوب النزاري واضحاً كل الوضوح. تقول قصيدة بعنوان «نجوى» كتبتها في سن السادسة عشرة :

عيناك بحر زاخر بالمنى ونغمة شاردة شاجية

من فجرها العلوي يهمي السنى ويدفق العطر على الرابية

وتقول قصيدة أخرى كتبتها في السابعة عشرة :

شقراء.. يا أحلى أغاني الصبا ويا ابتسامات الجمال الثرى

الشوق ؟.. ما الشوق سوى قبلة تهيم فوق الجدول الأشقر

والعمر ؟.. هل عمري سوى لحظة على جناح الموعد الأخضر ؟(١)

غير أنني أشك في أن تأثري بنزار قباني تجاوز الألفاظ والأسلوب في أي مرحلة من مراحل تجربتي الشعرية.

والتقيت في بداية طريقي الشعري بشاعرين كان شقيقي نبيل ، رحمه الله ، يعتبرهما أعظم شعراء القرن العشرين العرب هما أبو القاسم الشابي والأخطل الصغير ، لقد تأثرت كثيراً ، كما تأثرت أجيال متوالية من الشعراء الشباب العرب ، بقصيدة الشابي المشهورة الجميلة «صلوات في هيكل الحب»(٢).

عذبة أنت .. كالطفولة .. كالأحلام .. كاللحن .. كالصباح الجديد

وعندما أعود إلى الشعر الذي كتبته في تلك الفترة أجد أصداء هذه القصيدة الخالدة ، بل وألفاظها ، في أكثر من مكان. تقول إحدى القصائد في مجاراة واضحة لأسلوب الشابي :

يا ابنة النور.. أنت لي فدعينا ننطلق في عوالم الأحلام

وتقول قصيدة أخرى :

جمعتنا الأيام يا نشوة القلب فضمت مشرداً لشريدة

(١) «شقراء» . **أشعار من جزائر اللؤلؤ** - دار الكتب - بيروت - ١٩٦٠م. ص ٢٢ .

(٢) يعتبر بعض النقاد قصيدة الشابي هذه أول قصيدة في الشعر العربي تعالج الحب كمحور أساسي ينتظم القصيدة من أولها إلى آخرها . على أنني لا أعتقد أن هذه الملاحظة صحيحة . ففي شعرنا القديم قصائد عديدة محورها الوحيد هو الحب كما نشاهد في شعر المجنون وكثير عزة والعباس بن الأحنف وغيرهم .

نحن جرحان من جروح التقاليد	ومن قسوة الليالي العنيدة
نحن قيثارتا لحون ولكن	أتعي لحننا النفوس البليدة

غير أنني بمرور الوقت وجدت أن شعر الشابي باستثناء قصائد معدودة كان وسطاً لا يرقى إلى مستوى الروعة وأعتقد أنني بانقضاء فترة المراهقة هجرت عالمه الشعري إلى غير عودة. أما الأخطل الصغير فقد أعجبت بمقطوعاته الغزلية وقصائده الوطنية ، وخصوصاً قصيدته النونية الجميلة في فلسطين ، اعجاباً كبيراً وإن كنت لا أستطيع الآن أن أتبين هذا الاعجاب في القصائد التي كتبتها في تلك المرحلة.

وفي حوالي السادسة عشرة اكتشفت إبراهيم ناجي وبدأ اعجابي الشديد به ، هذا الإعجاب الذي استمر حتى هذه اللحظة والذي يزداد رسوخاً بمضي الأيام. ومن المؤسف المؤلم أن هذا الشاعر المبدع لم ينل ما يستحقه من مكانة لا مع القراء ولا مع النقاد. وسيسجل تاريخنا الأدبي ، بسخرية ، أن الغالبية الساحقة من العرب لم تسمع عن إبراهيم ناجي إلا عندما غنت له أم كلثوم مقاطع من ملحمة الأطلال. ومع أنني اكتشفت إبراهيم ناجي في سن مبكرة وقرأت له كل ما وقع تحت يدي ، حفظت الأطلال كاملة على سبيل المثال في السابعة عشرة ، إلا أنني لا أجد تأثيراً كبيراً لإبراهيم ناجي في شعر تلك الفترة بل أجد تأثيره أوضح ما يكون في القصائد التي كتبتها بعد تلك الفترة بعدة سنوات والتي جاءت في ديوان **قطرات من ظمأ**. ولعل هذا دليل جديد على أن عملية التأثر ليست بسيطة أو مباشرة كما نتصور ولكنها عملية شديدة التعقيد يلعب فيها اللاوعي دوراً يفوق دور العقل الواعي.

وإذا كنت قد اكتشفت الشعر الحديث المتحرر من رتابة القافية والتفعيلة مع نزار قباني ، فإن صلتي بهذا الشعر ازدادت عمقاً بتعرفي على انتاج بدر شاكر السياب هذا الشاعر المأساوي العظيم الذي نجح أكثر من أي شاعر سبقه في المزاوجه بين التراث والتجديد[1]. وكانت رائعة السياب «المومس العمياء» هي أول ما قرأت له وقد بلغ من أعجابي بها أنني كنت أحفظها كاملة ولا تزال حتى اليوم في ذاكرتي مقاطع عديدة منها. كما أنني أعجبت بقصيدته الشهيرة «أنشودة المطر» اعجاباً لم يفارقني قط. وأتصور أنني في كثير من القصائد التي كتبتها من الشعر الحديث كنت متأثراً بالسياب ، في المضمون وأحياناً في الأسلوب(٢).

(١) كان امل دنقل رحمه الله الشاعر الثاني الذي حقق نفس النجاح .

(٢) من أفجع التعليقات على قصور الوعي الثقافي عند العرب أن السياب وهو شاعر من أعظم شعرائهم عاش حياة مليئة بالفقر والحرمان المادي . واضطره العوز إلى اتخاذ مواقف حزينة أليمة تتناقض مع مبادئه .

بالإضافة إلى هؤلاء الشعراء أعجبت في المرحلة الأولى من التجربة بإيليا أبو ماضي وإبراهيم العريض وعلي محمود طه وأمين نخلة وسليمان العيسى وإبراهيم طوقان. واعجبت في مراحل تالية ببدوي الجبل وسعيد عقل وشفيق معلوف وصلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازي ، وأمل دنقل ، ولكن هذا الإعجاب -فيما أتصور- لم يترك نفس الأثر الذي تركه الشعراء الذين تحدثت عنهم قبل قليل.

أما عن الشعراء القدامى فقد قرأت لعدد كبير منهم بدءاً بشعراء المعلقات فالعصر الإسلامي الأول فالأموي فالعباسي فعصور الانحطاط. ولقد أعجبت بجرير وعمر بن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف وابن الرومي والشريف الرضى والشعراء العذريين ولكن اعجابي كان مقتصراً على قصائد بعينها ولا أعتقد أن أحداً منهم نال في قلبي المكانة التي نالها الشعراء المعاصرون الذين ذكرتهم. ومع أن علاقتي بالمتنبي بدأت مبكرة ، أذكر أنني كتبت مقالاً عنه في مجلة الحائط الفصلية عندما كنت في الرابعة عشرة ، إلا أنني لم أعجب به إلا تدريجياً على نحو متزايد بمرور السنين. إنني اليوم أشد إعجاباً بالمتنبي مني يوم أن قرأت ديوانه لأول مرة، بل لعلني اليوم أكثر تأثراً به مني في البداية. ولا أدري كيف أفسر هذه الظاهرة وهل تدل على أن شعر المتنبي لا يمكن أن يتذوقه بكل أبعاده إلا من بلغ قدراً من النضوج والتجربة ، أم تدل على أن المرء يجنح إلى العودة إلى جذوره الأولى كلما تقدمت به السن ، أم أن الأمر مزيج من هذا وذاك.

هؤلاء هم الشعراء القدامى والمحدثون الذين أتصور أنني تأثرت بهم تأثراً أستطيع أن أتبينه ويمكن أن أتحسسه ، أو يتحسسه غيري ، في بعض ما كتبت من قصائد. ولكنني بالإضافة إلى هؤلاء قرأت لشعراء عديدين دون أن أصل إلى درجة الإعجاب بهم. ولا أستبعد ، لا بل أنني أجزم ، أن من هؤلاء الشعراء من ترك خطاه على عالمي الشعري ويزيدني يقيناً أنني كثيراً ما أعجب ببيت واحد أردده دون أن أعرف قائله ، أو أعجب بقصيدة ما لشاعر لا يعجبني شعره في العادة.

وما دمت قد تحدثت عن الشعراء الذين أحببتهم فقد يكون من المناسب التطرق إلى شعراء آخرين لا يقلون عنهم شهرة فشلت في الاعجاب بهم. لقد حاولت جاهداً تذوق شعر عبدالوهاب البياتي ولكني كنت في واد وكان شعره في واد آخر. ولا زلت حتى اليوم أجد عسراً بالغاً في التجاوب معه واستغرب الضجة الكبيرة التي يثيرها والاهتمام الكبير الذي يلقاه من النقاد. كما حاولت أن أتذوق أدونيس ولكنني أصبت بفشل ذريع دفعني إلى الكف

عن المحاولة. ومن الشعراء القدامى فشلت في الإعجاب بأبي تمام والبحتري لما لمسته من آثار الصنعة الواضحة في شعرهما. كما أنني بقدر إعجابي بسقط الزند للمعري أصبت بخيبة أمل كبيرة في اللزوميات.

والحديث عن المؤثرات لا يكمل بدون التعرض إلى قراءاتي خارج الشعر. لقد كنت منذ سن التاسعة وحتى اليوم قارئاً مدمناً ، إن جاز التعبير ، ولا أعتقد أن أسبوعاً واحداً قد مر بي منذ أن أجدت القراءة ولم أنته فيه من قراءة كتابين أو ثلاثة. إنني لا أذكر هذا الادمان على سبيل المباهاة ولكن كحقيقة لا يد لي فيها. ولو قدر لي أن أرسم حياتي من جديد لما خصصت للقراءة هذا الوقت الكبير ولأكثرت من النشاطات البدنية التي أهملتها اهمالاً تاماً بدأت اليوم أدفع ثمنه. من الطبيعي والحالة هذه ، أن تكون قراءاتي قد غطت حقولاً واسعة ومتنوعة. لقد قرأت الكتب الأدبية التقليدية من «البيان والتبيين» إلى «العقد الفريد» إلى «الأغاني» ، وقرأت بتوسع في التاريخ والرواية والقصة والسيرة ، بالإضافة إلى ما تطلبته الدراسة الأكاديمية من قراءات واسعة في القانون والعلوم السياسية والاقتصاد وعدد آخر من العلوم الاجتماعية.

على أنني يجب أن أعترف أن الثقافة التي حصلت عليها من خلال مطالعاتي لم تخل من عدة ثغرات. أولها : أنني لا أتقن من اللغات الأجنبية سوى الانجليزية وما يسببه هذا الجهل من قصور في الثقافة أمر لا يحتاج إلى بيان. وثانيهما : أنني لم أدرس الأدب دراسة منهجية علمية تتناول تاريخه وتحليله ونقده. وإلى هذا السبب لا إلى التواضع يعود احجامي فيما يجري معي من مقابلات أدبية عن الادلاء بأحكام نقدية حاسمة تمس شعراء بذاتهم أو فترة تاريخية بعينها. لقد كنت ، ولا أزال ، قارئاً عادياً يتأثر بعفوية ويحكم بعفوية لا ناقداً يؤصل وينظر. وثالثهما : أنني لم أقرأ الشعر قراءة الباحث المستقصي المتتبع. لا أدعي ، كما يفعل بعض الشعراء ، أنني قرأت لكل شاعر عربي. ولا أدعي أنني أقرأ اليوم كل ديوان تدفع به المطابع في العالم العربي إلى الأسواق أو كل ديوان تلقى به الظروف في يدي. كثيراً ما أكتفي بقراءة ثلاثة أبيات أو أربعة من ديوان ما قبل أن ألقي به إلى سلة المهملات أو إلى ركن يملؤه الغبار من المكتبة. أما الثغرة الرابعة فهي أنني لم أتمكن من تذوق اي شعر غير الشعر العربي. لقد قرأت بالإنجليزية مئات الروايات والقصص ، إلا أنني لم أقرأ من الدواوين إلا مجموعة تعد على أصابع اليدين ، ولا تتجاوز رحلتي في الشعر الإنجليزي شذرات ومقطوعات من هنا وهناك لشعراء قلائل هم شكسبير وبيرون وشيلي وجريفز ، أما

خارج الشعر الإنجليزي فتقتصر قراءاتي على قصائد مترجمة إلى العربية أو الإنجليزية من الشعر الألماني والصيني والهندي والفارسي والياباني والأسباني ، وهي في مجموعها أهزل من أن تعد إلماماً حقيقياً بالشعر العالمي. ومن هنا أشك أن يجد ناقد من النقاد تأثيراً كبيراً للشعر الأجنبي فيما أكتب اللهم إلا إذا جاء هذا التأثير متسللاً عن طريق أحد الشعراء العرب الذين أعجبت بهم.

لقد فكرت طويلاً في ظاهرة عزوفي عن الشعر الأجنبي ولم أصل إلى تفسير سوى إيماني بأن الموسيقى عنصر أساسي رئيسي من عناصر الشعر ، وأعني هنا الموسيقى التي تعودت عليها الأذن العربية من خلال العروض والقوافي. لقد افتقدت هذه الموسيقى فيما قرأت من شعر أجنبي أصيل أو مترجم، وكنت باستثناء حالات نادرة أشعر أنني أقرأ نثراً لا شعراً. ولعل هذا التعلق بالموسيقى هو الذي بدفعني إلى الاعتقاد أن الكلام الذي يتحرر من الموسيقى نهائياً لا يمكن أن يكون شعراً ، وإن أمكن بالطبع أن يكون نثراً بالغ الروعة. ومن هنا فإنني أعتقد أن ما يسمى بقصيدة النثر ليست بقصيدة على الاطلاق.

لقد كان من حسن حظي ، أو سوئه ، أنني في مرحلة التأثر الأولى بدأت قراءاتي في الشعر القديم والشعر الحديث معاً وتذوقتهما على حد سواء. ولعل هذا السبب هو الذي جعلني طيلة مسيرتي الشعرية وحتى اليوم أقف موقفاً وسطاً بين المعسكرين. إن الجدل حول الشعر التقليدي والشعر الحديث[1] لم يستطع أن يجذبني إلى أي من الفريقين. الشعر شعر ويستوي بعد ذلك أن يكون متساوي التفعيلات أو لا يكون.

لقد كتبت أول قصيدة بالشكل الحديث في سن السادسة عشرة وكتبت القصيدة الثانية في السابعة عشرة وكان اسمها «نداء الربيع» :

أطـــــلـي عــلـــــيـنـا
أذيـبـي ضـيـاءك في مـقـلـتـيـنـا
فــــمــــلء يــــدي الجــراح
وفي مـسـمـعـي يـدوي الـنـواح
أطـلـي فـعـيـنـاك روح الحـيـاة
وعيناك روح الربيع الجنونْ

(١) في الموازنة بين أنصار الشعر القديم وأنصار الشعر الحديث - انظر غازي عبدالرحمن القصيبي - عن هذا وذاك - منشورات دار الوطن - الرياض ١٣٩٨هـ ص . ص . ١١٦-١١٨ .

ومنذ ذلك الحين وأنا اكتب الشعر بشكليه القديم والحديث. ولعل عدد القصائد التي كتبتها من كل نوع يساوي العدد من النوع الآخر. وعلى خلاف بعض الشعراء الذين ينزعون بمرور الوقت إلى هجر أحد النوعين والتفرغ نهائياً للنوع الآخر فإنني أجد نفسي ما زلت حتى الآن أكتب الشعر بنوعيه وبالنسبة نفسها.

ولا بد لي هنا أن أعود مرة أخرى لأؤكد ما بدأت به هذا الفصل من أن المؤثرات الحقيقية في حياة أي شاعر لا يمكن أن تحصر وتحدد وتعرف. لقد تعرضت في الصفحات الماضية إلى عدد من التأثيرات التي لعبت دوراً في تجربتي الشعرية ، ولكنني على ثقة أنني لم أتعرض إلى أهم المؤثرات أو اعمقها. وكيف يمكنني أن أتناول هذه المؤثرات بدون أن أحول هذا الكتاب من إطاره المحدود كسيرة شعرية إلى إطار أوسع بكثير هو إطار السيرة الذاتية ؟ بل كيف يمكنني حتى عندما تتيح لي الظروف أن أكتب قصة حياتي كاملة ، أن أضع أصابعي على المؤثرات الحقيقية المختفية وراء شعري؟ كيف يمكن أن أعرف أثر صداقتي مع فلان أو علان من الناس ؟ أو اثر اقامتي في مدينة معينة أو أثر تجربة شخصية بعينها ؟ أو أثر انتمائي إلى وسط اجتماعي وثقافي محدد ؟

إن المؤثر الأول والأخير في شعر الشاعر هو حياته نفسها بكل ما تحويه من أحداث ووقائع. ولعل أجمل وأبلغ ما قرأت في هذا المعنى السطور التالية للشاعر الألماني الشهير ريلكه :

وا اسفاه ! هذه الأشعار التي يكتبها المرء في صباه ليست بشيء على المرء أن ينتظر ، أن يجمع الحلاوة والظلال ، خلال حياته -الطويلة إن أمكن- وذلك لكي يتمكن في النهاية من كتابة عشرة أبيات جيدة. الشعر بخلاف ما يتصور الناس ، ليس مجرد عواطف (فما اسرع مجيء العواطف) ولكنه تجارب. لكي يكتب الإنسان بيتاً واحداً من الشعر يجب أن يرى مدناً كثيرة ، وأمماً كثيرة ، وأشياء كثيرة. عليه أن يتعرف على الحيوانات ، ويراقب طيران الطيور في الهواء ، ويشاهد كيف تتفتح الزهور الصغيرة في الصباح. على الإنسان أن يتذكر طريق العودة إلى أماكن مجهولة ، إلى أشياء نسيت منذ

زمن ، إلى ايام الطفولة، إلى أبيه وأمه ، إلى أيامه على البحر ، إلى ليالي السفر.. ولكن الذكريات وحدها لا تكفي. على الإنسان أن ينساها وأن يتحلى بصبر واسع حتى تعود من جديد وتصبح جزءاً من دمنا ونظرتنا وحركاتنا .. عندها في ساعة نادرة يمكن أن تستيقظ الكلمة الأولى في قصيدة ثم تنطلق.

الفصل الثالث

أشعار من جزائر اللؤلؤ

آه .. كم أشقى بشيء مبهم

ثائر يشعل ناراً في دمي

مرسلاً أصداءه عبر فمي

عالم يسبح فيه قلمي

ثم يرتد كسيح القدم

آه .. لو صورته في كلمي

لنحت الدهر أحلى نغم

طاف في بال يراع ملهم(١)

---

(١) «لحن» أشعار من جزائر اللؤلؤ ص. ٥١.

كان الانتقال من البحرين إلى القاهرة «صدمة حضارية» بالمعنى الصحيح. كانت القاهرة أيامها تمثل مركز الثقل السياسي والثقافي والعلمي في العالم العربي وكانت تموج بتيارات فكرية شتى : تيار القومية العربية الجديد الذي بدأ الرئيس جمال عبدالناصر يتبناه ويفرضه على الشعب المصري ، التيارات الحزبية في العالم العربي وكان أهمها حزب البعث وحركة القوميين العرب ، الفكر المصري التقليدي الذي يرى أن مصر تشكل قومية خاصة متميزة بها. وفيما يتعلق بالشعر ، كان هناك صراع عنيف بين أنصار الشعر التقليدي وفي مقدمتهم الأستاذ عباس محمود العقاد وبين جيل جديد من الشعراء الشباب كان ألمعهم في ذلك الوقت صلاح عبدالصبور.

كما أن الانتقال إلى القاهرة كان على المستوى الشخصي صدمة نفسية أحدثت آثاراً بعيدة المدى. لأول مرة في حياتي أترك أمن البيت وحنانه لأضرب بمفردي في أعماق عالم غريب وكبير. لأول مرة أشعر بالحاجة إلى الاعتماد على النفس وأعاني شعوراً حاداً بالغربة والحنين. كان السفر إلى القاهرة مغامرة كبرى فيها كل ما في المغامرات من مخاطر ومصاعب. وعندما أقرأ الآن قصائدي الأولى في القاهرة أجدها مليئة بالألم والوحشة ومشاعر الغربة والضياع.

ولعل هذا هو المكان المناسب لأؤكد صحة الملاحظة التي أبداها بعض الذين تناولوا شعري بالدراسة وهي أن المرأة في قصائدي ليست بالضرورة إنسانة حقيقية من لحم ودم وقد تكون رمزاً من الرموز. هذه الحقيقة تسري على دواويني كلها ولكنها تبدو بوضوح أكبر في **أشعار من جزائر اللؤلؤ**. في هذا الديوان كثيراً ما تمثل «الحبيبة» أحد معنيين : أولهما شعور الأمن والاستقرار الذي يمثله بيت الأسرة الذي تركته في البحرين ، والثاني المستقبل بكل ما ينطوي عليه من تحديات ومجاهل. وعندما أقرأ الآن قصيدة «جزيرة اللؤلؤ[١]» و«ليلة الملتقى[٢]» و «لولاك[٣]» و «رحيل[٤]» و «جارتي[٥]» أدرك بوضوح أنه بصرف النظر عن المناسبة التي أوحت بالقصيدة فقد كانت المشاعر في حقيقة الأمر مشاعر الحب الجارف الذي يربطني بمنزل الأسرة في البحرين. وعندما أقرأ قصائد «فتاة الخيال[٦]» و «حيرة[٧]»

---

(١) انظر فيما يلي ص ٢٦٥ .
(٢) أشعار من جزائر اللؤلؤ ص . ١٧.
(٣) أشعار من جزائر اللؤلؤ ص .٣٢ .
(٤) أشعار من جزائر اللؤلؤ ص . ١١٣ .
(٥) أشعار من جزائر اللؤلؤ ص . ١٣٦ .
(٦) أشعار من جزائر اللؤلؤ ص . ٣٩ .
(٧) أشعار من جزائر اللؤلؤ ص . ١٢٦ .

و «يا قلب(١)». الآن أدرك أن مشاعر القلق مما ينطوي عليه المستقبل المجهول من تحديات كانت النبضة الحقيقية وراء كلمات الغزل والحب.

إنني أستطيع الآن بعد مرور أكثر من عشرين سنة على كتابة هذه القصائد أن أتبين هذه الحقيقة ولكنني أشك أنني كنت أستطيع أيامها أن أتبينها بالوضوح نفسه ، أو أتبينها على الاطلاق.

يضم **أشعار من جزائر اللؤلؤ** قصائد كتبتها بين سني السابعة عشرة والعشرين. ولقد أخبرني عدد من أصدقائي أنهم يعتبرون هذا الديوان أحسن ما كتبت على الاطلاق[٢]. هذا الحكم لا أستطيع أن أؤيده أو أناقضه لأن الاعجاب في الشعر مسألة تتعلق بالذوق الشخصي لا بالتشريح والتحليل. إنني أعتبر كل ديوان مرآة صادقة لفترة غالية من عمري ، الأمر الذي يجعل من المستحيل عليّ أن أعتبر أحدها «أفضل» أو «أسوأ» من الآخر. على أنني أستطيع أن أقول إن العقوبة التي تتميز بها قصائد دواوني الأول لا تتجلى بالقوة نفسها في الدواوين التالية بعد أن انتهت فورة المراهقة وتعقدت المشاعر والأحاسيس. إننا لا نتوقع أن يحدثنا رجل الثلاثين كما يحدثنا فتى السابعة عشرة ولعل هذا باختصار هو الفرق بين أشعار من جزائر اللؤلؤ ومعركة بلا راية.

لقد أشار بعض الذين تناولوا **أشعار من جزائر اللؤلؤ** إلى ما يملأ الديوان من روح الحرمان والكآبة واليأس واستغربوا ذلك في ضوء ما يعرفونه عني شخصياً من روح التفاؤل والمرح. كان السؤال يطرح على النحو التالي : هل لك شخصيتان متميزتان احداهما مرحة متفائلة ، وهي التي نراها بيننا ، والثانية متشائمة كئيبة ، وهي التي نقرأها في شعرك ؟ وكان السؤال أحياناً يطرح على النحو التالي : هل أنت إنسان مرح متفائل وبالتالي نستطيع أن تعتبر شعرك الحزين نوعاً من الخداع ؟ أم أنك إنسان حزين متشائم وبالتالي نستطيع أن نعتبر مسلكك بيننا نوعاً من الخداع ؟.

إن العملية الشعرية عملية نفسية معقدة لا أعرف شيئاً من مجاهيلها وأسرارها وأبعادها ، ولا أعتقد أن غيري يعرف. أنا لا أعرف لماذا أكتب الشعر أو كيف أكتب الشعر. ولا أقرر قبل كتابة قصيدة ما أنها ستكون حزينة أو غير حزينة. من هنا فإنني لا أستطيع أن أجيب اجابة وافية شافية على الأسئلة التي طرحتها قبل قليل ولكنني أستطيع أن أحاول.

---

(١) أشعار من جزائر اللؤلؤ ص ١٤٥

(٢) من الظواهر الطريفة أن كل صديق لي يعتبر القصائد التي حضر ميلادها وعاصر تجربتها أفضل قصائدي !

إن قصائد **أشعار من جزائر اللؤلؤ** تمثل في الواقع تجارب مراهق غر بريء في عالم جديد مصطخب. والمراهقة في حد ذاتها كثيراً ما توحي بمشاعر حزينة ناشئة عن الحرمان الجسدي من ناحية وعن القلق النفسي الذي يواكب التأرجح بين الطفولة والرجولة ، من ناحية أخرى. كما أن مشاعر الغربة والضياع التي يحس بها فتى يافع ألقي به فجأة من مجتمع صغير هادىء يكاد يعرف كل من فيه ويعرفه كل من فيه إلى مجتمع صاخب يضم ملايين البشر ممن لا يعرفهم ولا يعرفونه ، لا بد وأن تكون مشاعر حزينة مليئة بالتشاؤم وأحياناً باليأس.

وأرجو أن يسمح لي القاريء هنا أن أذكر نبذة من سيرتي الشخصية تساعد إلى حد ما في تفسير مشاعر الحزن والضياع التي تتجلى في كثير من شعري ، وفي **أشعار من جزائر اللؤلؤ** بصفة خاصة. لقد ولدت في أحضان بيئة نفسية حزينة. قبل أن أولد بشهور توفي جدي لوالدتي في ظروف كئيبة تركت ظلها القاتم على المنزل. وبعد ولادتي في الأحساء بتسعة شهور توفيت أمي على أثر اصابتها بالتيفوئيد وكانت ، رحمها الله ، في التاسعة والعشرين. على أثر وفاتها تكفلت بتربيتي جدتي لوالدتي وكانت في حالة نفسية بالغة الكآبة بعد فقد زوجها ثم ابنتها الوحيدة وانتقالها من المجتمع الذي ألفته وأحبته في الحجاز إلى مجتمع جديد غير مألوف في الأحساء، ثم في البحرين. كان والدي مشغولاً بأعماله التجارية الواسعة وبشؤون عائلته الكبيرة ولم تكن طبيعة العلاقات العائلية أيامها تتيح للأب أن يلعب دوراً كبيراً في تنشئة أولاده. ومن هنا فإن مهمة تربيتي قد تركت نهائياً في يد جدتي التي قامت بها خير قيام ، رحمها الله وجزاها عني وعن اخوتي خير الجزاء.

أعتقد أن هذا الجو المأساوي الذي أحاط بولادتي وبنشأتي الأولى قد ترك بصمات لا تمحي في أعماقي من الكآبة الخفية. وإذا كنت قد نجحت في إخفائها حتى عن أقرب الناس إليّ فإنها -فيما يبدو- قد نجحت في التسلل إلى أشعاري. ولا بد أن أضيف هنا أن جدتي على أثر التجارب القاسية التي مرت بها كانت تخشى عليّ كل شيء : تخشى عليّ المرض أيام العافية ، وتخشى علي الموت أيام المرض ، تخاف أن أضل طريقي إذا ذهبت ألعب في الشارع ، تتصور أنني أشلاء ممزقة تحت دواليب سيارة إذا تأخرت في المجيء من المدرسة. ولا أشك اليوم أن هذا النوع من التربية رغم أنه أفاض عليّ من الحنان والمحبة ما جعلني أنسى نهائياً أني فقدت أمي ، تركني بقدر من الحساسية المفرطة التي تخاف وتتوجس وتقلق حتى عندما لا يكون ثمة داع للتخوف والتوجس والقلق.

وهناك بعد هذا أمور تتعلق بسيكولوجية الحزن نفسه. الحزن ، بطبيعته عاطفه حادة مشتعلة بخلاف السعادة وهي عاطفة هادئة لا تكاد نحس بها إلا إذا فقدناها. نحن نتحدث عن تعاستنا ، عندما نشعر بالتعاسة ، ولا نتحدث عن فرحنا ، عندما نحس بالفرح. ونحن نتحدث عن مرضنا أكثر من حديثنا عن صحتنا ، عن فقرنا أكثر من غنانا ، عن النكبات أكثر من المناسبات السارة. إن مشاعر الحزن قد لا تكون هي الغالبة علينا ولكنها عندما تمر بنا عنيفة قوية تترك أثراً واضحاً على حياتنا وعلى شعرنا إن كنا من الشعراء.

بعد ذلك ينبغي أن أقول إنني لا أؤمن ولم أؤمن في يوم من الأيام أن الحياة مسرحية فكاهية هزلية لا تحمل للمتفرجين سوى الضحكات والابتسامات. لقد كنت أشعر دائماً أننا بقدر ما يجب أن نواجهه الحياة مسلحين بالتفاؤل والأمل يجب أن ندرك الجوانب المأساوية في الحياة : شقاء الفقراء ، معاناة المرضى ، اصطراع المثل بالواقع ، وعجزنا الدائم عن الانتصار على غرائز الشر في أعمق أعماقنا ، إلى آخر التجارب الحزينة التي يحس بها إنسان لم يتجرد من إنسانيته. لقد كنت ولا أزال أحتقر الذين يعتقدون أن الحياة وليمة شهية أعدت ليستمتعوا بطيباتها دون مبالاة ودون تفكير في الآخرين. إنني أعتقد أن أهم ما يميز الإنسان عن الحيوان والجماد هو المسئولية، ولعلها هي الأمانة التي حملها الإنسان الظلوم الجهول. ومع المسئولية دائماً وأبداً يجيء الحزن. قد لا يكون حزناً مدمراً مريضاً ولكنه حزن على أية حال.

بقيت كلمة أخيرة في الموضوع. إن تعبيري «الحرمان» و «الظمأ» اللذين يتكرران في الديوان وفي الدواوين التي تلته يندر أن يعبرا عن عاطفة حسية مباشرة. الحرمان الذي تتحدث عنه قصائد **أشعار من جزائر اللؤلؤ** لا يقتصر على الحرمان الجسدي ، وإن كان في الديوان بالتأكيد ما يعكس هذا المعنى ، بل يتجاوزه إلى الحرمان من كل ما تصبو إليه الروح وتعجز عن بلوغه. والظمأ لا يعبر عن الحاجة إلى الماء بقدر ما يعبر عن ذلك التحرق الدائم إلى ما لا يمكن وما لا يكون.

كان من حسن حظي أن التقيت في القاهرة بمجموعة من زملاء الدراسة في البحرين في مقدمتهم عبدالرحمن رفيع. استأنفت مع عبدالرحمن نشاطنا الشعري ، العابث منه والجاد. لقد بلغ شعر المساجلات ذروته في القاهرة[1] ولا أعتقد أن أسبوعاً قد مرّ بنا دون قصيدة أو قصيدتين. ولو أتيح لهذا الشعر أن يجمع لتألف منه ديوان ضخم. أما اليوم فلم

(١) كتبت مرة قصيدة هجائية في عبدالرحمن بلغ عدد أبياتها سبعين بيتاً

يبق منه سوى شذر ونتف بسيطة تعيها ذاكرة عبدالرحمن أو ذاكرتي أو تحتفظ بها قصاصة في حوزة أحد الأصدقاء ممن عاصروا تلك الأيام. وأجد الفرصة سانحة هنا لأقول إنني تعودت -ولا أزال- على عدم الاحتفاظ بشيء مما أكتبه من شعر الأخوانيات والمداعبات على أساس أنه من قبيل العبث الذي لا ينبثق من تجربة حقيقية ولا يستحق الحياة. وإذا كان هذا الحكم على أشعار المداعبات صحيحاً من الناحية الأدبية المحض فلا شك أن الاحتفاظ بها قد يكون مفيداً لما تسجله من مواقف وأحداث طريفة يحلو للمرء أن يعود إليها مستقبلاً. إنني أفاجأ دائماً عندما أشاهد ما يثيره شعر المداعبات من حماس لدى هواة الشعر ومن رغبة في تداوله. لقد طلب مني بعض الأصدقاء ، وأذكر منهم الصديق الدكتور محمد عبده يماني ، أن أحتفظ بما أكتبه من شعر المداعبات. ولقد حاولت أكثر من مرة غير أن الطبع يغلب التطبع إذ أحتفظ بقصاصة ما يوماً أو بعض يوم ثم ألقي بها في سلة المهملات.

بالإضافة إلى كتابة هذا الشعر العابث كنا ، عبدالرحمن وأنا ، نصقل مواهبنا يوماً بعد يوم في المجتمع الثقافي الجديد. لم يكن يمر أسبوع واحد دون قصيدة جديدة مني أو من عبدالرحمن ، أو ديوان جديد يعثر عليه أحدنا فيدل عليه الآخر ، أو بحث مستفيض لا ينتهي في الشعر. كانت لنا على أحضان النيل الساحر أمسيات شعرية جميلة ، وكم من قصيدة «مشتركة» كتبتها مع عبدالرحمن في مقهى على النيل ، أو في «بوفيه» كلية الحقوق أو في «بوفيه» كلية الآداب ذي الشهرة الواسعة التي يعرفها كل من درس في جامعة القاهرة، أو في الطائرة بين البحرين والقاهرة.

كانت سنوات الدراسة في القاهرة أخصب فترات حياتي الشعرية على الإطلاق، من ناحية الكم على أية حال. لم يكن بالأمر المستغرب أن أكتب قصيدة جديدة كل أسبوع وأحياناً كل يوم. إن القصائد التي تضمنها ديوان **أشعار من جزائر اللؤلؤ** لا تمثل سوى خمس الحصيلة الشعرية التي تجمعت في تلك الفترة ، أو أقل. ولقد استبعدت الباقي إما لأنني رأيت أنه غير صالح للنشر أو لأن الظروف لم تكن مناسبة لنشره. ولقد تلت فترة الخصب هذه فترة من المحل كما سنرى في الفصل القادم.

لم تكن فكرة طبع ديوان واردة في ذهني حتى أثارها ذات يوم أخي عادل. لقد تهيبت الفكرة في البداية ، فكتابة الشعر ونشره في الصحف شيء أما جمعه وطبعه في ديوان فشيء آخر يتطلب قدراً من الثقة بالنفس والشجاعة. غير أنني بعد أن أمعنت التفكير وجدت أن

ما أكتبه ليس أسوأ بكثير من الشعر الذي أقرأه في عدد من الدواوين المطبوعة. بدأت الفكرة تختمر تدريجياً حتى شعرت أنني مستعد لهذه الخطوة الحاسمة الجديدة.

غير أنني قبل أن أقدم على الطبع شعرت أنني بحاجة إلى رأي محايد من ناقد قدير أحترم رأيه وأقدر أحكامه. ولقد خدمتني الظروف في الحصول على هذا الرأي. كان محمد سعيد التاجر ، صديقي منذ أيام الطفولة ، يسكن في الشقة المقابلة لشقة الدكتور عبدالقادر القط الأستاذ الجامعي والناقد المعروف. عن طريق محمد سعيد تعرفت على الدكتور القط وسلمته نسخة مخطوطة من الديوان وقلت له -صادقاً- أنني أترك مصير الديوان في يده ، فإن أشارة بطبعه مضيت في طريقي وإلا صرفت النظر عن طبعه كلية. طلب مني الدكتور القط أن أعود إليه بعد شهر حتى يتمكن من دراسة الديوان دراسة متأنية وافية. وفي الموعد المحدد رجعت إليه وكنت في حالة يرثى لها من العصبية اشفاقاً على مصير الديوان. غير أنه تلقاني بترحاب بالغ وقال لي إنه يعتقد أن الديوان جدير بالنشر وذهب أبعد من ذلك فقال إنه يعده أفضل من كثير من الدواوين التي تقذف بها المطابع إلى الأسواق. لقد كتب الدكتور القط كلمة طيبة عن الديوان بعد نشره وكتب بحثاً وافياً عني في دراسته القيمة عن الشعر الوجداني العربي[1] ، ومع أنني سررت بهاتين الدراستين ، إلا سروري كان أعظم برأيه الشفوي الذي شجعني على المضي في طبع الديوان.

بعد ذلك نشأت مشكلة غير متوقعة فيما يتعلق باسم الديوان. كنت أود أن أسميه«ليالي الصبا» لأنني كنت أشعر أن هذا الاسم يجسد ما يحتويه الديوان من أشعار قيلت جميعها في فورة الصبا الأولى. كتبت لعادل أخبره ولسبب لا أدريه بحث عادل الأمر مع الوالد وكتب لي بأن الوالد يرفض رفضاً باتاً أن يحمل الديوان هذه التسمية بسبب ما تحمله كلمة «ليالي» من مدلولات وأبعاد. لم أود أن أجرح شعور الوالد ، خصوصاً بعد المشاكل التي نشأت في علاقتي معه والتي كان مبعثها أشعاري الوطنية ، فبدأت البحث عن اسم آخر. فكرت جدياً في أن اسمي الديوان أغاني الصبا غير أن الشاعرة المصرية ملك عبدالعزيز سبقتنى الى هذه التسمية عندما أصدرت في تلك الفترة ديواناً يحمل هذا العنوان. بعد ذلك فكرت أن أسمي الديوان «شباب» ولكنني صرفت النظر عن هذه التسمية بعد صدور ديوان للدكتور عبدالقادر قط يحمل عنواناً مشابهاً هو ذكريات شباب. بقي العنوان مشكلة دون حل بضعة أسابيع حتى اقترح الشاعر الصديق ناصر أبو حميد عنوان أشعار من جزائر اللؤلؤ. نال هذا الاسم استحساني ، واستحسان الكثير من القراء فيما بعد ، فللصديق مني -مجدداً-

(١) الدكتور عبدالقادر القط الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٨م ص . ص ٥٠٤ - ٥١٥ .

أعمق الشكر.

طبعت الديوان في بيروت في صيف سنة ١٩٦٠م (١٣٨٠هـ). ومع أنني أهديت نسخاً عديدة منه للأدباء والنقاد والأصدقاء، إلا أنني لم أرغب في طرحه للتداول على نطاق واسع واكتفيت باعطاء مكتبة واحدة في البحرين عدداً محدوداً من النسخ نفدت جميعها. لقد استقبل الديوان بحرارة وكتبت عنه عدة مقالات نقدية كانت -في مجملها- مليئة بالثناء. وغني عن الذكر أنني كنت سعيداً بهذا الثناء. غير أن الذي كان يهمني في الأمر أن شاباً لم يكد يبلغ العشرين قد وجد الجرأة الكافية للتحدث بصوته الشعري المتميز في مجتمع أدبي كان يسيطر عليه وقتها شيوخ الأدب. إن القيمة الحقيقية هذا الديوان، إن كانت له قيمه، لا تكمن في روعة القصائد ولا عمقها، ولكنها تكمن في أن الديوان يعالج بصراحة وحرية، ما يشغل بال المراهق وحياته من اهتمامات. قد يرى البعض في الديوان ذاتية مفرطة، وقد يجد البعض فيه عاطفية ساذجة، وقد ينتقد البعض كلمات أو تعابير لا يرضونها، ولكن الحقيقة هي أن هذا الديوان يمثل صوت فتى صادق مع نفسه ومع أحزانه ومع الآخرين. ولا أعتقد أنني أعدو الحقيقة إذ قلت إن الأدب العربي لم يعرف سوى عدد محدود من الدواوين كتبت جميعها في فترة المراهقة.

لاحظ عدد من النقاد أن أشعار من جزائر اللؤلؤ لا يحتوي على أي قصائد وطنية. وهذه ملاحظة صحيحة. لقد ذكرت في الفصل الأول طرفاً من المشاكل التي عانيت منها في البحرين نتيجة أشعاري الوطنية. ومع ذلك فقد مضيت في كتابة الشعر الوطني في القاهرة. ولا أعتقد أنني بحاجة إلى القول، إنني شأن معظم الفتيان العرب في تلك السن، كنت متحمساً لموجة القومية العربية التي اتخذت شكل الناصرية. كان أبي عاجزاً عن فهم هذه الحركة الجديدة وكان رأيه في الرئيس عبدالناصر لا يمت بأي صلة إلى الاحترام أو الاعجاب[1]. من هنا نشأت المشكلة: الابن المتحمس لظاهرة سياسية جديدة ولزعيم سياسي جديد، والأب الحائر مع ابنه. لقد وجدت في ضوء علاقة الاحترام الوطيدة التي أكنها لأبي أن أتجنب إغضابه، فتحاشيت نشر ما كتبت من قصائد وطنية ولهذا جاء الديوان الأول خلواً منها.

على أنني بعد أن أقرر ذلك ينبغي أن أسارع وأضيف أنني بصرف النظر عن مشاكل مع الوالد، بدأت أعزف تدريجياً عن كتابة الشعر الوطني حتى امتنعت عنه بصفة نهائية بعد نشر الديوان. إن هذه الظاهرة تحيرني لأنني لم أفقد اهتمامي بالشؤون السياسية ولا

(١) كثيراً ما كانت آراء أبي السياسية تختلف عن الموجة السائدة. وعلى سبيل المثال كان يؤمن منذ بداية الحرب العالمية الثانية أن الحرب ستنتهي بانهزام ألمانيا وانتصار الحلفاء، ولم يكن في أي يوم من الأيام من المعجبين بهتلر.

بمصير الوطن العربي الكبير. ومن الطريف أن والدي الذي كان يشكو من شعري الوطني ويطلب مني أن أكف عن «الخوض في هذا البحر» غيرّ رأيه بمضي الزمن وأخذ يعاتبني على الخوض الدائم في «بحر الغزل» ويطلب مني العودة إلى «البحر القديم».

في صيف سنة ١٩٦١م - (١٣٨١هـ) ، أي بعد طبع أشعار من جزائر اللؤلؤ بحوالي سنة، أنهيت دراستي في كلية الحقوق ، وبعد فترة تردد قصير بين فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، أستقر رأيي على الأخيرة وفي أواخر سنة ١٩٦١م-(١٣٨١هـ) سافرت إلى كاليفورنيا حيث بدأت مرحلة جديدة مثيرة في حياتي ، وفي شعري على حد سواء.

الفصل الرابع

قطرات من ظما

خلف عينيك أرى ضعفي .. وخوفي .. وبكائي

وأسى أغنية لم تندلع بالكبرياء

ولظى الكلمة ضاقت بنفاق الشعراء

وأنا .. تهمس عيناك .. كباقي الجبناء

أصطلي بالصمت .. أجترّ ذهول الحكماء

أبصر الحق وأغضي عنه مسلوب الحياء

وأغني بغباء لقصور في الهواء(١)

(١) «أضواء المنارة» قطرات من ظما - دار الكتب - بيروت - ١٩٦٥م ص . ص . ٣٢-٣٣ .

في خريف سنة ١٩٦١م - (١٣٨١هـ) سافرت إلى الولايات المتحدة في ظروف قاسية كئيبة. قبل سفري بأيام تلقت العائلة نبأ مفاجئاً مفاده أن أخي نبيل ، الذي كان يدرس في جامعة جنوب كاليفورنيا بلوس أنجلس ، أصيب بغتة بانهيار عصبي أدى الى نقله الى المستشفى. كان عادل في لندن وتوجه فوراً الى لوس أنجلس وتبعناه ، الصديق الصدوق خالد محمد القصيبي وأنا ، بعدها بأسبوعين. لقد كان مرض نبيل العصبي ، «الفصام» فاجعة روعت العائلة. ولا أعتقد أن أحداً يمكن أن يدرك كافة أبعاد هذه المأساة باستثناء أولئك الذين شاءت الظروف أن يواجهوا هذا الداء العضال في عائلاتهم. ليس من السهل أن ترى بعينيك إنساناً سوياً تحبه ويحبك ينقلب فجأة إلى إنسان مختل الشعور لا يذكر حتى اسمه ويقضي على هذه الحالة أياماً أو أسابيع يعود بعدها إلى حالته الطبيعية المعهودة ناسياً كل ما مر به ، ويبقى شهوراً عديدة ينتكس بعدها وهكذا دواليك. منذ ذلك الخريف الحزين إلى أن توفي نبيل بعدها بثمان سنين وحياته سلسلة من المرض والابلال وحياة من حوله شحنات من القلق والأمل والتوتر.

كانت هذه إذن هي الظروف التي سافرت تحت ظلها الأسود إلى الولايات المتحدة والتي حتمت عليّ البقاء في جامعة جنوب كاليفورنيا. كنت أساساً أفكر في الالتحاق بإحدى الجامعات الشهيرة في شرق الولايات المتحدة لدراسة القانون، وقد قبلت في عدد منها ، ولم يكن يخطر ببالي ، على الاطلاق ، أنني سأدرس في جامعة جنوب كاليفورنيا. كما أنني بعد التحاقي بهذه الجامعة وجدت أن كلية الحقوق فيها لا تحتوي على برنامج للماجستير في القانون الدولي وقد حدا بي هذا الوضع إلى تغيير منهج دراستي من القانون إلى العلاقات الدولية. إنني لا أدري بطبيعة الحال ، السبيل الذي كانت حياتي ستسلكه لو أنني لم أذهب إلى لوس أنجلس ، ولكنني أشك في أن حياتي الدراسية ، والعملية فيما بعد ، كانت ستسير على نحو أفضل ، فالحمد لله (فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً).

وإذا كان انتقالي من البحرين إلى القاهرة قد شكل صدمة حضارية فانتقالي الآن من القاهرة إلى الولايات المتحدة شكل صدمة حضارية أخرى أشد وأعنف وأبعد أثراً. ليس من السهل على من تعود الحياة في مجتمع شرقي ، سواء في مجتمع شرقي صغير كالبحرين أو مجتمع شرقي كبير كالقاهرة ، أن يواجه الحياة في العالم الجديد بدون شعور حاد خانق بالقلق والتمزق. لقد كان جميع الطلاب السعوديين الذين يصلون إلى أمريكا ، بدون استثناء تقريباً ، يعانون الكآبة النفسية والضياع خلال الشهور الأولى من وصولهم إلى درجة أن بعضهم يفكر جدياً في العودة من حيث أتى ، وعدداً قليلاً منهم يعود بالفعل. إن الحياة في أمريكا ، بسرعتها وتوترها وحدتها ، لا بد أن تترك بعض الجروح في نفسية الشرقي الذي

يتلقي بها لأول مرة. لا أود أن يفهم أحد أن تجربة الحياة في أمريكا تخلو من الإيجابيات ، إذ يكفي أن يتذكر المرء ما يشاهده هناك من انضباط وحب للعمل واعتماد على النفس وتقسيم متقن للوقت ، ولكنني أريد أن أقول إن المجتمع هناك مجتمع مختلف جميل مخيف معاً. لقد أصبت بعد شهور من وصولي إلى الولايات المتحدة بالقرحة ، ذلك المرض المزعج الذي لازمني سنين طويلة ، وكاد ذات مرة ، لولا لطف الله ، أن يودي بحياتي. ولا أشك أن الظروف التي وصفتها في السطور السابقة كان لها أثر كبير في إصابتي بالمرض.

وإذا كان الانتقال إلى القاهرة قد تطلب مني أن أعتمد على النفس ، فإن الحياة في المجتمع الأمريكي تطلبت قدراً أكبر وأبعد مدى. لأول مرة في أمريكا بدأت أتولى بنفسي مسؤولية أشياء كنت أعتمد فيها مطلقاً على الآخرين : طبخ الطعام وشراء حاجات المنزل وكي الملابس وخياطة الأزارير وتنظيف الاواني إلى آخر هذه التفاصيل اليومية التي يعرفها كل من جرب الحياة في مجتمع غربي ، وفي الولايات المتحدة بوجه خاص. بالإضافة إلى هذا كله ، كانت هناك مشاكل التأقلم مع البيئة الجديدة ، ومشاكل الدراسة الصعبة ، ومشاكل اتقان اللغة الانجليزية.

وإذا كان **أشعار من جزائر اللؤلؤ** يصور تجربة مراهق غرّ من الخليج في مجتمع القاهرة الكبير فإن **قطرات من ظمأ** يعكس تجربة شاب عربي شرقي يلتقي لأول مرة بمجتمع الولايات المتحدة الغريب. لم تعد المشاعر مقتصرة على الغربة والضياع ، كما كانت ، بل ازدادت عمقاً وتعقيداً. هناك انبهار من المجتمع الجديد الذي نجح في بناء أعظم حضارة مادية شهدها العالم ومع ذلك فقد بقيت جوانب عديدة منه قائمة خالية من الدفء الإنساني. هناك مشكلة التكيف مع المجتمع الجديد دون التخلي عن الجذور التي يحملها المرء في أعماقه. هناك الحيرة إزاء العلاقة بين الذكور والإناث وبين أفراد العائلة الواحدة. وهناك الدهشة من السهولة التي يبدأ بها الحب والسرعة التي بها يموت. هناك الحنين إلى المجتمع القديم ولكن الحنين هنا ولأول مرة تشوبه رغبة جامحة في تطوير المجتمع القديم وانقاذه من برائن التخلف. روح الحرمان الصارخ التي كانت تسيطر على **أشعار من جزائر اللؤلؤ** بدأت تختفي تدريجياً لتحل محلها روح التساؤل والتأمل والتفكير في طبيعة الحياة وفي طبيعة الحب.

بعد وصولي إلى الولايات المتحدة بأسابيع بدأت في كتابة «أغنية قبل الرحيل[1]، ولعل هذه القصيدة تلخص أفضل تلخيص المشاعر التي يتضمنها **قطرات من ظمأ**. لقد

(١) انظر ما يلي صفحة ٢٧٠ .

استغرقت كتابة هذه القصيدة ثلاثة أسابيع ، وهي فترة غير عادية في طولها ، لأنني كنت -ولا أزال- أكتب معظم قصائدي في جلسة واحدة تتراوح في الطول بين ساعة وأربع ساعات[1]. جاءت هذه القصيدة تعبيراً عن المشاعر العنيفة التي كانت تصطرع في نفسي مشاعر الرهبة أمام المجتمع الجديد وأمام المستقبل ، مشاعر الخيبة من انهيار علاقة كانت غالية لصيقة بالقلب ، مشاعر الدهشة من غياب المجتمع القديم ، مشاعر الاصرار على مواجهة التحدي والانتصار عليه. إن هذه القصيدة من أقرب قصائدي إلى نفسي ، ولعلها أقرب قصائدي إلى نفسي على الاطلاق.

إن قصيدة «أغنية قبل الرحيل» في ظاهرها قصيدة حب ولكنها في الواقع تصف خليطاً من المشاعر المعقدة التي تتجاوز أي علاقة بين رجل وأمرأة. ولعل هذا هو المكان المناسب لأقول إنني أعتقد أن يجب أن نفرق بين «التجربة» و «المناسبة». إن «المناسبة» ليست سوى الزر الذي تضغط عليه للحصول على النور. أما «التجربة» فهي الطاقة الكهربائية التي لا بد من توفرها والا لم يكن للزر أي معنى. لقد أدى الخلط بين «التجربة» و «المناسبة» إلى إساءة كبيرة إلى الشعر. كم من قصائد جميلة لم تلق حظها من العناية لأنها اعتبرت من شعر المناسبات. كم من قصيدة رفضت لأن المناسبة مرفوضة. حقيقة الأمر أن «المناسبة» لا تكاد تعني شيئاً في ميزان الشعر. المضمون وحده هو الذي يهم أي التجربة.

كانت تلك القصيدة بمثابة انفجار نفسي هائل وجدت نفسي بعده عاجزاً عن كتابة الشعر مدة تجاوزت السنة ، وهي أطول فترة من الجدب مرت بي ، حتى الآن. إنني عاجز عن تفسير هذا المحل عجزي عن تفسير كافة الرموز والألغاز التي تكتنف العملية الشعرية. الشعر يزور ولا يزار ، يصيد ولا يصاد ، يهجرُ ولا يُهجر إنني أعجب من الذين يدعون أنهم امتنعوا عن كتابة الشعر لأن مشاغلهم الكثيرة لا تسمح لهم بذلك. كما أنني أستغرب عندما يسألني أحد كيف أستطيع كتابة الشعر رغم انشغالي. إن مثل هذا التساؤل يدل على جهل مطبق بطبيعة الشعر الذي لا يعترف ، عندما يقرر أن يزور ، بمشاغل أو مسؤوليات والذي يرفض أن يتفرغ لنا عندما نتفرغ له. لقد وجدت من تجاربي الشخصية ومن تجارب الشعراء الذين عرفتهم وقرأت لهم ، أنه لا حول ولا قوة لنا أمام سلطان الشعر ، وليس للمشاغل دخل قليل أو كثير في الأمر.

يضم ديوان **قطرات من ظما** ثلاثاً وعشرين قصيدة ، كتبت سبع قصائد منها في فترة

(١) إنني ، لسبب لا أدريه ، أكتب معظم قصائدي في الفترة بين الظهر والعصر ، أو في الفترة بين المساء ومنتصف الليل ، ونادرة هي القصائد التي كتبتها في غير هاتين الفترتين

سابقة، وكتبت الباقي بين ستي الواحدة والعشرين والخامسة والعشرين. كانت هذه الفترة أقل فترات حياتي الشعرية خصباً من حيث العدد. إنني أدرك تمام الادراك أن الكم لا يعني شيئاً فبيت جميل واحد خير من قصيدة سخيفة طويلة وقصيدة رائعة واحدة خير من عشرات الدواوين التافهة. غير أنني أذكر هذه الحقيقة كظاهرة شعرية محيرة لا أعتقد أن شاعراً أفلت منها. ليس أمام الشاعر ما يفعله في فترات الجدب سوى الانتظار وأي محاولة منه لاغتصاب الشعر لن تنتج سوى نظم سقيم غير جدير بالحياة. ولعل هذا أحد الفروق الرئيسية بين الناظم والشاعر. يستطيع الناظم أن يكتب في أي وقت وعن أي موضوع، بل إن من الناظمين من يترك للآخرين اختيار البحر والقافية، أما الشاعر فأداة طيّعه في يد الشاعر لا تكاد تملك من أمرها شيئاً.

لم يعد البحث عن الحب هو العاطفة السائدة في **قطرات من ظما** كما كانت في **أشعار من جزائر اللؤلؤ**. بدأ الاقتناع يتسرب أن الحب قد لا يحل مشاكل الحياة. وبدأ الاقتناع يتسرب أن المرء قد ينتقل من حب إلى حب ويبقى الحرمان في أعماقة. وبدأ الإحساس بأن الحب الحقيقي لا يمكن أن يكون نزوة عابثة أو صبوة عابرة.

لقد كانت الفترة التي كتبت فيها **قطرات من ظما** فترة مواجهة قاسية حازمة مع الذات. لأول مرة أواجه مع نفسي حقيقة مرة وهي أن الحب يقودنا إلى الشقاء عندما يحل مكروه بمن نحب. لأول مرة يصبح الاعتماد على الذات بكل معانيه أمراً واقعاً ملموساً. لأول مرة بدأت أفكر تفكيراً جدياً في المستقبل. لأول مرة أدركت أن المرء لا يمكن أن ينجح إلا إذا واجه نفسه والحياة والآخرين بشجاعة. لا بد من «قبول الذات» ثم الكفاح المرير نحو «تجاوز الذات». بدأت، باختصار، في هذه المرحلة رحلة الألف ميل نحو النضج الحقيقي.

هذه المواجهة مع الذات انعكست، لا شعورياً، في **قطرات من ظما**. وعندما أقرأ الديوان اليوم أستطيع أن أتبينها في عدد من القصائد وإن كانت كالعادة مغلفة بحجاب الحب. الشعور بأن الحب مسؤولية، بأن على الإنسان أن يحدد ما يريد لكي يستطيع أن يحقق ما يريد. مراهق **أشعار من جزائر اللؤلؤ** الذي كان يضج من الحرمان بدأ يدرك أن الحرمان قد يولد نتيجة علاقاتنا مع الآخرين ولكنه لا ينمو ويترعرع إلا إذا انعدمت الثقة بالنفس.

على أن هذه المواجهة مع النفس لا تتخذ شكلاً واضحاً مباشراً إلا في قصيدة واحدة، سبقت الإشارة إليها في بداية الفصل ن وهي «أضواء المنار». في هذه القصيدة لا توجد حبيبة ، حقيقية أو خيالية. «فتنتي» الموجه إليها الحديث ليست سوى نفسي كما أرجو أن تكون بعد أن تتحرر من شوائب القلق والخوف والحيرة والتردد ، بعد أن تصل إلى مرحلة النضج -لقد كتبت هذه القصيدة وأنا في قبضة صراع رهيب مع رواسب الطفولة في نفسي مع نوازع النكوص والجبن والإنهزامية ، وفي ظروف مريرة صعبة. غير أنني كنت واثقاً من الانتصار :

وبعينيك أرى قصة حربي وانتصاري

وانهزام الغسق الأسود في زحف النهار

وانعتاقي من دجى ضعفي وأوهامي وعاري

بجبين لم يعد فيه مكان للغبار

بعيون تتلقى الشمس من غير ستار

وبعينيك أرى أن حياتي بانتظاري

زورقا ينهل من عينيك أضواء المنار

كيف ينعكس المجتمع الأمريكي في **قطرات من ظما** ؟ إنه ينعكس أحياناً بصورة واضحة مباشرة ، كما هو الحال في قصيدة «لوس أنجلس(١)». التي تصور موقفي من هذه المدينة الأسرة الفاتنة المرعبة التي قضيت في أحضانها قرابة ثلاث سنوات حافلة من حياتي. كما أنه ينعكس في الخلفية العامة لعدد من القصائد التي ما كان يمكن أن تكتب في مجتمع شرقي. وهو بعد ذلك ينعكس في القصائد التي كتبتها بعد العودة والتي تتحدث عن المجتمع الشرقي ، وتعقد مقارنة شعورية أو لا شعورية بينه وبين الحياة في المجتمع الغربي.

في خريف سنة ١٩٦٤م - (١٣٨٤هـ) حصلت على الماجستير وبعد تردد قصير حول البقاء لإكمال الدكتوراه أو العودة إلى الوطن ، قررت العودة لأعمل فترة قبل أن أواصل الدراسة من جديد. لقد كنت منذ نهاية الدراسة الثانوية أفكر تفكيراً جدياً في الحصول على الدكتوراه ، ولا أعتقد أن هذا الهدف قد غاب عن عيني لحظة من اللحظات. غير أنه لم يكن أمامي خط مهني واضح. أما في لوس أنجلس فقد اختمرت في ذهني فكرة التدريس

---

(١) **قطرات من ظما** . ص . ص ١١١-١١٦ .

في الجامعة على نحو ثابت لم يترك مجالاً للتفكير في أي مهنة أخرى. لقد كان من نتاج المواجهة مع النفس وصولي إلى اقتناع حاسم بأنني يجب أن أختار المجال الذي يتناسب مع مواهبي وميولي ورغباتي صارفاً النظر عما يعتقده الآخرون. وهكذا فإنني في الفترة التي كان فيها حاملو الماجستير يحلمون بأعلى الوظائف الإدارية كنت أتطلع إلى أن أكون «مجرد» مدرس مساعد في الجامعة. إنني أعجب من الذين لا يعتبرون التدريس في الجامعة ، هذه المهنة الشريفة الممتعة ، سوى مرحلة انطلاق نحو مستقبل أفضل. كما أشعر بالرثاء لكل إنسان يعتقد أن التدريس في الجامعة وظيفة من الدرجة الثانية. لقد شاءت الظروف لي أن أبتعد عن التدريس في الجامعة ولكنني أقول صادقاً ، إنني منذ بدأت التفكير الجدي في مستقبلي لم «أطمع» في أي وظيفة تتجاوز حدود الحرم الجامعي ، كبيرة أو صغيرة.

في أوائل سنة ١٩٦٥م - (١٣٨٥هـ) بدأت العمل في قسم العلوم السياسية بكلية التجارة في جامعة الرياض (الملك سعود) لقد كانت تجربتي الأكاديمية تجربة حافلة منوعة تستحق كما قلت في المقدمة ، أن يكتب عنها كتاب منفصل. ومع بداية التجربة العملية بدأ التأقلم مع مجتمع الوطن. قد تبدو هذه العبارة متناقضة ولكنني في حقيقة الأمر كنت بحاجة إلى التأقلم بعد فترة طويلة من الغربة في القاهرة وفي لوس أنجلس. بل إن المجتمع الذي ترعرعت في ظله في البحرين كان يختلف بعض الشيء عن مجتمع المملكة. لقد بدأ المجتمع الشرقي أمامي هادئاً مليئاً بالطمأنينة والسكينة بعد التجربة العنيفة مع المجتمع الأمريكي. وهذا هو محور قصيدة «في شرقنا» :

في شرقنا ننام في سلامْ
ونمضغ الأحلام حين يعوز الطعامْ
ونـنـثـني للبدر حين نشتهي الكلامْ
وعندما نضيق بالحياةْ
نقول بابتسامْ
عليكم السلامْ !(١)

وفي مجتمع الوطن بدا الشعور الملح بأن البلاد تحتاج إلى مجهود قاس متواصل من كل مواطن لتصل إلى التقدم المنشود ، تحتاج إلى مجهود يقترن بالشجاعة والنزاهة والإيمان

---

(١) انظر ما يلي ص ٢٧٣ .

غداً أعود من الصحراء يحضنني   نصري .. أزف إلى عينيك أنبائي

أقول عدت وما مسّ الغبار فمي   ولم يضلل لظى الحرمان أهوائي

ولا خفضت جبيني أشتكي ظمأ   إلى السراب الذي ما مل إغوائي(١)

إن قطرات من ظما ، شأنه شأن أشعار من جزائر اللؤلؤ لا يحتوي على قصائد وطنية. لقد أشار عدد من الذين تعرضوا للديوان إلى هذا «النقص». ولا أشك أن البعض اعتبر هذا النقص دليلاً على انعدام وطنية الشاعر أو ضآلتها. إن احدى القصائد في قطرات من ظما تحاول أن تبرر هذه الظاهرة :

سألتني فيم صمتي   عن أمتي حين أشدو

ألم يحرك غنائي   من موطن المجد مجدُ

غريبة القلب .. إني   في ذلك الركب أعدو

في تربة العرب مهدٌ   يضم عمري ولحدُ

لكن دربي طويل   أروح فيه وأغدو

إذا تبسم فجر   لاحت غمائم ربدُ

في الأفق ألف سراب   يدعو فيركض حشدُ

وللردى ألف عين   فيها تحجر حقدُ

فأين أين طريقي   والأفق جمرٌ ورعدُ

وفي عيوني رمل   وفي جفوني سهدُ

والبيد من غير حد   وللمسافر حدُّ(٢)

إن ديوان قطرات من ظما لا يضم قصائد وطنية لسبب بسيط وهو أنني منذ طبع أشعار من جزائر اللؤلؤ وحتى الديوان الثاني لم أكتب شعراً وطنياً باستثناء قصيدة يتيمة كتبتها في أحد مؤتمرات الطلبة العرب في سان فرانسسكو وكان مطلعها :

هيهات تنسيني البلاد بلادي   هيهات لا حبّ كحبّ سعاد

وكان من المفروض أن ألقي القصيدة في المؤتمر على أنني فور الانتهاء من كتابتها وجدتها ركيكة لا تستحق الحياة فمزقتها. إن الجواب الصحيح الوحيد لظاهرة عزوفي عن كتابة الشعر الوطني هو أنني لا أعرف لها تفسيراً.

(١) «من الصحراء» قطرات من ظما . ص.ص. ٧١-٧٢ .

(٢) قطرات من ظما . ص.ص. ٩٢-٩٤ .

طبعت **قطرات من ظما** في صيف ١٩٦٥م - (١٣٨٥هـ) في بيروت. لم تكن هناك مشكلة بالنسبة للاسم هذه المرة ذلك أنني بمجرد أن كتبت قصيدة «قطرات من ظما» قبل طبع الديوان بأكثر من سنة قررت أن يحمل الديوان اسمها. وقد أصبح اطلاق اسم قصيدة من الديوان على الديوان بأكمله تقليداً تكرر مع الدواوين التالية باستثناء **أبيات غزل**. لقد كان ذلك الصيف حزيناً قاتماً لأن نبيل انتكس نكسة حادة، بعد قرابة سنتين من الحياة الطبيعية، اضطرته إلى أن يقضي فترة طويلة في المستشفى. كما كنت ذلك الصيف مشغولاً بالتحضير للمناهج الدراسية الثلاثة التي كلفت بها في الفصل الدراسي القادم. طبعت من الديوان ألفي نسخة وهي ضعف الكمية التي طبعت من **أشعار من جزائر اللؤلؤ** وتولت احدى دور النشر البيروتية توزيع الديوان في عدد من البلاد العربية، وإن كان العدد الأكبر من النسخ قد بيع في البحرين وفي منطقة الخليج.

إثر عودتي إلى الرياض فوجئت بأنه تم اختياري، دون علمي، للسفر الى اليمن لأعمل مستشاراً للجانب السعودي في لجنة السلام وكان يراسه الأستاذ عبدالله السديري. لم يكن أمامي سوى يوم واحد لترتيب أموري وجمع حقائبي قبل السفر إلى صنعاء. لقد قضيت في اليمن قرابة تسعة شهور وكانت المهمة هناك مثيرة مليئة بالتحديات وبقدر من الخطر الشخصي. خلال هذه الفترة انتقلت فجأة من عالم الدراسة والتدريس إلى عالم السياسةالفعلي بأهوائه وتياراته. وهناك رأيت، على نحو مؤلم فاجع، الفارق بين الشعارات البراقة والواقع الحزين. على أنني بدخول هذه المرحلة أكون قد تجاوزت الفترة الزمنية التي يغطيها ديوان **قطرات من ظما** ودخلت في مرحلة جديدة تنعكس في ديوان **معركة بلا راية**.

الفصل الخامس

معركة بلا راية

وماذا عن اليوم ؟ عن أمةٍ ... تحرّر أوطانها بالسبابْ

صواريخها في فضاء العروض ... وأسطولها مبحر في الحبابْ

وتقتل .. تغتال أولادها ... وتلقى العدو بحلو العتابْ

وفي كل شبرٍ مذيعٌ فصيحٌ ... لديه إذا صاح فصل الخطابْ

يقول سلامٌ على التابعين ... وويل لمن لم يسر في الركابْ(١)

---

(١) «اسطورتان» معركة بلا راية - دار الكتب - بيروت ١٩٧١م . ص.ص ٢٨-٣٠ .

إذا كان **أشعار من جزائر اللؤلؤ** يعبّر عن تجربة فتى غر في مجتمع كبير جديد **وقطرات من ظما** يعبر عن تجربة الفتى الشرقي وهو يقف وجهاً لوجه أمام الحضارة الغربية بكل سيئاتها وحسناتها ، فإن **معركة بلا راية** يصعب بل يستحيل ، شرحه على هذا النحو المبسّط. لقد كتبتُ قصائد هذا الديوان بين سني الخامسة والعشرين والثلاثين ، وقد شهدت هذه الفترة من حياتي العديد من التجارب الحافلة في أكثر من ميدان. في هذه الفترة بدأت حياتي العملية ، وسافرت إلى لندن لاستكمال دراستي العليا والحصول على الدكتوراه ، تزوجت، وُلدت ابنتي يارا ، فقدت ثلاثة من أقرب الأشخاص إلى قلبي. أما على المستوى القومي فقد شهدت تلك الفترة إرهاصات الإنهيار الشامل الذي انتهى بمأساة العرب القاتلة في حزيران الأسود ، هذه المأساة التي كانت طعنه نجلاء في قلب الأمة العربية لم تفق منها بعد ، ولا أتوقع أن تفيق منها إلا بعد فترة مريرة طويلة. كل هذه التجارب وغيرها انعكست على نحو أو آخر في قصائد **معركة بلا راية**.

ولو قمت باستفتاء بين القراء والنقّاد لوجدت أن **معركة بلا راية** يعتبر الديوان المفضل من دواويني لدى غالبيتهم. وأعتقد أن سبب ذلك يعود إلى أن المعاناة الإنسانية التي وُلد الديوان بين أحضانها أصبحت أغنى وأوسع وأنضج مما يجد القاريء في الديوانين السابقين. وإذا كنت من الناحية الفنية أستطيع أن أتبين ذلك بوضوح فإنني من الناحية الشخصية لا أستطيع أن أعتبره «أحسن» من البقية. هذا الديوان ، بدوره ، مرآة أمينة لمرحلة غالية من مراحل العمر.

ولعل من المناسب هنا أن أتحدث قليلاً عن التجارب الرئيسية التي انعكست في قصائد الديوان ، بادئاً بتجربة العمل. لقد كتبت كلا من الديوانين السابقين في مرحلة الدراسة وهي مرحلة مهما قيل عن مصاعبها ومتاعبها إلا أنها في حقيقة الأمر معزولة عن الصراعات والمشاكل التي تكتنف دنيا العمل. لا يمكن للطالب المتفرغ للدراسة ، مهما كان ذكاؤه أن يتصور جو العمل اليومي وما يحيط به من متع ومنغصات. لأول مرة ألتقي مع الآخرين في علاقات تتجاوز علاقات الزمالة الدراسية ، وأتعامل معهم على نحو مختلف رقيق حيناً ، وعنيف حيناً. ولا أشك أن تجربة العمل قد تركت بصماتها على نفسي وعلى الشعر الذي كتبته في هذه الفترة.

ولقد كانت هذه الفترة من الناحية الثقافية من أخصب فترات حياتي. كنت قد كتبت رسالة الماجستير عن مؤلف ألماني أمريكي شهير في حقل العلوم السياسية، هانس مور

جنثاو، وتناولت بالشرح والتعليق نظريته في العلاقات الدولية. هذه النظرية يمكن تلخيصها بأن السياسة بكل أشكالها وأنواعها وفروعها ليست سوى صراع من أجل القوة. ولقد استغرق إعداد الرسالة ضعف الوقت المخصص في العادة لرسائل الماجستير وتطلب قراءات واسعة في نظريات القوة ، قديمها وحديثها. حتى إذا ما انتهيت من كتابة الرسالة كنت تلميذاً مخلصاً من أتباع مورجنثاو مؤمناً إيماناً قاطعاً أن القوة وحدها هي المفتاح السحري الذي يمكننا من فهم السياسة ، سواء على المستوى النظري أو على مستوى الممارسة الفعلية.

غير أنني عندما بدأت دراستي في لندن على يد أستاذ من ألمع أساتذة المدرسة الحديثة في العلاقات الدولية ، جون بيرتون ، تبينت تدريجياً أن نظرية القوة ، وحدها عاجزة عن شرح كل ما يدور في عالم السياسه. منذ ذلك الوقت وأنا أدرك أن كل النظريات التي تحاول اختزال مجموعة هائلة من الظواهر في «عامل» واحد أعجز من أن تشكل تفسيراً موضوعياً دقيقاً لهذه الظواهر. ينطبق هذا على نظرية فرويد في الجنس ، ونظرية ماركس في التفسير المادي للتاريخ ، ونظرية مورجنثاو في القوة ، وعلى كل نظرية أخرى سواء طرحها عالم في كتاب أو إنسان عادي في مجلس. وأستطيع أن أقول بدون مبالغة إنني منذ ذلك الحين فقدت القدرة فكرياً على التعصب أو التطرف لصالح أي نظرية من النظريات ، بل أي فكرة من الأفكار. منذ ذلك الحين وأنا أدرك أنه لا يمكن أن نقسم الألوان إلى لونين اثنين ، أسود وأبيض ، وأن هناك آفاقاً لا تنتهي من الظلال والألوان.

لقد كتبت رسالة الدكتوراة عن التاريخ السياسي ، الداخلي والخارجي ، لليمن خلال فترة حكم الإمام أحمد. ولقد كان اختيار هذا الموضوع نتيجة من نتائج عملي في اليمن. لقد تطلبت الرسالة إلماماً واسعاً بالتاريخ السياسي العربي الحديث. كما تطلب إعدادها إجراء عدد كبير من المقابلات الشخصية وكتابة عدد من الرسائل الخاصة. كانت هذه المقابلات والرسائل تجربة نافعة إلى أقصى الحدود ، وأوجدت عدداً من الصداقات التي لا زالت قائمة حتى اليوم.

خلال الفترة نفسها سنة ١٩٦٨م - (١٣٨٨هـ) تزوجت. ولقد كان الزواج بحمد الله سعيداً موفقاً وكان له أثر كبير في حالة الاستقرار النفسي والسكينة العاطفية التي عشتها منذ تلك اللحظة. هناك من يقول إن الشعر الحقيقي لا ينبع إلا من الحرمان أو من الحب الفاشل. إن هذا القول بالنسبة لي على الأقل ، مرفوض جملة وتفصيلاً. صحيح أن الحب

في ظل الزواج أكثر هدوء ووقاراً من حب النزوة العابرة ، إن جاز لنا أن نسمي هذا حباً ، ولكنه بالتأكيد أكثر عمقاً وصدقاً وأبعد أثراً. حب الزواج هو تلك «المودة» و «الرحمة» التي تحدث عنها القرآن الكريم ، وهو أعلى درجات الحب. إنني لا أريد أن أحول هذه السطور إلى دعاية مجانية للزواج ولكنني أود أن اقول إن إنتاجي الشعري فيما أعتقد ، لم يصب بأي نكسة نتيجة الزواج.

ولقد شهدت هذه الفترة ثلاث مآس شخصية أليمة. أما أولها فوفاة جدتي سعاد في خريف سنة ١٩٦٥م - (١٣٨٥هـ) وكنت أيامها في مؤتمر حرض في اليمن. اتصل أخي عادل بالصديق عبدالله السديري ، رئيس الجانب السعودي في اللجنة وأخبره بوفاة جدتي ورجاه أن يسمح لي بالسفر إلى بيروت. ولست أنسى مهما طال العمر ، لعبدالله موقفه النبيل فقد طلبني وأبلغني أن جدتي مريضة في المستشفى وطلب مني السفر صبيحة اليوم التالي ثم أبقاني بجانبه طيلة الليل كيلا يترك لي مجالاً للقلق أو التفكير. لم أعرف بوفاة جدتي إلا بعد وصولي إلى الفندق في بيروت. عندما عرفت بوفاتها شعرت لأول مرة باليتم ومعنى فقدان الأم. لقد كتبت في رثاء جدتي قصيدتين ، إحداهما منشورة في الديوان[1] ، أما الثانية التي تصف الساعات العصيبة التي قضيتها قبل أن أعرف بالوفاة فلم أنشرها بعد. تقول القصيدة :

حبيبتي

الليل مطروح على الخيامْ

وفي يدي رسالة

سطورها تهتز في ضوء النجومْ

حروفها تطفو على الضباب سرب بومْ

رسالة تقول لي : سعادْ

وفوقها عبء السقام والسنين والحياة

تصارع السقام والسنين والفناءْ

سعاد يا همومْ !



حبيبتي

الفجر مصلوب على الهضابْ

وطفلك المشدوه محمول مع السحابْ

(١) «أماه» معركة بلا راية ص.ص. ٣١-٣٧ .

عيناه تسألان .. تسألان .. ثم تصمتانْ

خوفاً من الجواب

❖

حبيبتي

ضوء المطار يلسع المساءْ

وطفلك المشدوه موجتان تنبضان

بالرجاء والشقاءْ

❖

حبيبتي

الفندق الصاخب .. والصديق

والسؤال والجوابْ

سكت يا حبيبي

وعربد العذابْ

لو أننا نموت عندما نريد أن نموت

كنت لديك في الترابْ

أما المأساة الثانية فقد كانت وفاة أخي نبيل -بغتة- في الرابعة والثلاثين من العمر في سنة ١٩٦٩م - (١٣٨٩هـ). لقد كان نبيل بالإضافة إلى كونه شقيقي، رفيقاً قريباً من قلبي وكان إنساناً بسيطاً زاهداً في الماديات منصرفاً إلى التأمل والقراءة. كانت له مكتبة شخصية عامرة وكان يعقد فيها كل أسبوع، وأحياناً كل مساء «الندوة» وهي لقاء يجمع بين عدد من الأصدقاء ويقتصر البحث فيه على الأمور الأدبية والفلسفية والفكرية، وقد أشرت إلى هذه الندوة في أكثر من قصيدة. لقد كانت وفاة جدتي صدمة أليمة ولكنها لم تكن مفاجئة، إذ كانت في السبعين تشكو من عدد من الأمراض. أما نبيل فقد كانت وفاته مفاجئة نزلت علينا كالصاعقة. لقد كتبت بعد وفاة نبيل مجموعة من القصائد ضممتها إلى قطع نثرية كتبها عنه عدد من أفراد العائلة وإلى مقتطفات من رسائله ومقالاته، ونشرتها في كتاب سميته في ذكرى نبيل. كان قصدي من الكتاب أن يبقى سجلاً خاصاً يرجع إليه الذين أحبوه، ولهذا فإنني لم أطرحه للبيع في الأسواق.

وكانت المأساة الثالثة وفاة ملك، زوجة شقيقي عادل، رحمها الله، في أوائل سنة ١٩٧٠م - (١٣٩٠هـ) على أثر حادث تصادم ولم تكن تبلغ التاسعة والعشرين من العمر.

كانت ملك إنسانة نبيلة سخية كريمة الأحاسيس تحب الناس وتحب الحياة. ولقد جاء موتها بعد موت نبيل بشهور قليلة ، صدمة جديدة حركت الجرح الذي لم يندمل بعد :

ولم نفق يا أخت بعد من نبيلْ
لم تسقط الجمرة من عيوننا
لم يرحل الكابوس عن جفوننا
ولا استرحنا لحظةْ
من حمل جرحنا الثقيلْ
وعندما قلنا اكتفى منا القدرْ
نلنا الأمان ريثما
نسترجع الشارد من صوابنا
تسلل الفناء في
أمسيةٍ بلا قمرْ
باغتنا
في الأجمل الأنبل من أحبابنا
خلفْنا
لمنجل يوغل في أعصابنا
للبقع الحمراء في ثيابنا
لراية منسوجةٍ من الكدرْ
تخفق في صمتٍ على أبوابنا(١)

هذا كله على المستوى الشخصي ، أما على المستوى القومي فقد شهدت هذه الفترة نكبة حزيران الأسود ، هذه الفاجعة التي تغلغلت إلى أعماق كل عربي. لقد كانت هزيمة حزيران نقطة تحول في حياتي بالمعنى الحقيقي ، أي أنني بعدها أصبحت إنساناً ثانياً يختلف عن الإنسان القديم. لقد وضعتني حزيران الأسود وجهاً لوجه أمام التمزق العربي والعجز العربي والذل العربي. لقد كتبت عدداً من القصائد بعد مأساة حزيران ، نشر عدد منها في **معركة بلاراية** وبقي الآخر مطوياً لم ينشر ، ولكنني أعتقد أن أثر الهزيمة في نفسي كان أعمق وأوسع صدى من مجرد تفجير قصائد معدودة.

لم يكن إحساسي بهزيمة حزيران تجربة عقلية أو فكرية ، ولكنه كان احساساً

(١) «يا ملك» **معركة بلا راية** ص.ص. ١٥٦-١٦٤.

شخصياً مباشراً. لقد شعرت -بالفعل- أن الهزيمة هزيمتي أنا لا هزيمة «أنظمة» أو «دول».
ولم يكن ما قلته في وصف مشاعري في تلك الأيام العصيبة من قبيل المبالغة الشعرية :

كانت الدنيا دوارا

وغضبنا وصرخنا

وارتمينا

شهقة مخنوقة تنضح عارا

وعرفنا لوعة العجز بكينا كصبية

أو غلت في جسمها البض أياد همجية(١)

لقد أحسست إحساساً غريزياً أن حزيران لن يكون نهاية الآلام بل على العكس بداية فترة طويلة من السنوات العجاف في تاريخنا. كنت مقتنعاً أيامها أن على العرب أن يتجرعوا المزيد من كؤوس الذل والمهانة ، وها هي ذي الايام تثبت هذه الحقيقة من جديد.

على المستوى الفكري ، فقدت بعد حزيران كل ثقة بالشعارات السياسية وأصبحت لا تثير في نفسي سوى الاشمئزاز والاحتقار. لقد تجسد العدو في نظري فأصبح عدواً واحداً وإن تعددت أسماؤه ووجوهه وأشكاله. إن العدو الأول ليس إسرائيل ، فليست قوة إسرائيل سوى انعكاس لضعفنا الرهيب. ولا الاستعمار العالمي ، فالمستعمرون لا يستعمرون إلا من يجدون لديه قابلية لأن يستعمر. وليست الزعامات العربية ، فكل اناء بالذي فيه ينضح وكما تكونون يولى عليكم. منذ تلك اللحظة أصبح العدو الأول -في نظري- هو التخلف - : كل خطوة نخطوها للابتعاد عن التخلف ، بأنواعه المادية والفكرية والاجتماعية والسياسية هو خطوة للتخلص من الهزيمة والانطلاق إلى الانتصار. وأعتقد أنني لا أبالغ إذا قلت إنني منذ ذلك الحين كنت أسأل نفسي ، بوعي أو على مستوى اللاوعي ، وأنا أجابه أي حدث من الأحداث : هل يساعد هذا الحدث على التخلص من التخلف ، فأصنفه ضمن التطورات الإيجابية ، أم يكرس التخلف ويؤصله ، فاعتبره تطوراً سلبياً. منذ ذلك الحين جعلت محاربة التخلف هدفاً سخرت له امكانياتي وطاقاتي المحدودة كلها، وسأمضي في هذا الطريق حتى آخر لحظة من لحظات حياتي بإذن الله.

هذه التجارب ، وكثير غيرها تنعكس في **معركة بلا راية**. إنني لا أعتقد أن قصائد هذا الديوان أقل ذاتية من قصائد الدواوين السابقين. لا بل إنني أعتقد أن كل شعر حقيقي هو

---

(١) «بعد سنة» معركة بلا راية ص . ص . ٦٥-٦٢ .

بالضرورة شعر ذاتي. كل ما هنالك أن اهتمامات الذات نمت وتوسعت وتأثرت بعدد من التطورات العامة والخاصة ، مما جعل الشعر الذي كتبته في تلك الفترة مختلفاً عن أشعار المراهقة ومقتبل الصبا.

على أثر عودتي من اليمن في ربيع سنة ١٩٦٦م - (١٣٨٦هـ) واصلت العمل في الجامعة. ولقد قضيت صيف تلك السنة في لندن لاختيار جامعة أواصل فيها الدراسة وقد وقع اختياري على جامعة لندن. وقبل أن يبدأ العام الدراسي بأسابيع قليلة انتقل إلى رحمة الله الدكتور أحمد السمّان الذي كان رئيس قسم العلوم السياسية وقتها بالكلية. وقد وجدت نفسي مضطراً إلى تدريس ما كان يتولى تدريسه من مناهج بالإضافة إلى المناهج الأصلية التي كلفت بتدريسها. لقد درست تلك السنة سبعة مناهج ، وهذا رقم قياسي في دنيا التدريس الجامعي. وفي صيف سنة ١٩٦٧م - (١٣٨٧هـ) ذهبت إلى ندوة هارفرد الدولية التي كان يديرها ويساهم في نشاطاتها الدكتور هنري كسينجر ، وهي ندوة تستغرق ستة أسابيع وتضم حوالي أربعين شخصاً من قادة الفكر والرأي من الشباب من مختلف دول العالم. كانت الندوة تجربة فكرية مفيدة. وفي نهاية الصيف انتقلت إلى لندن لأبدأ التحضير للدكتوراه.

على خلاف اللقاء الأول مع المجتمع الأمريكي لم يكن اللقاء بالمجتمع البريطاني تجربة مفاجئة أو مثيرة. من ناحية لم تكن هناك مشاكل اللغة والتأقلم التي واجهتني في المرحلة الأولى. من ناحية ثانية ، كنت في السابعة والعشرين من العمر مسلحاً بحصيلة لا بأس بها من التجارب. ومن ناحية ثالثة ، ظل ارتباطي بالوطن قوياً طيلة المرحلة الجديدة. ومع هذا فإن بصمات المجتمع الغربي تبدو في عدد من قصائد **معركة بلا راية**. كما أن الحنين إلى المجتمع القديم لا يزال يظهر هنا وهناك في الديوان.

في خريف سنة ١٩٧٠م - (١٣٩٠هـ) أنهيت الدراسة وتوقفت في بيروت لطبع الديوان. لم يكن هناك تردد بالنسبة للاسم إذ كنت قد قررت قبلها بمدة أن يحمل الديوان اسم القصيدة الأولى من قصائده. لقد اعتقد الكثيرون أن المعركة التي يشير إليها العنوان هي معركة العرب القومية ودللوا على ذلك بالقصائد التي تتحدث عن الهزيمة. إن هذا الاعتقاد غير صحيح فقد كتبت قصيدة «معركة بلا راية» قبل هزيمة حزيران بستة أشهر. والمعركة التي تتحدث عنها القصيدة ليست معركة سياسية أو عسكرية ولكنها ملحمة الإنسان مع الحياة نفسها. لقد كتبت القصيدة في أمسية شتائية حزينة قارسة البرد وفي

حالة نفسية كئيبة شعرت معها أنني لم أقدم شيئاً للحياة أو للناس وأن أيامي لم تكن سوى معركة بلا راية :

أحس بأن أيامي

كهذي الليلة الحمقاء ، عاصفة بلا معنى

صراع دونما غاية

ومعركة بلا راية

طواف حول دائرة من الأوهام

تبدأ كلما قلت انتهت وتطول قدامي

وأحلامي

كؤوس إن تعبت شربتها وسكرت

فاستسلمت للدرب

ويا قلبي !

أتعرف أننا ضعنا ؟(١)

لقد طبعت من الديوان الجديد ثلاثة آلاف نسخة وزعت في عدد من الدول العربية. وأعتقد أن هذا الديوان نال من الانتشار بين القراء ومن عناية النقاد ما لم ينله أي ديوان من دواويني الأخرى التي سبقته.

لقد كانت الفترة التي كتبت فيها قصائد **معركة بلا راية** أكثر الفترات غزارة في الإنتاج ، باستثناء الفترة التي شهدت مولد **أشعار من جزائر اللؤلؤ**. غير أن الإنتاج انخفض بعد طبع الديوان الثالث وبقي على مستوى واحد من الغزارة حتى الآن : خمس أو ست قصائد في السنة الواحدة. إنني أسجل هذه الحقيقة كظاهرة شعرية لا أعرف لها تعليلاً ولا أعلقّ عليها قليلاً أو كثيراً من الأهمية.

إن ديوان **معركة بلا راية** بخلاف الديوانين السابقين ، يصعب أن يصنف كديوان غزل ولعل هذا ما دفع بعض النقاد إلى اعتباره مرحلة جديدة في مسيرتي الشعرية تختلف عن النهج الرومانسي السابق. إنني لا أجادل في هذا الحكم ولكنني أستطيع أن أقول إنني لم أتعمد وأنا أكتبه أن أدخل مرحلة جديدة أو أنتهج خطاً يختلف عن الخط القديم. إن تفسيري الخاص هو أن التجارب تغيرت ، والمرحلة الزمنية اختلفت ، فجاء الديوان على نحو

(١) «معركة بلا راية» معركة بلا راية ص . ص . ٥-١٠ .

مختلف.

ومع هذا فلا بد لي أن أشير أنني أجريت في هذا الديوان بعض التجارب الجديدة ، بالنسبة لي ، من حيث الشكل. في قصيدتين من الديوان ، هما «كلمات لصديقة[١]» والسيمفونية الصامتة[٢]» استعملت عدة بحور مختلفة وراوحت في القصيدة الواحدة بين الشكل التقليدي والشكل الحديث. كما أنني كتبت قصيدة تقليدية من رباعيات ، كل رباعية من بحر مختلف[٣]. وفي الديوان نفسه كتبت لأول مرة قصيدة تتحرر تحرراً شبه نهائي من القافية هي «الموت في حزيران[٤]». كما أن الرموز المستمده من التراث الفولكلوري ومن ألف ليلة وليلة بالذات ، تظهر لأول مرة في هذا الديوان. غير أن الديوان لم يختلف عن الدواوين السابقة في احتوائه على عدد متقارب من القصائد التقليدية والقصائد الحديثة.

إثر رجوعي إلى الرياض عدت إلى كلية التجارة مدرساً فرئيساً لقسم العلوم السياسية فعميداً. ثم انتقلت إلى مرحلة جديدة في حياتي الوظيفية بانتقالي إلى عمل إداري بحت بعيد عن المجال الأكاديمي. هذه الفترة من حياتي تنعكس في ديوان «**أنت الرياض**».

---

(١) معركة بلا راية ص.ص. ٢٢-٢٦.

(٢) معركة بلا راية ص.ص. ١٤٥-١٥١.

(٣) «رباعيات عاشقة» معركة بلا راية ص.ص. ٤٧-٥١

(٤) معركة بلا راية ص.ص. ١٦٥-١٧١.

الفصل السادس
أبيات غزل

أتـــيه بالشعر بالأبـيـات أنحتها   من الضــلوع كما تستوقد النــارُ
لا لن يمرّ غبار الـــــذل في شفةٍ   يـــمدّها بلحـــون الكبـــر ثــيارُ
تلك القصائد سر الفجر في كبدي   فكيف يكمن في أبياتها العارُ(١)؟

---

(١) «كبرياء» أبيات غزل ص.ص. ٥٨-٥٩ .

في سنة ١٩٧٦م - (١٣٩٦هـ) طبعت ديوان **أبيات غزل**. ولا بد لي من أن أعترف اعترافا واضحاً أنني ارتكبت خطأ كبيراً بطباعة هذا الديوان ،وأن أقول إنني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما طبعته على الاطلاق.

لقد كانت الفكرة التي دفعتني إلى طبع الديوان معقولة ومنطقية ، في رأيي على الأقل. لقد رأيت أن يضم الديوان نوعين من القطع : المقطوعات القصيرة التي يمكن تصنيفها كقصائد والتي لم أتمكن لذلك من نشرها في الدواوين السابقة ، ومقتطفات قصيرة من قصائد أطول لم تنشر من قبل إما لأن القصيدة الكاملة غير صالحة للنشر أو غير قابلة للنشر ، وهذا هو الجزء الأكبر من الديوان. ولقد حرصت على تسمية المجموعة **أبيات غزل** ليكون العنوان بمثابة انذار للقارىء بأنه لن يعثر على قصائد متكاملة بل مجرد أبيات متناثرة. وكان في ظني أن القاريء سيقبل على قراءة المجموعة وهو مدرك كل الادراك ما تحتويه وبدون توقعات كبيرة.

كانت هذه هي النظرية. غير أن الأمور لم تجر على هذا النحو في الواقع. من ناحية أدى اختيار قطع صغيرة من قصائد إلى الاخلال بالوحدة العضوية للقصيدة. وإذا كنت لم أتبيّن ذلك ، باعتباري أعرف الأصل الكامل ، فإن القارىء الذي لم يقرأ سوى أبيات ثلاثة أو أربعة لم يستطع أن يتبين المقصود من القطعة. من ناحية ثانية ، أدى الجمع بين قطع كتبت في فترات زمنية مختلفة إلى وجود تباين واضح في المستوى لاحظه القراء. ومن ناحية ثالثة ، جاء **أبيات غزل** بعد **معركة بلا راية** فتوقع القراء ديواناً ذا مستوى مماثل أو مقارب. وغنى عن الذكر أن خيبة أملهم كانت كبيرة وهم يرون قطعاً صغيرة لا يربط بينها رابط ولا توجد منها قطعة واحدة يمكن أن تسمى قصيدة.

وعندما أمعن النظر في الأمر اليوم أجد أنني كنت على خطأ بيّن وكان القراء على حق واضح. لا يمكن للمرء أن يحذف من قصيدة ما تسعة أعشارها ويتوقع أن يعبر العشر الباقي عن التجربة النفسية التي أوحت بالقصيدة. وما كان للقارئ وهو يطالع العنوان أن يدرك ما تحتويه المجموعة. وما كان من المناسب أن تضم مجموعة صغيرة شعراً كتب في السابعة عشرة وشعراً كتب في الثالثة والثلاثين.

ولكي يدرك القراء الفرق بين القصائد الكاملة وبين المقتطفات التي تضمنها **أبيات غزل** فيما يلي مثلين :

أولهما قصيدة بعنوان «يا سميا» وقد جاءت في أبيات غزل على النحو التالي :

يا سميا يفيض ينبوع سحر — في سطوري إذا كتبت سميا

أتراني نشدت عندك نجما — يتأبى عن الرجوع إليّا ؟

لا تخافي من الجواب فإني — قد تعودت أن أعود شقيا(١)

أما القصيدة الكاملة، وقد كتبتها أيام الدراسة في القاهرة سنة ١٩٥٩م - (١٣٧٩هـ) فهي على النحو التالي :

«أنا أهواك ...» قلتها لرفاقي — فأجابوا لقد غدوت غبيّا

كيف تهوى بدراً تلألأ في الأفق مضيئاً .. فعانقته الثريا

أجنونٌ .. أم تلك نزوة قلب — لم يزل يعشق القصيّ القصيّا

أطرد الوهم لا تكن ككثير — لم ينالوا ممن أحبوه شيّا

قد عذرت الرفاق يا فتنة الشعر وأوغلت في الظنون مليّا

وتساءلت أهو ذنبي إن جاش لهيب الحنين في جانبيّا

شاء لي الحسن أن أحب فلاقاك بدربي وصاح بالقلب «هيّا»

أعذريني إذا عشقت ولومي ناظراً ساحراً وثغراً شهيّا

❖

آه لو تفهمين معنى قواف — تتلظى كالنار في شفتيّا

لترددت وابتسمت ورفّت — نظرات تهدي رضاك إليّا

لو تكونين لي .. صببت على عينيك فجراً منضراً عبقريا

لو تكونين لي .. ضفرت على رأسك تاجاً من الزهور نديّا

ونثرت الحنين في مسمع الليل .. وأودعته ندائي الشجيّا

❖

أتقولين من أنا ؟ طالعيني — شاعراً مات بالصبابة حيّا

باحثا خلف سره .. خلف حب — يتصباه منذ كان صبيّا

يا سميا يفيض ينبوع سحر — في سطوري، اذا كتبت سميّا

طال عهد النوى وقلت سأنساك وعدنا فعاد حبيّ فتيّا

أو ما طالعتك خلف عيوني — نظرة تفضح الحنين الخفيّا ؟

❖

يا سميا جن السؤال فردي — قبل أن يملأ السماء دويّا

(١) أبيات غزل ص.ص.٦٩-٧٠.

أتـــراني نشـــدت عـــنـــدك نجـــمـــا   يـــتـــأبـــى عـــن الـــنـــزول إلـــيـــا ؟
ومـــددت الـــيـــديـــن شـــوقـــا إلى الحب فـــهـــل يـــمـــلأ الـــظـــلام يـــديـــا ؟
لا تـــخـــافي مـــن الجواب فـــإنـــي   قـــد تـــعـــودت أن أعـــود شـــقـــيـــا

أما ثانيهما فقصيدة بعنوان «لا تعتذري» وقد وردت في أبيات غزل على النحو التالي :

لا تعتذري
هذا قدري
أن اضرب في البحر الأزرق
أنا والزورق
والقلب الطفليّ الأخرق
حتى نغرق(١)

هذا هو المقطع الأول من القصيدة الكاملة ، وقد كتبتها في لندن سنة ١٩٦٨م - (١٣٨٨هـ). أما بقية القصيدة فعلى النحو التالي :

أأظل هنا في مينائك
أتغزّل في الشعر الأسود
وأجوب مجاهل سينائك
لا ياذات القلب المقعد
لن أبقى والحب المجهد
لأردّد أحلى أسمائك
وأمجّد أغبى أهوائك
لا .. في روحي ألف قصيدة
بعد ستولد
ألف نشيدة
عن فجر مصبوغ بالنار
عن دنيا تسبح في أسرار
عن سير الإنسان الضائع
نحو الإيمان

(١) أبيات غزل ص.ص.١٠٥-١٠٦.

عن مجد الواقف في القمة

يتحدى أشباح الأذعان

❖

ماذا ألمح خلف عيونك

خلف الألوانْ ؟

ألمح لا شيء !

ماذا أسمع خلف لحونك

تسبي الآذانْ ؟

أسمع لا سيءْ !

وأنا لا أبحث في الأنثى

إلا عن شيءْ

يتلقّاني

حين تشبّ الصحراءُ .. بفيءْ

ويحدّثني

عن تاريخ الركب الساري

عن معنى خوض الاعصار

ويحررني من إعياني

من سجن لا يبصره الناسْ

ويحوّلني

كومة أزهارْ

شعلة أنوارْ

في درب الناس

❖

لا تعتذري

سألاقي الشيءْ

أو أضرب في البحر الأزرق

أنا والزورق

والقلب الطفليّ الأخرق

حتى نغرق

لقد تصورت - وقتها - أنني اخترت أحسن ما في القصيدتين. أما اليوم فأنني أدرك أن كل ما فعلته هو أنني اعتديت -بدون وجه حق- على «الوحدة الإقليمية» للقصيدتين. والأمر نفسه يصدق بالنسبة لبقية القصائد إنني أدرك الآن ان الطريق الوحيد لإصلاح الخطأ هو نشر القصائد التي وردت في المجموعة كاملة غير منقوصة. وهذا ما أنوي أن، أقوم به يوماً من الأيام بإذن الله ، حين أنشر كل ما كتبت من شعر ، جيده ورديئه في ديوان واحد كامل.

هناك كلمة أخيرة ، لقد كان **أبيات غزل** أول ديوان أنشره بعد تكليفي بأعباء الوزارة. والمفترض في الناس أو معظمهم أو بعضهم أن يجاملوا على نحو أو آخر ، من يتولى مثل هذا المنصب. والكتّاب بشر يسرى عليهم ما يسري على الآخرين. كان المفروض إذن أن تكون الكتابات التي عالجت **أبيات غزل** مليئة بالمجاملة متضمنة الكثير من التقريظ. غير أنني أشهد شهادة مخلصة أن كل من تناولوا الديوان بالبحث بدون أي إستثناء تقريباً ، قالوا آراءهم صريحة دون مواربة. إن أحداً من الذين كتبوا عن الديوان لم يزعم أنه عظيم أو رائع. ولئن كنت قد أخطأت في نشر الكتاب فالقراء والنقاد لم يخطأوا في تحليله . وأحمد الله أن كلمة الحق تقال ، ولو كانت على حسابي.

الفصل السابع

أنتِ الرياَض

رأيـــت عبـــر الليـــالي　　مـــا لستـمـــا تـــريـــان

سمعـــت عـبـر الليـــالي　　مـــا لستـمـا تـســمـعـان

فمـــات قلبـــي ومـــــاتت　　روحـــي .. ومـات لســـاني(١)

(١) «هيا خذاني» أنت الرياض - المكتب المصري الحديث - القاهرة - ١٩٧٧م ص.ص.٧٤-٧٧.

كتبت قصائد **أنت الرياض** فيما بين سنتَي الواحدة والثلاثين والسادسة والثلاثين ، باستثناء ثلاث قصائد كتبتها في مرحلة سابقة. كانت هذه الفترة تتميز بالاستقرار والهدوء بعد فترة طويلة من السفر والتنقل المستمر. صحيح أن هذه الفترة بدورها كانت حافلة بالأحداث ولكنها أحداث من نوع آخر تختلف عن الأحداث التي شهدتها المراحل السابقة. لا توجد هذه المرة تجربة مع مجتمع جديد ولا صدمات حضارية. لم يعد هناك ذلك التساؤل المضني عن الذات وعن الحياة وعن المستقبل. تلاشى الحديث عن الضياع ، أو كاد يتلاشى. لم تجدّ في هذه الفترة تجارب على المستوى الشخصي تركت نفس الأثر العميق الذي تركته تجارب المرحلة التي شهدت مولد **معركة بلا راية**.

على أن هذه الفترة شهدت تجارب من نوع آخر. لأول مرة أقضي خمس سنوات متواصلة في الوطن منذ تركته صبياً لم يكد يبلغ الخامسة. جدّت تطورات هامة في خطي المهني سواء داخل الجامعة ، عندما توليت عمادة الكلية ، أو خارجها عندما انتقلت للعمل بمؤسسة الخطوط الحديدية ثم عندما عيّنت عضواً بمجلس الوزراء.

لقد انغمست إثر رجوعي في دوامة سريعة من العمل المتواصل. كنت أقضي فترة الصباح في الكلية. أما فترة بعد الظهر فقد كنت أقضيها في مكتب أحد الاصدقاء المحامين الذي سافر لاستكمال دراسته العليا وطلب مني الإشراف على المكتب في غيابه. أما فترة المساء فقد كنت أقضيها متنقلاً بين معهد الإدارة العامة ووزارة المالية والاقتصاد الوطني إذ كنت أعمل مستشاراً غير متفرغ بالجهتين. وقد زادت هذه المسؤوليات ثقلاً عندما توليت عمادة كلية التجارة الأمر الذي اضطرني إلى التخلي عن الإشراف على مكتب المحاماة.

كانت جامعة الملك سعود (الرياض) أيامها تمر بمرحلة انتقالية شهدت انتقال جميع الوظائف الحساسة في الكليات من أعضاء هيئة التدريس المتعاقدين إلى أعضاء هيئة التدريس السعوديين. كان الوضع قبل الانتقال لا يخلو من غرابة. كان بإمكان الشاب السعودي المؤهل أن يتولى أعلى المناصب في الدولة ، كالوزارة أو وكالة الوزارة ، في سن مبكرة أما في الجامعة فقد كان من المستحيل عليه أن يصبح رئيس قسم أو عضواً في مجلس الكلية. كان هناك شعور متزايد بضرورة تغيير هذا الوضع. ولقد أسعدتني الظروف بالمساهمة في وضع النظام المعدل الذي سمح لأعضاء هيئة التدريس السعوديين أن يتولوا كافة المناصب الأكاديمية في الجامعة. على أنه إذا كان الوضع الجديد إيجابياً في جملته فإنه لم يخل من سلبيات. كان أعضاء هيئة التدريس السعوديون من أعمار متقاربة ودون فروق

تذكر في الأقدمية العلمية مما أدى إلى نشوء تنافس شديد وإلى انعدام روح الانضباط التي تفرضها عادة فوراق السن والخبرة والأقدمية. إن هذه ظاهرة مؤقتة بدأت تتلاشى مع قدوم أجيال متعاقبة من أعضاء هيئة التدريس السعوديين ولكنها كانت ثمناً لا بد من دفعه في البداية.

لقد كانت هذه الرغبة في انتقال الوظائف الهامة في الكليات إلى السعوديين هي السبب في تكليفي بالعمادة. والواقع أن هذا التكليف جاء كأمر مفاجيء لم أكن أتوقعه أو أتطلع إليه. خصوصاً وقد كان في الكلية من الزملاء السعوديين من هم أقدم مني. لقد ترددت كثيراً قبل أن أوافق. من ناحية كان اختياري للعمل في الجامعة نابعاً عن رغبة حقيقية في البحث والتدريس ولم أكن حريصاً على القيام بأعمال إدارية. من ناحية ثانية كنت أخشى أن يعتبر هذا التكليف تشريفاً وأن يثير في بعض النفوس شيئاً من عدم الرضا ، وقد صح ما توقعته فيما بعد.

على أنني بعد تردد قصير اخترت قبول التكليف. وقد كان وراء القرار سببان رئيسيان. أما السبب الأول فهو اعتقادي الجازم طيلة حياتي أننا مهما خططنا لحياتنا أو اتخذنا من القرارات بشأن مستقبلنا نبقى في النهاية محكومين بما قدره الله لنا. إنني لم أنسب أي نجاح حققته في حياتي، على المستوى الدراسي او العملي، الى كفاءة ذاتية او عبقرية شخصية بل كنت أؤمن إيماناً لا يتزعزع أن إرادة الله سبحانه وتعالى هي التي منّت عليّ بهذا النجاح. إن عجبي لا ينتهي من الذين يعتقدون أنهم حققوا ما حققوه «على علم عندهم» ومن الذين «يخططون» للوصول إلى الوزارة أو غيرها من الوظائف. أما السبب الثاني فقد كان شعوري العميق أن الجامعة -ككل- بحاجة إلى أن تحث خطوها في مواكبة التطورات الجامعية العالمية ، وشعوري أن بامكاني المساهمة في هذه المرحلة الهامة من تاريخ الجامعة. لقد كانت فترة العمادة مليئة بالتحديات والارهاق ولكنها كانت مليئة بالإنجازات. كان مجلس الجامعة وعلى رأسه وكيل الجامعة الدكتور عبدالعزيز الخويطر متجاوباً مع كل اقتراح جديد نافع. شهدت الجامعة الكثير من التغييرات الإيجابية ، كالتحول إلى اليوم الدراسي الكامل ، وإعادة النظر في نظام الامتحانات العتيق الذي نقل بحذافيره من مصر وتطوير مجموعة من الحوافز للطلبة المتفوقين ، وتشجيع البحث العلمي. وعلى مستوى الكلية كانت هناك تطورات هامة. انتهى العمل في منهج جديد وسّع عدد التخصصات ، ابتعث عدد كبير من المعيدين وعّين عدد أكبر ، صدرت مجلة علمية للكلية ، وكثف النشاط الثقافي

والاجتماعي. لقد ارتكبت خلال فترة العمادة بعض الأخطاء بحق عدد من الزملاء ، وارتكب بعض الزملاء عدداً من الأخطاء بحقي ، وأعتقد أنه لم يكن بالإمكان تفادي هذه الأخطاء. على أنني أحمد الله أن الخلافات كانت في معظم الحالات سحابه صيف تقشعت. وعندما انتهت فترة تكليفي بالعمادة كان هنا اصرار قريب من الاجماع بأن أبقى ولكنني أصررت على عدم البقاء فترة أخرى ، وقد كان هذا شرطاً تمسكت به منذ البداية.

بعد بضعة شهور من التخلي عن العمادة عرض عليَّ الأديب الأستاذ محمد عمر توفيق وكان وقتها وزيراً للمواصلات أن أنتقل لأعمل معه مديراً عاماً لمؤسسة الخطوط الحديدية في الدمام. لقد وضعني هذا العرض أمام حيرة شديدة وكان القرار غاية في الصعوبة. لم يكن من السهل أن أترك الكلية التي عشت فيها وأحببتها فترة تقارب عشر سنوات ، ولم يكن من السهل عليَّ أن أترك التدريس. على أنني في النهاية وجدت أنني أعطيت الكلية كل ما سمحت لي الظروف بإعطائه ورأيت أن العمل الجديد لا يخلو من إثارة وتحديات من نوع مختلف.و في الحفلة التي أقامها الزملاء لوداعي ألقى الصديق الدكتور أسامة عبدالرحمن قصيدة يداعبني فيها :

ما للسياسة ما لها ... وإدارة السكك الحديدْ ؟
هلا غدوت «كسنجرا» ... يختال كالعلم الفريدْ
بيديه مفتاح السلام ... وعنده كسر الجليدْ ؟

وقد رددت عليه بقصيدة طويلة جاء فيها :

إن السياسة فاعلمن ... في كل ميدان تفيدْ
فن القيادة ليس من ... علم السياسة بالبعيدْ
والكون تحكمه السياسة ... في القديم وفي الجديدْ
حتى الإدارة من أفانين السياسة تستفيدْ
فإذا شككت بما أقول وأنت ذو رأي سديدْ
فاسأل «سليمان السليم» فإنه رجل رشيدْ
أو سل «فتى السعدون(١)» أو سل يا أخي «عبدالحميدْ(٢)»

وإذا كنت قد ترددت كثيراً قبل الانتقال إلى عملي الجديد فأنني لم أندم لحظة واحدة على القرار الذي اتخذته. كان العمل شيقاً وممتعاً وقد بدأت منذ أول يوم صداقة وطيدة

(١) الدكتور حمد السعدون .
(٢) الدكتور عبدالحميد أبو سليمان

بيني وبين الأخوة العاملين في المؤسسة ولا زالت قائمة حتى اليوم. لم أكد أكمل سنة ونصفاً في المؤسسة حتى عيّنت وزيراً للصناعة والكهرباء وقضيت في هذا المنصب ما يزيد على ثمان سنوات.

لقد أشرت بإيجاز إلى هذه التطورات أما التفاصيل فتحتاج إلى كتب. على أنه لا يهمنا هنا ما فعلت، أو لم أفعل، كعميد كلية أو مدير مؤسسة عامة أو وزير. الذي يهمنا أن هذه التجارب كلها ألقت بي في خضم عالم جديد يختلف عن العالم الأكاديمي. لقد بدا عهد الدراسة والتدريس من موقعي في العالم الجديد عهداً بريئاً صافياً يذكر، في عزلته السعيدة، بالأبراج العاجية التي يتحدثون عنها. اختفت الدنيا التي كنت أعرفها وظهر لي العالم بملامح مخيفة لم أرها من قبل.

كنت أسمع من قبل بطبيعة الحال عن كلمات مثل «المصالح» و «الحسد» و «الحقد» و«الغيرة» ولكنني لم ألتق بها كحقائق مرعبة إلا في هذه الفترة. لم أكن لأصدق -لولا أن التجربة المريرة علمتني- أن إنساناً لم تره ولم يرك ولم تعرفه ولم يعرفك يمكن أن يكرهك وأن يكيد لك. ولم أكن لأصدق -لولا أنني رأيت بعينـيّ- كيف تنقلب الصداقة فتوراً يشبه العداء إذا مشى الطموح بين الصديقين. لم أكن قد شاهدت عن كثب من قبل كيف تنقضّ المصالح الخاصة على المصلحة العامة في صراع قاس غير متكافئ. باختصار لقد أتاحت لي التجربة الجديدة أن أطلّع على جوانب من الطبيعة البشرية كانت خافية عليّ. لا اقول إنني أصبحت بعدها أقل ثقة بالناس ولكنني أقول إنني أصبحت أكثر معرفة بهم.

ومن هنا فإن الحنين إلى عالم طفولي بريء بعيد عن المطامع والمطامح والأهواء أصبح يشكل جزءاً هاماً من الشعر الذي كتبته خلال تلك الفترة. ولقد انعكس هذا الحنين في عدد من قصائد **أنت الرياض** مثل «العودة إلى الواحة[1]». و «هيا خذاني» وقد سبقت الإشارة إليها في مطلع الفصل «واذهبي[2]»، على أن هذا الحنين ينعكس بصورة عنيفة مباشرة في قصيدة «الحب والموانيء السود(٣)»، وهي القصيدة التي كدت اسمّي الديوان باسمها. هذه القصيدة تتحدث عن تحول الطفل إلى رجل، فاقداً في كل مرحلة من مراحل التطور جزءاً من براءته وطهره وعفويته ماراً بأربعة موانيء يتعلم من خلال إقامته فيها الخوف والكذب ويعشق المال والمجد.

ولأول مرة يعكس ديوان من دواويني صـــوراً من البيئة السـعودية على نحـــو مباشر.

(١) أنت الرياض ص.ص. ٦٦-٦٩. (٢) أنت الرياض ص.ص. ٣٦.-٣٩.

(٣) أنت الرياض ص.ص. ١٢٤-١٣٤.

«أنت الرياض[١]» القصيدة التي استعرت من اسمها اسم الديوان ، تصور كيف تمتزج الحبيبة والمدينة فيصبحان شيئاً واحداً ، تذكّرك المدينة بالحبيبة والحبيبة بالمدينة ، والحب في النهاية هو نفس الحب. هناك قصيدة عن «أبها[٢]» هذه المدينة الحالمة الجميلة التي زرتها لأول مرة خلال هذه الفترة. صور المطر والصحراء تتكرر في أكثر من موضع في الديوان.

هناك في الديوان عدة قصائد رثاء. واحدة في رثاء الملك فيصل ، رحمه الله[٣] ، وواحدة في رثاء الصديق زياد بخيت[٤] وثالثة في رثاء الصديق محمود نصيف[٥] اللذين توفيا في ميعة الشباب وفي ظل ظروف فاجعة ، رحمهما الله. وهناك قصيدة في رثاء أبي الذي توفي سنة ١٩٧٦ م - (١٣٩٦هـ) وكان عمره يناهز المائة :

وفي لحظـــــــــة يا أبـــــي وصديقي ... فقدتك عــــــدت يتيماً صغيراً
يغالب بين الجـــمـــوع الدمــــــوع ... ولا يســتطيع فيبــكـي كـثيرا
وأنـــت هنـــالك فـــوق الرقــــــاب ... تلـــوح كـــعــهدي كبيراً كبيرا
مهيباً برغم انطـفـــاء الحـــيـــــاة ... ورغم انســـدال الســـتار شهيرا (٦)

لقد تحولت علاقتي بأبي عبر السنين من علاقة احترام وخوف إلى علاقة محبة وصداقة حقيقية. أنني أشعر أن عاطفتي نحو أبي أكبر وأعمق من أن تعبر عنها قصيدة واحدة ، وأستغرب لأنني لم أكتب عنه سوى هذه القصيدة. التاريخ الأدبي يحدثنا عن شعراء فقدوا أحباء قريبين إلى قلوبهم ولم يكتبوا عنهم كلمة واحدة[٧] ، وهذا بدوره سر من أسرار العملية الشعرية التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً. لقد قال لي الشاعر عمر أبو ريشة إنه كان متعلقاً بأبيه تعلقاً نادراً ومع ذلك فلم يستطع أن يكتب عنه بعد موته سوى أربعة أبيات. إنني اشعر أنني مهما كتبت من شعر عن أبي فإني لا أستطيع أن أفيه حقه. إنني كلما تقدمت بي السن ازددت اعجاباً بهذا الإنسان العظيم. ولا أعتقد أن يوماً واحداً قد مرّ بي دون أن التقي في شرق المملكة أو غربها أو شمالها أو جنوبها بإنسان عرف أبي معرفة حميمة واحنفظ له بأجمل الذكريات. إن هذا أثمن ما يخلفه أب لابنه ، رحم الله أبي وجزاه خير ما يجزي به عباده الصالحين.

لقد قلت من قبل إن شعر الرثاء لصيق بقلبي ، ولقد قال أحدهم ذات يوم ، على سبيل الانتقاص والاستهزاء ، أنني شاعر رثاء. إنني لا أتبرأ من هذه «التهمة» لا بل إنني على

---

(١) أنت الرياض ص.ص. ٦-١١.
(٢) أنت الرياض ص.ص. ١١٦-١١٩.
(٣) «فارس القدس» أنت الرياض ص.ص. ٥٨-٦٥.
(٤) «موت انسان» أنت الرياض ص.ص. ٥٢-٥٥.
(٥) «كيف أبكيك» أنت الرياض ص.ص. ٩٠-٩٣.
(٦) «أبي» أنت الرياض ص ص ١٢٠-١٢٣
(٧) على سبيل المثال ، قال لي الأخ عبدالرحمن رفيع إنه لم يتمكن من كتابة بيت واحد في رثاء أبيه ، رغم ما يكنه له من حب عميق .

العكس ، أعتز بها. شعر الرثاء يعبق بعطر الوفاء والوفاء عاطفة من أنبل العواطف البشرية وأندرها. وشعر الرثاء يندى بالصدق لأنه يُكتب في حالة من الذهول الحزين لا يستطيع معها المرء أن يتحكم في مشاعره أو يخفيها. ومن هنا فإن من أجمل قصائد الشعر العربي كله في نظري قصيدة مالك بن الريب في رثاء نفسه ، وقصيدة ابن الرومي الدالية في رثاء ابنه ، وقصيدة متمم بن نويرة في رثاء أخيه ، وقصيدة المتنبي في رثاء جدته ، وقصائد عبدالرحمن صدقي في رثاء زوجته ، وقصيدة نزار قباني في رثاء ابنه. ولا أعتقد أنني سأشعر بأي غضاضة إذ قيل إن الشعر الذي كتبته في الرثاء هو أفضل ما كتبت من شعر.

وفي **أنت الرياض** واصلت التجربة التي بدأتها في **معركة بلا راية** في التحرر المطلق من القافية وقد استخدمت هذا الأسلوب في ثلاث قصائد هي «وحين أكون لديك[1]» و «حبك[2]» و «موت إنسان» التي سبقت الإشارة إليها. إنني أشعر أن نجاحي في هذه التجربة لم يكن كاملاً. بقدر ما يتيح هذا الأسلوب من حرية في الاسترسال تسمح بتداعي الأفكار وانثيالها، إلا أنَ قدراً من الموسيقى التي توفرها القافية يضيع ويتبخر.

وقد استمرت الهموم العربية تؤرق **أنت الرياض**. حالة اليأس التي خدّرت الوجدان العربي على اثر هزيمة حزيران هي محور قصيدة «حيزران الأثيم[3]». تصفية العمل الفدائي الفلسطيني هو موضوع قصيدة «حكاية النجم المذبوح[4]». الأمل في معجزة تعيد للعرب كرامتهم المهدورة يتجلى في قصيدة «الأخطبوط[5]». الشعور بأن القصائد لا تقدم ولا تؤخر هو منطلق قصيدة «السكوت[6]». لم أكتب عن حرب اكتوبر سوى قصيدة واحدة تتحسر على نهايتها الأليمة ومطلعها :

تبكي الأزهارْ
تتناثر أوراق الأشجارْ
ويجيء خريف همجي دامي الأظفارْ
فيمرّ على خد الأشياء
ويمزق أجنحة الأطيار
ويحطم أوكار الأشعارْ
لكني يا شعبي البكّاءْ
يا شعبي الضارب في الأقطارْ
يا شعبي المنفيّ من الدارْ
أترقب في ليل الأذعانْ
عودة رمضانْ
بربيع يصنعه الإيمانْ
تحمله أعلام الفرسانْ

---

(١) أنت الرياض ص.ص. ١٨-٢٣

(٢) أنت الرياض ص.ص. ١١٠-١١٥ انظر مايلي ص ٢٨٣

(٣) أنت الرياض ص.ص. ٩٨-١٠١

(٤) أنت الرياض ص.ص. ١٢-١٧

(٥) أنت الرياض ص.ص. ٣٠-٣٥

(٦) انظر مايلي ص . ٢٨١

ولقد نشرت المقطع الأخير من القصيدة في الديوان بعنوان «عودة رمضان[1]».

والحب لا يزال الموضوع الرئيسي لعدد من القصائد في **أنت الرياض** ولكنه لم يعد الحب بمعناه «العاطفي» القديم. الحب ليس صبوة متأججة متّقدة ولكنه حالة من الصفاء والروحانية. الحبيبة ليست أحلى النساء ، ولكنها تلك الإنسانة التي تتعايش معها دون قناع أو خداع. وهي تلك الإنسانة التي تذكرك دائماً بواجبك نحو الناس ونحو القيم والمثل. هذا المفهوم أكثر نضجاً من مفهوم الحب في الدواوين السابقة. وهو على أي حال مفهوم ما كان لمراهق ، أي مراهق ، أن يدركه وما كان لشاب في فورة الصبا أن يتفهم أبعاده.

بعد **أنت الرياض** نشرت ديواناً باللغة الإنجليزية اسمه من الشرق والصحراء FROM THE ORIENT AND THE DESERT [2] يحتوي على خمسة عشر قصيدة اخترتها من الدواوين الأربعة. ولهذا الديوان قصة طريفة. عندما كنت في ندوة هارفرد الدولية ، التي سبقت الإشارة إليها أقيمت أمسية شعرية ساهم فيها الشعراء من أعضاء الندوة ، وكانت الفكرة أن يلقي كل شاعر قصائده بلغته الأصلية ثم يلقي ترجمة إنجليزية لها. وقد اخترت لهذه المناسبة ثلاث قصائد ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية بمساعدة أحد الزملاء الذين حضروا الندوة وهو شاعر يكتب بالإنجليزية. لقيت القصائد الكثير من الاستحسان وقد اقترح عليّ بعض الذين حضروا الندوة أن أطبع مجموعة بالإنجليزية ولكنني لم أعر الفكرة أي اهتمام. بعدها بحوالي سنة قام الصديق سليمان السليم بترجمة قصيدة «في شرقنا[3]» إلى الإنجليزية ونشرها في مجلة الكلية التي كان يحضّر فيها للدكتوراه في الولايات المتحدة. وقد أخبرني أن ردود الفعل كانت ممتازة ، الأمر الذي أثار فكرة طبع مجموعة كاملة مرة أخرى. بعدها سمعت الاقتراح عدة مرات من عدد من معارفي الذين يتحدثون الإنجليزية. غير أن الفكرة لم تختمر إلا عندما أصرّ أحد الأصدقاء -وهو فنان بريطاني معروف- أن أقوم بنشر الديوان ويتولى هو تزيينه بالرسوم. وهذا كان. لقد طبعت من الديوان طبعتان ويفكر الناشر الآن أن يصدر طبعة ثالثة. كما أنه متحمس لطبع ديوان آخر أرجو أن تسمح لي الظروف باعداده. لقد كانت الفكرة من طبع الديوان هو ايصال صوت عربي شعري معاصر إلى قراء الإنجليزية وأعتقد أنني بفضل الله نجحت في تحقيق جزء من الهدف.

---

(١) **أنت الرياض** ص.ص. ١٠٨-١٠٩.

(٢) ORIEL PRESS LTD. LONDON 1977

(٣) انظر ص ٢٧٣ .

الفصل الثامن

الحمّى

يا أعز النساء ! أين مضى الطفل ..

وأين ابتسامةُ المعسولُ ؟

أين ولت براءتي ؟ أين طهري ؟

أين غاب الفتى العفيف الخجولُ ؟

كبر الطفل .. شيبته لياليه ..

وعرته من صباه الفصولُ

قبضة الأربعين تهصر روحي

فأحاسيسي العذارى كهولُ

لم تعد ثمَّ شعلةٌ من حماسٍ

سُكِب الزيت .. واستراح الفتيلُ(١)

(١) «يا أعز النساء» الحمى تهامة . جدة الطبعة الثانية ص.ص. ١٨٣-١٨٢. جميع الاشارات إلى ديوان الحمى من الطبعة الثانية .

كتبت معظم قصائد الحمّى بين سني السادسة والثلاثين والحادية والأربعين. هناك محوران رئيسيان تدور حولهما قصائد الديوان وعدة محاور فرعية. أما المحور الأول فهو الانتقال من مرحلة الشباب إلى مرحلة الكهولة ، منتصف العمر كما يقول التعبير الإنجليزي ، بكل ما يواكب هذا الانتقال من مشاعر حزينة معقدة حادة. هذا الانتقال يحمل معه غالباً ، الشعور باختفاء مشاعر الطهر والمثالية والبراءة التي تقترن في أذهاننا ، عادة، بفترات الطفولة والصبا وربما مطالع الشباب. أما المحور الثاني فهو الهزيمة العربيةالكبرى التي بدأت بالزيارة المشؤومة إلى القدس المحتلة وانتهت بالصلح الأسود بين إسرائيل ومصر الغالية. أقول إنها الهزيمة الكبرى لأن كل هزائم العرب السابقة ، حتى كارثة حزيران كانت بالمقارنة هزائم صغرى. بعد ذلك هناك محاور صغيرة عديدة ، مشاعر الأبوة ، تجربة العناء في عمل مرهق ، تطور المجتمع بسرعة مذهلة ، ومشاعر الحب (وإن كنت أعتقد أن حصيلة هذا الديوان من قصائد الحب تقل عن أي ديوان آخر من دواويني). والآن إلى المزيد من التفاصيل.

يزعم علماءالنفس ، أو بعضهم على أية حال ، أن لكل فترة من عمر الانسان ملامحها وبصماتها ومشاكلها وهمومها. يزعم هؤلاء أننا نستطيع أن نتبين في كل مرحلة شخصاً يختلف قليلاً أو كثيراً عن شخص المرحلة السابقة وشخص المرحلة التالية- ما بين العشرين والثلاثين نجد شخصاً مشغولاً بانهاء دراسته وبدء حياته العملية وتأسيس بيت الزوجية على نحو لا يترك مجالاً لأية اهتمامات أخرى. بين الثلاثين والأربعين نجد شخصاً منهمكاً في ذلك الصراع الأعمى المحموم الذي يغذيه الطموح للوصول إلى القمة- سواء كانت القمة وظيفة عالية في المؤسسة التي يعمل فيها أو نجاحاً مادياً في عمل تجاري أو تفوقاً في مجال فني أو شهرة في مجال أدبي أو عملي. ما بين الأربعين والخمسين نجد شخصاً وصل إلى ما أراد وبدأ يتساءل عما إذا كان الثمن الذي أنفقه يتساوى مع النجاح الذي حققه ، شخصاً يشعر أن شبابه قد ضاع سدى ويحاول أن يتشبث بآخر دقيقة من الشباب العابر. بعد الخمسين نجد شخصاً أهدأ واسعد ، شخصاً يقبل نفسه على علاتها ، ينظر إلى ماضيه بشيء من التسامح والغفران ويتطلع إلى مستقبله بقدر من السلام والطمأنينة.

سواء صح هذا التحليل أو لم يصح ، وهناك تفريعات مختلفة عنه قليلاً أو كثيراً ، فقد وجدت نفسي في نهاية الثلاثينات ضحية شعور ملحّ بتسرّب الشباب ، بكل ما يتضمنه هذا الشعور من حسرة على الماضي وخوف من المستقبل. بل أنني بدأت فجأة أتذوق أشعار البكاء

على الشباب في تراثنا الشعري، وقد كان ابن الرومي في رأيي، أعظم من بكى على الشباب. كما وجدت نفسي فجأة أكتب عن هذه التجربة الأربعينية- حتى قبل الوصول إلى الأربعين- المّرة تلو المّرة، حتى غدا الأمر موضع تعليق دائم لا من الأصدقاء الخُلّص فحسب بل من القراء الذين لا يعرفونني ولا أعرفهم.

هذه التجربة الأربعينية - أو «قصائد في الأربعين» إذا استعرنا اسم ديوان الشاعر يوسف الخال - تنتشر في كل مكان من الحمّى بشكل مباشر واضح حيناً وبأشكال غير مباشرة أحياناً أخرى. تتضح مباشرة في قصائد «أمام الأربعين[1]» و «نحن كنا الشعر[2]» و«المومياء(٣)» و «الإفلاس[4]». وتتضح بصورة مبطنة أو رمزية في عدد من القصائد الأخرى: «هناك[5]» و «أمة الدهر[6]» و «يا أعز النساء[7]» - ولنا عودة إلى هذه القصيدة الأخيرة بعد قليل. لكل قصيدة من هذه القصائد مضمونها الخاص وتجربتها المتميزة - إلا أنها في النهاية تحمل شيئاً واحداً مشتركاً: توديع مرحلة واستقبال مرحلة. كل هذه القصائد تحن إلى براءة اختفت، وإلى طهر تلاشى. وكل هذه القصائد مثقلة بمشاعر من الحزن تخفت حيناً وتنفجر عالية حيناً آخر.

بل أن هذا الحزن «الأربعيني» يتغلغل على نحو لم أشعر به عند الكتابة، وإن كنت أشعر به الآن بعد سنوات من كتابة القصائد، في شعر الحب الذي تضمنه الديوان. قصيدة «وتعطين كالبحر[8]» على سبيل المثال تتحدث عن «جمع النوارس تدفع هذا الشراع العتيق» وقصيدة «حسبي وحسبك[9]» تقول:

يا زهـرةً بطيـوب الصبح عابقةً

إني أتيت وريـــح الليل في كبدي

وقصيدة «قفي[10]» تقول:

وأعجـــب كيف يغريني طريقي

وموتـــي فيه أقرب من نـجاحي

ولن أستغرب لو وجد باحث في كل قصيدة من قصائد الديوان ظلاً أربعينياً لم يخطر

---

(١) الحمىَ ص.ص. ١٦٣-١٦٦.
(٢) الحمىَ ص.ص. ١٨٩-١٩٢.
(٣) الحمىَ ص.ص. ١٩٥-٢٠١.
(٤) الحمىَ ص.ص. ١٥٣-١٦٠.
(٥) الحمىَ ص.ص. ١٤٥-١٥٠.
(٦) الحمىَ ص.ص. ٦١-٦٦.
(٧) انظر ما يلي ص. ٢٨٩.
(٨) الحمىَ ص.ص. ١٦٩-١٧٤.
(٩) الحمىَ ص.ص. ٧٥-٧٧.
(١٠) الحمىَ ص.ص. ١٠٩-١١٢.

ببالي الواعي يوم أن كانت القصيدة تختمر ثم تظهر إلى الوجود.

أما محور الديوان الثاني فهو الهزيمة العربية الكبرى. لقد كنت باعتباري من دارسي العلوم السياسية ، أدرك أن الهزيمة الحقيقية ليست في فقد الضحايا ولا في خسارة المعارك ولا في ضياع الأرض ، على فداحة هذا كله ، ولكنها في قهر الإرادة السياسية للخصم وإجباره على الخضوع للإرادة السياسية المعادية. ومن هنا كنت أعتقد أن اسرائيل لم تتمكن من تحويل انتصاراتها العسكرية المتوالية في ١٩٤٨ وفي ١٩٥٦ وفي ١٩٦٧ إلى انتصارات سياسية مماثلة لأن الإرادة السياسية العربية ظلت تقول «لا» مهما كانت هذه «اللا» ضعيفة وعارية من المقاومة العسكرية الفعالة. إلا أن إسرائيل حققت الانتصار الذي ظلت تخطط له منذ وجودها ، وربما قبل وجودها ، عندما «حج» إليها رئيس أكبر دولة عربية الدولة التي كانت حتى تلك اللحظة ، تمثل قلعة الصمود العربي في رحلة للسلام كان من الواضح لكل ذي عينين أنها لن تنتهي إلا باستسلام للإرادة السياسية الأقوى وهذا ما كان.

كنت ليلة الزيارة / المأساة أرقب التفاصيل على الشاشة الصغيرة وأنا أبكي بحرقة. لا أذكر أني بكيت منذ وفاة سيدي الوالد رحمه الله ، كما بكيت ليلتها. والبكاء بطبيعة الحال ليس موقفاً بطولياً ولكنه في رأيي ، أشرف بكثير من مواقف اللامبالاة وأنبل بمراحل من مواقف التهليل والتصفيق للهزيمة النكراء التي جاءت تدعى أنها أنتصار مبين. لم أصدق لحظة واحدة ما قيل وقتها عن «المكاسب الإعلامية» وعن «مجابهة إسرائيل في عقر دارها» وعن «الدفاع عن المطالب العربية المشروعة» كنت أرى بحدس يشبه اليقين أن النتيجة ستكون سلاماً منفرداً تتبعه حالة من التمزق العربي تعنى في غياب معجزة يصعب حصولها ، هيمنة إسرائيلية فعلية على العالم العربي بأكمله. إلا انه مع البكاء كانت قصيدة جديدة تولد - ومع انتهاء البرنامج التيلفزيوني كانت القصيدة قد انتهت.

هذه القصيدة «لا تهيء كفنى[1]» رغم خطابيتها ومباشرتها وتقريريتها تظل من أقرب قصائدي إلى نفسي. ربما لأنها تمكنت أن ترى قبل أن يحلل المحللون ويبحث الباحثون نتائج الزيارة. وربما لأنها عبرت عن مشاعر الكثيرين - فقد شاعت وذاعت فور نشرها - وأعيد نشرها مرات ومرات. وربما لأنها أثبتت لي على الأقل أن شعاع الأمل يمكن أن ينبثق من ظلمات الهزيمة.

الخطاب في القصيدة كلها موجه إلى «بطل» الزيارة :

---

(١) الحمى ص.ص. ١٠١-١٠٥ .

لا تـهـيّء كـفـنـي .. مـا متّ بـعـدُ

لم يـزل في أضـلـعـي بـرق ورعـدُ

أنـا إسـلامـي .. أنـا عـزّتـه

أنا خيـل الله نحو النصر تعدو

أنـا تـاريـخي .. ألا تـعـرفـه ؟!

خـالـدٌ يـنـبض في روحـي وسـعـدُ

وتنتهي :

قـل لمن طار بـه الـوهـم .. اتـئدْ(١)

لـيس لـلـظـامـيء في الأوهـام وِرْدُ

أيّ سـلـم تـرتـجـي مـن رجـل

يـده بـالخنـجـر الـدامـي تمـدُّ ؟

أي سـلـم تـرتجـي مـن رجـل

ضـجّ في أعـمـاقـه الحقـد الألـدُّ ؟

«ديـر يـاسـين» عـلـى راحـتـه

لـعـنـةٌ تـتـبـعـه أيّـان يـغـدو

سـتـرى إذ تـنـجـلي عنك الـرؤى

انـه لـلـحـرب لا الـسـلـم يُـعـدُّ

أن مـا ضـيـع فـي سـاح الـوغـى

في سـوى سـاحـتـهـا لا يُـستـرَدُّ

كانت هذه القصيدة الأولى عن الكارثة ، ولكنها لم تكن الأخيرة. هناك قصيدة «رويدك[٢]» وقصيدة «أمتي(٣)» التي كتبتها على أثر توقيع السلام المنفرد. وقصيدة «بيروت[٤]» وكان هناك عدد آخر من القصائد كتبت بقدر من الانفعال والحدّة لم يجعل بالإمكان أن تنشر.

هذان المحوران ، الأزمة الشخصية «الأربعينية» والأزمة العربية القومية يلتقيان ويتداخلان ويمتزجان في قصيدة «يا أعز النساء[٥]» ولو سألني سائل عن قصيدة واحدة

(١) من الغريب أن كل ما تكشف من تقارير عن الزيارة فيما بعد سواء من مصادر عربية أو إسرائيلية ، كان يشير إلى أن «بطل» الزيارة كان ، بالفعل ،يعيش في عالم من الاوهام ليس له أي علاقة بحقائق الموقف .

(٢) الحمىَ ص.ص. ١٣٩-١٤١ .

(٣) الحمىَ ص.ص. ٥٣-٥٨ .

(٤) الحمىَ ص.ص. ٣٣-٣٨ .

(٥) انظ ماسيلي ص .٢٨٩ .

تختصر روح الحمىّ لما ترددت في اختيار هذه القصيدة. لقد قال لي أكثر من صديق إن هذه القصيدة هي أحسن ما كتبت على الاطلاق. وأنا عادة ، لا أجادل حول حكم شخصي كهذا وإن كنت أعترف هنا أنها من القصائد القليلة التي ظلت لصيقة بقلبي حتى بعد انتهت لذة الجدة. ولكل جديد لذة كما يقول شاعرنا القديم.

نعود بعد ذلك إلى المحاور الصغيرة المتعددة - اثر تعييني وزيراً للصناعة والكهرباء اندفعت بفورة وحماس لاهب في المهمات الجديدة. كانت المملكة على أعتاب خطة خمسية ثانية استهدفت إقامة بنية أساسية كاملة وقاعدة صناعية عريضة. كان الهدف وقتها يبدو مستحيلاً - أو شبه مستحيل لدى المتفائلين.

وتخرّص المخرصون أيامها وشكّك المشككون. على أن أولئك الذين كانوا في وطيس المعركة التنموية لم يطف ببالهم أي شك ولم يخالج أذهانهم أي تردد. ولقد كان من قدري أن كون في تلك المعركة مسؤولاً عن قطاعين من أهم قطاعات التنمية.

على أن المجال هنا ليس مجال الحديث عن التنمية[1] ، ولا عن ما قام به الشخص الذي كلف بأعباء الصناعة والكهرباء خلال تلك الفترة. حديثنا هنا يقتصر على الشاعر. ولقد وجد شاعرنا نفسه خلال السنتين الأولتين من الوزارة يعيش نشوة لا تكاد تعادلها نشوة: نشوة التحدي ، نشوة الإنجاز ، نشوة الرحلات الرسمية ، نشوة المؤتمرات الصحفية ، نشوة الخطب. ولعله من الطبيعي في بداية كل عمل مثير كالوزارة ، أن تكون الأيام الأولى مليئة بهذا الشعور السحري. كان صاحبنا يبدأ يومه العملي في الثامنة ولا ينهيه إلا قبيل منتصف الليل - ويتمنى لو وجدت ساعات أكثر للعمل. إلا أنه مع مرور الأيام ، ثم الأعوام ، بدأ صاحبنا يتساءل عن جدوى هذا الارهاق كله. بدأ ينظر إلى المشاكل التي سببها العمل في علاقاته مع الكثيرين ، بدأ يراجع ثمن الإنجاز. تأثيره على الصحة وعلى الحياة العائلية (كانت تمر به أحياناً عدة أيام دون أن يرى أولاده). ظل الجهد كما كان ، ولكنه أصبح جهداً يثيره الواجب بدلاً من أن تحفزه النشوة.

هذا الشعور بالإرهاق ، وهو شعور متناقض لأنه يحمل في ثناياه الحب ونقيضه ، ينعكس في عدد من القصائد. هناك على سبيل المثال قصيدة «فيم العناء[2]» وقد كتبتها في الطائرة عائداً من مهمة رسمية شاقة متوجهاً إلى أخرى أشق منها. خيّل إليّ وقتها أن حياتي بأكملها أصبحت مهمة رسمية :

(١) بإمكان القراء المهتمين بالتنمية الرجوع إلى غازي عبدالرحمن القصيبي التنمية وجهاً لوجه تهامة -جدة ١٤٠١هـ-١٩٨٠م الطبعة الأولى.
(٢) الحمىّ ص.ص. ٩٣-٩٧ .

وكل الوجوه

تطاردني عند كل وداع

تلاحقني عند كل لقاءْ

سواءْ

ففيم العناءْ ؟

ففيم العناءْ ؟

وفي قصيدة «بسمة من سهيل(١)» هناك تساؤل عن جدوى الصراع الدائب :

وعدت يا سلمى

ممزقاً بعد العناء الشديدْ

لن أدرك الحلما

ففيم أمضي في صراعي العنيدْ ؟

حتى النجاح بالمقاييس المعتادة ، وما يصاحبه من شهرة ونفوذ وجاه ومال يتحول إلى علامة استفهام كبرى كما جاء في قصيدة «أمام الأربعين» :

«نجحت» يقول بعض القوم عنيّ

وغدت تَخبّ بالفوز المبين

«وأعطتك الحياة .. فمن شمال

سقتك كؤوسها .. ومن اليمين»

وأعجب ما النجاح .. عذاب روحي ؟

وعربدة السهاد على جفوني ؟(٢)

هناك محور صغير ثان هو قصائد الأبوة. هناك قصيدة عن ابنتي يارا ، وقصيدة عن ابني سهيل ، وقصيدة عن ابني فارس ، إلا أن القصائد الثلاث ترتبط بتجارب أخرى غير تجربة الأبوة والبنوة. في قصيدة «يارا والرحيل[٣]» يتحول حب الابنة إلى رغبة في العمل الجاد للمساعدة في بناء مستقبل أجمل لها ولزميلاتها :

أبوك .. في المكتب لما يزلْ

يهفو إلى الطيب والأطيب

يصنع حلماً خير أحلامه

---

(١) الحمى ص.ص. ٢٧-٣٠ .

(٢) الحمى ص.ص. ١٦٥ .

(٣) الحمى ص.ص. ٨١-٨٤ .

أن يسعد الأطفال في الملعب
من أجل يارا .. ورفيقاتها
أولع بالشغل .. فلا تغضبي

وفي قصيدة «**بسمة من سهيل**» شعور بضرورة التشبث بالمثالية:

وذاك ـ لو يدري ! ـ
لبسمةٍ ساحرةٍ من سهيل (١)

أما قصيدتي عن فارس «يا أهلاً بك» فقد كتبت أثناء الزيارة المشؤومة وقد خيل لي وقتها انه لم يبق ثمة أمل إلا في الأطفال :

يا أهلا بك في زمن الأفّاقين
الكذابين المرتدّينْ
من بصقوا في جرح فلسطينْ
من ساقوا لفراش هولاكو
كل بنات صلاح الدين
ورموا حطيّنْ
للبيع بسوق النخاسينْ
يا أهلاً بك في زمن الجوع إلى الأبطالْ
في زمن الكافر والدجّالْ
في زمن لم يبق نقى فيه
غير الأطفال(٢)

وهناك محور الحب. والحب الذي تتحدث عنه قصائد **الحمىَ** في الغالب الأعم ، حب رفيق رقيق تخلص من حرمان المراهقة ومن عنف الصبا. الحب هنا دائماً مصدر رقة وحنان «يبعثرني الشوق حين تغيبين فوق الجبال وتحت البحار[٣]» بدون الحبيبة يصعب على الشاعر مواجهة الحياة :

قفي - لا تحرميني والليالي
نصال في ضلوعي-من سلاحي(٤)

وهي تعطي كالبحر[٥] وتستطيع بحبها أن تحقق ما يشبه المعجزة: أن تعيد الطفل القديم :

---

(١) الحمى ص.ص ٣٠ . (٢) الحمىَ ص.ص. ١٢٢-١٣٠ . (٣) الحمىَ ص.ص. ٢١ .
(٤) الحمى ص.ص. ١١٠ . (٥) الحمىَ ص.ص. ١٦٩ .

أحـرقـي روحـي بـالشـوق فـقـد
يـنجلي الثلج الذي يغزو صميمي
طـهّـرى قـلـبـي بـالـحب فـقـد
يـولـد الـطـفـل المسجّى في هشيمي (١)

ثمة كلمة عن قصيدة «الحمىّ» التي سميّت الديوان بإسمها (وهي من بحر الرجز الذي قل استعماله هذه الأيام في الشعر التقليدي بقدر ما زاد في الشعر الحديث !) لقد كانت معركة التنمية الشاملة التي خاضتها المملكة تجربة إيجابية حققت نتائج مذهلة تكاد تكون خرافية، إلا أنها كأي عمل بشري لم تخل من سلبيات. ولعل أول السلبيات النزعة المادية الشرهة التي لا يشبعها شيء. لقد تحدثت في محاضرة عن التنمية عن هذه الظاهرة:

إنني ألاحظ وأرجو أن أكون مخطئاً ، أننا نوشك أن نتحول شيئاً فشيئاً إلى مجتمع من أفراد متوترين نفسياً نسوا طعم القناعة وطعم الرضا ، وبالتالي طعم السعادة. لا أكاد أرى أحداً خارج المكتب أو داخله إلا وهو يعاني شعوراً حاداً بالكآبه. ولا أكاد استمع إلا إلى المطالبة اللحوح أو الانتقاد اللاذع أو التذمر المرير. لقد فقدت الأشياء التي كنا نستمد منها شعورنا بالسعادة معانيها وتحولت إلى مشاكل .. تلك اللمسات الانسانية التي كانت ملمحاً أصيلاً جميلاً من ملامح حياتنا بدأت تتلاشى الواحدة بعد الأخرى وقرانا تتحول إلى مدن ومدننا تتحول إلى أحراش من الحديد والأسمنت[٢].

هذه هي الظاهرة التي تتحدث عنها قصيدة الحمىّ. القصيدة بلسان المتكلم وتعبر عن معاناة شخصية إلا أنه يمكن في بعض مقاطعها أن نتصور الحديث صادراً من مجتمع يحن ، ببعض قلبه على الأقل إلى ماض أكثر بساطة :

هـل تـذكـريـن الآن ؟ ذكـريـنـي
بـراءتـي في سـالـف الـقـرون(٣)

ويشكو النهم الجديد الذي لا يرويه شيء :

يمنحـنـي الـمـال .. ولا يـغـنـيـنـي
يسكب لى الماء .. ولا يـرويـنـي(٤)

تنتمي قصائد الديوان شأن الدواوين السابقة الى الشكلين التقليدي والحديث مع

(١) الحمى ص.ص. ١٩٢ .
(٢) «أوهام واضغاث أحلام في ملحمة التنمية» التنمية وجهاً لوجه مرجع سابق ص.ص. ١١٤-١١٥ .
(٣) -(٤) الحمىَ ص.ص. ١٦. انظر مايلي ص ٢٨٦ .

تفوق عددي بسيط في صالح الأول. هناك قصيدة واحدة هي «المومياء» متحررة من القوافي تماماً. وكما كان الشأن في القصائد المماثلة في الماضي وجدت أن هذا الشكل يحقق قدراً أكبر من الحرية في استقصاء التجربة غير أنه يحرم القصيدة جزءاً لا يستهان به من موسيقيتها. ولعل هذا الشكل أصلح ما يكون لتصوير التداعي النفسي المتلاحق الذي ينتقل من فكرة إلى أخرى بسرعة لا تتيح للقوافي متابعتها. كما أنني جربت في هذا الديوان تجربة الترجمة شعراً فهناك قصيدة لبيرون[١] وهناك مقطوعات شعر يابانية مترجمة عن الإنجليزية[٢] وقد أعود إلى هذا اللون مستقبلاً إذا عثرت على قصائد تقبل الترجمة شعراً. بعد خبرة لا بأس بها في هذا المجال وجدت أن الندرة النادرة من القصائد هي التي تقبل الترجمة شعراً إلى لغة أخرى دون أن تفقد أهم أسرار روعتها.

بقيت كلمة عن وسيلة إيصال الشعر إلى الجمهور. لقد نشرت مؤسسة تهامة ديوان **الحمى** عبر طبعتين متلاحقتين. بيعت من الطبعة الأولى قرابة خمسة آلاف نسخة. ولما نفدت الطبعة الأولى اقترح عليَّ الصديق الأستاذ محمد سعيد طيب العضو المنتدب في مؤسسة تهامة ، أو لعلني اقترحت عليه ، أن تحتوي الطبعة الثانية على شريط «كاسيت» يحتوي على قصائد مسجلة بصوتي. وهذا ما كان. وبيع من الطبعة الثانية ثلاثة أضعاف ما بيع من الطبعة الأولى. لا بد والحالة هذه أن يكون «للكاسيت» دخلٌ في زيادة المبيعات. ولعل هذا النجاح هو الذي دعا الأستاذ محمد سعيد طيب إلى اقتراح «طبعة ثالثة» تسجّل باكملها على شريط «فيديو» إلا أنني طلبت مهلة للتفكير. ولا أزال أفكر (من يريد أن يشاهدني ألقي قصائد ديوان كامل ؟!). على أنه بصرف النظر عن تجربتي الشخصية فلقد بدأت أقتنع أن على الشعر أن يتسلل إلى قلب هذا العصر عن طريق المسجّل والفيديو بدلاً من أن يظل رهين الدواوين. لا بل أنني أوشك أن أذهب أبعد من ذلك فأقول إنني أرى أن مستقبل الشعر متوقف على نجاحه في الإفلات من دفّتى الديوان وتغلغله إلى داخل الفيديو الذي يقبع في منزلك.

---

(١) **الحمى** ص.ص. ١٢٧-١٢٨ .

(٢) **الحمى** ص.ص. ١١٥-١١٨ .

الفصل التاسع

العودة إلى الاماكن القديمة

سمراء! هل يرجع الماضي..اذا رجعت

رؤاه .. تخطر بين القلب والهدبِ ؟

وهل يعود إذا عدنا له زمنٌ

من البراءة .. منقوشٌ على الحقبِ ؟

وهل أعود صبيّاً كله خجل؟

وهل تعودين بنتاً حلوة الشغب؟

وهل تعود مكاتيبٌ بلا أملٍ ؟

تجرنا لمواعيدٍ بلا ارب ؟(١)

(١) «أغنية حب للبحرين» العودة إلى الأماكن القديمة - دار الصقر للنشر البحرين - الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م ص.ص. ١٣٨-١٤٥ .

يكاد ديوان **العودة إلى الأماكن القديمة** أن يكون جزءاً ثانياً من ديوان **الحمى**. بل انني لا أعرف أي ديوانين من دواويني يتشابهان كما يتشابه هذان الديوانان. لقد كتبت معظم قصائد الديوان باستثناء أربع قصائد تعود إلى مرحلة سابقة ، ما بين سنيّ الثانية والأربعين والخامسة والأربعين. وكما كان الشأن في **الحمى** فان المحورين الرئيسين هما الأزمة النفسية المتصلة بالعبور إلى الكهولة ، وأزمة التمزق العربي الذي تبع مأساة السلام المنفرد بالإضافة إلى محاور فرعية عديدة.

على أنني أتصوّر أن قصائد هذا الديوان تتحدث عن التجربتين بشكل أكثر حدة وإلحاحاً من قصائد **الحمى**. من ناحية لم تعد مفارقة الشباب مرحلة توشك أن تحين ، بل أصبحت مرحلة جاءت واستقرت. ومن هنا يبدو الحنين إلى الطفولة وإلى الأماكن القديمة أوضح وأعمق وأكثر تفصيلاً منه في أي ديوان.

بدأ يظهر على نحو لا يستطيع أشد المتفائلين أو أشد المكابرين إنكاره. وزاد الطين بلة الاقتتال العربي المخيف الذي ظهر في هذه المرحلة بعنف وضراوة لم يسبق لهما مثيل في التاريخ العربي المعاصر. وأنعكس هذا كله على القصائد الوطنية التي تضمنها الديوان.

يبدو الحنين العنيف إلى الماضي في عدد من قصائد الديوان ، ولعله لا يبدو بكل أبعاده وآماده كا يبدو في قصيدة «العودة إلى الأماكن القديمة[1]» لقد تصور البعض أني كتبت هذه القصيدة في البحرين على إثر عودتي للعمل سفيراً للمملكة فيها سنة ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م). إلا أنها في حقيقة الأمر كتبت قبل ذلك بسنتين عندما دعتني وزارة الاعلام البحرينية لإحياء أمسية شعرية في البحرين ، كانت الأولى في قرابة عقدين من الزمان. شعرت وقتها أن الماضي يعود اليّ بكل أوجاعه وأفراحه ، الأزقة ، الشخصيات التي تسكنها ، تجارب الحب البريء الأول ، أيام اللهو ، الصيد في البحر ، كل هذا عاد ليسكن أبيات القصيدة التي رأيت أن أعطي الديوان إسمها. والحنين إلى الماضي ينتظم عدداً من القصائد الأخرى «يارا والشعرات البيض(٢)» و «نفر .. فديتك ![3]» . «تباريج البئر القديمة[4]».

بل أن التجربة «الأربعينية» أدت إلى أن تتكرر كلمة «الأربعين» مع كل قصيدة من قصائد الحنين إلى الماضي في «يارا والشعرات البيض» :

يا دميتي حاصرتني الأربعون مُدىً

مجنونة .. وحراباً أدمت العُمرا !

---

(١) العودة إلى الأماكن القديمة ص ص ٥-١٥ وأنظر ما يلي ص ٢٩٣

(٢) العودة إلى الأماكن القديمة ص.ص

(٣) العودة إلى الأماكن القديمة ص.ص.٨٣-٨٨ .

(٤) العودة إلى الأماكن القديمة ص ٥ .

وفي قصيدة «العودة إلى الأماكن القديمة» :

عــدت كـــهـــلاً تجره الأربـــعـــونَ

وفي قصيدة «أغنية حب للبحرين» :

الأربـعـون غضـون خـطّـهـا قـلـمُ

من الشجون .. وتاريخ من النصب(١)

وفي قصيدة «الموت حباً» :

والأربـعـون عـويـلٌ مـــلء أوردتـــي

وفي شفـاهي .. يبكي الصيف واللبنا(٢)

وفي قصيدة «الموعد» :

وتسـاقـطت عـنـي السنون .. كأنني

في الأربـعين رجـعت طـفـلاً يـولدُ(٣)

من الواضح أنه إذا كانت التجربة «الأربعينية» قد بدأت مع **الحمىَ** فإنها قد وصلت أوجها ونضجها في **العودة إلى الأماكن القديمة**. ولعل هذا هو المكان الأنسب لأن أطمئن الأصدقاء والقراء الذين بدأوا يسأمون ذكر الأربعين أنه لم يعد الآن مجال للحديث عن الأربعين وقد تجاوزتها بسنوات.

كما أن الهموم العربية تشكل المحور الرئيسي الثاني في الديوان. في «بنت الرياض[٤]» التي كتبتها إبان احتفال جامعة الملك سعود (الرياض) بمرور ربع قرن على انشائها ، يكاد التمزق العربي أن يكون أهم ملامح القصيدة :

طـاف الـهـوان بـنـا كـأسا .. ونشـربها

ولا نـفـيـق ... وبـئـس الـذل صـهـبـاءَ

يـسـتـأسـد الـقـزم السـفـاح يـوسـعـنـا

ذبـحـاً .. ونـوسـعـه لـثـمـاً وإطـراءَ

من «ديـر ياسين» والـتـقـتـيـل حـرفـتـه

لم يبق طفلاً .. ولم يستبق عذراءَ

ونـحـن حـرفـتـنـا مـوت .. كـأن لـنـا

(١) العودة إلى الأماكن القديمة ص ١٤١ .

(٢) العودة إلى الأماكن القديمة ص.١٣٢ .

(٣) العودة إلى الأماكن القديمة ص ١٠٩ .

(٤) العودة إلى الأماكن القديمة ص .ص ٤٢-٤٩ .

عهداً مع الموت أن نرضاه أحياءَ(١)

«نهر من دم[٢] تصور المذابح العربية التي تواكب الاقتتال بشكل منفعل وحاد ومباشر. «مرثية الناي والريح[٣] ترثى بالإضافة إلى خليل حاوي الشاعر العربي المأساوي العظيم ، لبنان الجميل الذي ذهب مع الريح :

أو مـا طـالـعـتـه «نـهـر الـرمـادْ»

يـغـمـر الـقـمـر من حنين والسفح ..

بارتال الجرادْ ؟

فإذا جاء الحصادْ

لم نجد غير الدموعْ

أيها المفتون بالبيدر

في «البيدر جوع»

وجواسيس.. وغربان.. ورعب وحبائلْ(٤)

كما أن قصيدة «شعرنا موتنا[٥]» لم تكن رثاء للشاعر العربي العظيم أمل دنقل فحسب بل كانت بكاء على ذهاب الصمود العربي :

يا زمان الهمومْ !

كيف يحلو الغناءْ

وعلى الروض بومْ

ناعقٌ يا كليبُ !

لم تمت كالرجالْ

مُتَّ موت الإماءْ(٦)

وإذا كان شبح الواقع العربي المهلهل قد تسلل ، بعلمي أو دون أن أشعر ، إلى قصائد الرثاء فان شبح الأزمة الأربعينية قد تسلل بشكل واضح إلى قصائد الحب. بل أن هذه الأزمة تشكلّ في بعض القصائد التجربة الأساسية التي يبدو الحب بجانبها تجربة فرعية :

في «نفر .. فديتك !» تصبح الحبيبة المعبر إلى الماضي الجميل الذي ذهب :

وهــاتي من الرف سيارتينْ

(١) العودة إلى الأماكن القديمة ص.٤٨ .

(٢) العودة إلى الأماكن القديمة ص.ص . ٧٤-٧٩ .

(٣) العودة إلى الأماكن القديمة ص.٥٩-٦٤ .

(٤) العودة إلى الأماكن القديمة ص .ص ٦١-٦٢ .

(٥) العودة إلى الأماكن القديمة ص.ص ١٠٢-١٠٦.

(٦) العودة إلى الأماكن القديمة ص.ص ١٠٤-١٠٥ .

ستغلب سيارتي في السباق

بطرفة عيْن

وهاتي الدمى .. سوف

نختار من بينها طفلتيْن

ونبني من الرمل أرجوحتيْن

ونغرق .. نغرق في ضحكتيْن(١)

وفي «أغنية في ليل استوائي» هناك مفارقة واضحة بين صبا الحبيبة وكهولة الشاعر:

فيا لؤلؤتي السمراء ! ...

ما أعجب ما يأتي به القدرُ

أنا الأشياء تحتضرُ

وأنت المولدُ النضرُ(٢)

وفي «الموعد» تمثل الحبيبة الصبا الضائع نفسه :

ما الأربعون ؟ وما هموم خريفها ؟

إن السراب على الندى يتبددُ(٣)

بل إنه يمكن القول أنه ما من قصيدة حب في هذا الديوان لا يداخلها بشكل أو بآخر الحنين إلى الشباب أو الفزع من المشيب.

والحب هنا ، شأنه شأن الحب في الحمىَ ، رفيق رقيق. فهو يسحر ضمير القفار فيبلل أقدام الحبيبين بالعشب[٤]. والحبيبة تلوح «عبر ازدحام الفنادق خلف زجاج الحوانيت[٥]». وهي التي تضمد «هموم النهار وذلّ المساء وشوك القنافذ[٦]». إلا أنه بالإضافة إلى هذا الحب الذي كان، هناك تساؤل عن الحب الذي كان يمكن أن يكون :

ماذا سيكونْ

لو أني أسلمت العقل لجنيات

القلب المفتونْ

لو أني بعت الحاضر والماضي

ببريق عيونْ

---

(١) العودة إلى الأماكن القديمة ص.٣١ وانظر مايلي ص ٢٩٩ . (٢) العودة إلى الأماكن القديمة ص.٩٥ .
(٣) العودة إلى الأماكن القديمة ص.١٠٩. (٤) العودة إلى الأماكن القديمة ص .٢٩ .
(٥) العودة إلى الأماكن القديمة ص.٥٢. (٦) العودة إلى الأماكن القديمة ص.٧٢ .

لو أنك عانقت الحب دقائق

نلمس فيها قاع البركانْ

نعرف فيها

كيف يموت ويحيا الإنسان(١)؟

بالإضافة إلى حديث عن الحب الذي لا يمكن أن يكون :

يا صديقةْ !

أتريدين الحقيقة ؟

أنا لم أبصر هنا الأنثى ..

رأيت الشاعرةْ

أنت ما أحببتني ..

أحببت أنت الظاهرةْ(٢)

وأعتقد أننا نستطيع أن نتبين في هذا الديوان محوراً جديداً هو الألم. صحيح أن الألم باعتباره رفيق التجربة الإنسانية ، كان يتفجر في أكثر من قصيدة في أكثر من ديوان سابق. إلا أنه في هذا الديوان يكتسي طابعاً من الحدة والحرارة.ولعلّ بالإمكان أن نرجع الألم الجديد هذا إلى تجربتي القصيرة المثيرة وزيراً للصحة بين عامي ١٤٠٣ - ١٤٠٤هـ (١٩٨٣-١٩٨٤م). هذا العمل وضعني وجهاً لوجه أمام مشاهد من العذاب لا يراها الإنسان عادة إلا في الروايات السينمائية أو في القصص. لا يهمني هنا ماذا فعل وزير الصحة أو لم يفعل ، ما أنجز إن كان أنجز شيئاً ، أو لم ينجز. الذي يهمني أن الشاعر الذي يعيش تحت ثياب الوزير تعذب خلال تلك الفترة عذاباً نفسياً لم يعرف له مثيلاً من قبل.

كنت أزور المستشفيات بصفه شبه يومية ، وأعود في كل مرة محملاً بزاد من الدموع والآهات. ولعل أقسى مشهد كان مشهد الشباب المصابين بالشلل في حوادث السيارات. كثيراً ما كنت أخرج من العنبر قبل الطواف بجميع الأسرة حتى لا أبكي عليهم أمامهم. كما كانت زيارة المرضى في المستشفيات النفسية بدورها من التجارب القاسية المريرة التي كانت كثيراً ما تنتهي في ليلة من الأرق المتواصل حتى الصباح. لا شك أنه من الخطأ أن يسمح إنسان لمشاعره أن تتدخل في عمله على هذا النحو ، إلا أن ذلك كان أمراً ليس لي خيار فيه. وإذا نظرت الآن إلى تلك الفترة أمكنني القول ، دون أي مبالغة أنني لا أعرف في حياتي كلها فترة مملوءه بالمعاناه اليومية الحادة كتلك الفترة.

(١) العودة إلى الأماكن القديمة ص.ص. ٤٠-٤١ .

(٢) العودة إلى الأماكن القديمة ص.١١٨ .

دون أن أشعر وقتها ، تسللت تلك التجربة الحزينة إلى كل القصائد التي كتبتها في تلك الشهور ، حتى قصائد الفرحة بالحب. في قصيدة «أغنية في ليل استوائي» تطفو كلمة الأسقام مباشرة من العقل اللاواعي :

أتيتك ..

صحبتي الأوهام والأسقام

والآلام والخورْ

ورائي من سنين العمر ..

ما يعيا به العمرُ

قرون كل ثانية

بها التاريخ يختصرُ

وقدامي

صحارى الموت تنتظرُ(١)

وفي قصيدة «الموعد» :

ورجعت للدنيا أجرّ كآبتي

خلفي .. أقوم مع الجموع وأقعدُ

أخفيت عن كل العيون مواجعي

فأنا الشقيّ على السعادة أحسدُ

وأنا العليل أجس أدواء الورى

وأنا المرقط بالجراح .. أضمّدُ(٢)

ولا أعتقد أن هناك أية غموض يلف التجربة التي ولد منها البيت الأخير ، وفي «شاعرة» :

تتسلين بنقش الصفحات العاطرةْ

وأنا أسكن في يأس الجراح الغائرةْ

أنت لا تدرين ما الحزن ..

ولا عرس المعاناة ..

ولا حلم النفوس الصابرةْ

أنت لا تدرين ما الحبّ ..

ولا كيف يكون العشق ..

درب الآخرةْ(٣)

---

(١) العودة إلى الأماكن القديمة ص.٩٦ .

(٢) العودة إلى الأماكن القديمة ص.ص . ١١١ .

(٣) العودة إلى الأماكن القديمة ص. ١١٧-١١٨ .

وكما كان الشأن في الماضي ، فالشكلان القديم والحديث يتقاسمان بالقسطاس ، قصائد هذا الديوان . ويبدو أنني سأظل أكتب بعض قصائدي شعراً تقليدياً وبعضها شعراً حديثاً ما دمت أكتب. وكالعادة هناك قصيدة متحررة من القوافي تماماً «غريب !. غريب !. غريب[1]» (بالإضافة إلى قصيدة أخرى قصيرة كتبت في مرحلة سابقة[2]. وكالعادة انقسم القراء أو معظمهم إلى أولئك الذين يتذوقون الشعر التقليدي وينصحونني بالابتعاد عن «العبث» الجديد ، وأولئك الذين يتذوقون الشعر الجديد وينصحونني بالابتعاد عن «العبث» التقليدي.

في هذا الديوان لمحات كثيرة من البيئة السعودية. هناك قصيدتان في رثاء الملك خالد[3] رحمه الله ، وقد كان إنساناً قريباً إلى روحي شعرت يوم موته أنني فقدت أبي مرة ثانية. هناك قصيدة عن حائل[4] التي زرتها لأول مرة تلك الفترة. وهناك قصيدة تتغنى بانتصار «الجبيل» على تخرصات المشككين ومخاوف المتخوفين[5]. هناك قصيدة تستحق الوقوف لديها بعض الوقت: «تباريح البئر القديمة» (وقد كدت أسمى الديوان باسمها).

تتحدث القصيدة عن بئر مهجورة في الصحراء لم تعد تزورها القوافل ولا فرسان القوافل:

وأين رفاقي القدامى ..

رفاق الرَحل بين الأراك

وعبر الخزامى

وأين عباءة «راكان»

أين ابتسامة «مزنة»

أين اصطفاق الدلال .. وهمس الندامى ؟

وقد رأى ناقد كريم في القصيدة دعوة مرفوضة إلى «البداوة» إلا أن الناقد على ما يبدو لم يستطع أن ينفذ إلى ما وراء الألفاظ. التجربة هنا تجربة شخصية صرف من ناحية : نفس الشاعر بئر مهجورة تحن إلى عهدها القديم. كما أنها من ناحية أخرى تجربة المجتمع الذي يرى كثيراً من أشيائه القديمة تضيع في طوفان من أشياء جديدة. ليس للقصيدة في حقيقة الأمر علاقة ببداوة أو حضارة.

لقد قال لي بعض الأصـــدقاء، وبعض النقـاد، أنهم تبينوا في قصائد العودة إلى

(١) العودة إلى الأماكن القديمة ص.ص . ٦٨-٧٣ .

(٢) العودة إلى الأماكن القديمة (في الظلام) ص.ص ١٣٥-١٣٦ . (٣) العودة إلى الأماكن القديمة «واخالداه» ص.ص ٨٩-٩٢ .

(٤) العودة إلى الأماكن القديمة «حائلية» ص.ص ٩٩-١٠١. (٥) العودة إلى الأماكن القديمة «جبيل» ص.ص ١١٩-١١٢ .

الأماكن القديمة بداية مرحلة جديدة في شعري تختلف عن كل المراحل السابقة. والحق أقول إني حاولت جاهداً أن أتلمس ما يدعم هذا الرأي في قصائد الديوان فلم أستطع. على أية حال ، إذا كان الديوان يضم شعراً حقيقياً فهذا يكفي : ويستوي عندي أن يكون من «الصنف القديم» أو من «صنف جديد» والحكم في البداية والنهاية للقراء وحدهم.

الفصل العاشر
عن طبيعة الشعر

وترٌ في اللهاة ما للمغني
من يدٍ في صفائه أوليانه
شوقي

إنني أعتبر كوني شاعراً حقيقة من أهم حقائق وجودي كإنسان ، ولكنني لا أعتقد أن هذه الحقيقة تمثل كل معاني وجودي كإنسان. إنني كبقية البشر ظاهرة مركبة ذات جوانب متعددة وليس كوني شاعراً سوى جانب واحد منها. لقد قال لي الصديق الأديب الدكتور محمد جابر الأنصاري مرة إن «مشكلتي» أنني لا أعتبر الشعر حياتي كلها وأنني شاعر «هاو» أو «غير متفرغ» وقال لي إن الشاعر لكي يكون شاعراً عظيماً يجب أن يعتبر وجوده كله مسخراً لقضيته الأساسية وهي شعره. إنني بالتأكيد لا أنظر إلى الشعر نظرتي إلى هواية كجمع الطوابع أو التحف أو لعب الشطرنج ولكنني بالتأكيد أيضاً أرفض أن أختزل وأختصر وأصتّف في كلمة واحدة هي كلمة شاعر.

من هنا فإنني أعتقد أنني في نظرتي إلى الشعر أكثر موضوعية من الشعراء «المحترفين» الذين لا يتصورون لأنفسهم أي معنى خارج اطار الشعر. بل ربما كنت أكثر موضوعية من النقّاد المنقطعين لدراسة الشعر وتحليله. هؤلاء وأولئك بمنطق الأشياء يضفون أهمية مبالغاً فيها على الشعر وعلى مكانه في سنن الحياة ونواميس الوجود.

إن الشعر منظوراً إليه من زاوية معينة ، ظاهرة قديمة ثابتة عرفتها كل الشعوب المتمدنة والأمم المتحضرة عبر مراحل تاريخها المختلفة. والشعر يغني الروح البشرية شأنه شأن بقية الفنون الجميلة كالرسم أو الموسيقى. والشعر بالنسبة للشاعر رئه يتنفس من خلالها ، وبالنسبة للقراء عالم جميل من النشوة والظلال والألوان. هذا كله صحيح وباستطاعتنا أن نقيم عليه الأدلة والبراهين. ولكننا من ناحية أخرى لا نستطيع أن ننكر أن الغالبية الساحقة من بني البشر عاشت وماتت دون أن تسمع كلمة واحدة من الشعر.

ولا نستطيع أن ننكر أن أعظم شاعر أمريكي أو أوروبي أو عربي اليوم لا يستطيع أن يبيع من ديوانه سوى بضعة آلاف من النسخ. ولا نستطيع أن ننكر أننا أن نظرنا إلى المؤثرات الأساسية في التطور السياسي والفكري والاجتماعي اليوم وجدنا أن من المستحيل أن نعد الشعر أحد هذه المؤثرات ، سواء على مستوى البشرية ككل أو على مستوى عالمنا العربي.

إن الشعر اليوم أعجز من أن يشكل أثراً يذكر في تطور المجتمعات. وسبب هذا العجز لا يتعلق بطبيعة الشعر ولكنه يتعلق بطبيعة المجتمعات المعاصرة. مجتمعات اليوم تعرف الصحف والاذاعات والتلفزيون والسينما والفيديو ومباريات كرة القدم وتتجاوب معها على نحو لا يترك مجالا للشعر. ومن هنا فإن الشعراء الذين يحلمون بتغيير مجتمعاتهم عن طريق الشعر ، والنقاد الذين يحثونهم على ذلك يضربون في واد من المنى الجميلة البعيدة عن الواقع.

على أننا يجب ألا نخلط بين عجز الشاعر، كشاعر، عن التأثير في الظواهر الإجتماعية والسياسية، في ضوء الظروف الحالية ، وعن حقه الأكيد في أن يتعرض لها كما يتعرض لبقية ظواهر الحياة. المهم أن يدرك الشاعر أن الحديث عن قضية سياسية لا يعني بالضرورة إنتاج أثر سياسي فعّال يمسّ هذه القضية. إن الشاعر الذي يعتقد أنه بمجرد كتابة قصيدة عن فلسطين ساعد على تحرير فلسطين شاعريخادع نفسه. ليكتب الشعراء المعاصرون عن ما شاؤوا من قضايا ولكن يحسن بهم أن يتذكروا أن أشعارهم لن تغير في حد ذاتها من طبيعة هذه القضايا. هذه حقيقة معاصرة ولكن الأمور لم تكن دائماً على هذا النحو في الماضي ، وقد لا تكون على هذا النحو في المستقبل.

عندما يأتي اليوم الذي يحفظ فيه الأطفال أسماء الشعراء كما يحفظون أسماء لاعبي الكرة ، عندما يأتي اليوم الذي يبيع فيه شاعر ما ملايين النسخ من ديوانه ، عندما يأتي اليوم الذي نشاهد فيه الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية مكتوبة بالشعر ، نستطيع عندها أن نتحدث بثقة عن التأثير السياسي والإجتماعي للشعر.

وحتى يحين ذلك اليوم سيبقى الشعر وسيلة من وسائل المتعه الروحية والإثراء الذهني لا أكثر من ذلك ولا قل.

إنني أعجب من الذين لا يكتفون من الشعر بذلك. ألا يكفي أن أفتح ديوان المتنبي اليوم بعد ألف سنة من وفاته فأقرأ أشعاره وأشعر بنشوة روحية غامرة ؟ ألا يكفي أن يقرأ إنسان قصيدة كتبتها فيشعر بتعاطف قوي مع التجربة البشرية التي تختفي وراء القصيدة ؟ لماذا نصرّ على أن يكون الشعر مجرد وسيلة نحو غاية أكبر كائنة ما كانت هذه الغاية ؟ إن الذين يصرون على «دور» للشعر يسيئون إلى الشعر من حيث يعتقدون أنهم يحسنون. ليس للشعر دور منفصل عن وجوده كشعر ، الشعر غاية في حد ذاته. الشعر يحقق كل أهدافه لمجرد أنه شعر.

إن الشعر من حيث المبدأ ظاهرة محايدة - كالموسيقى. ليس هدف الشعر إعادة تكوين العالم وليس هدف الشعر إبقاء العالم كما هو. هناك شعراء كتبوا شعراً ثورياً وهناك شعراء آخرون تغنوا بالوضع القائم. هناك شعراء يمينيون وشعرا يساريون ، شعراء مناضلون وشعراء قاعدون، شعراء مخلصون وشعراء خائنون. أما الشعر في حد ذاته فلا يعرف اليمين ولا اليسار ولا يعترف بالشعارات السياسية : الشعر هو ذلك الكلام السحري الجميل. يتحدث الشعر عن الأطفال وعن الأبطال ، عن البشر وعن الحيوانات ، عن الانتصارات وعن الانهزامات ، ويبقى شعراً. ونحن نهين الشعر إذا تصورنا أنه «يرتقي» عندما يتحدث عن الأمور العظيمة و «ينحدر»

عندما يتحدث عن الأمور التافهة. لا يوجد في نطاق الشعر مواضيع عظيمة ومواضيع تافهة. يوجد شعر ولا شعر. لقد احتفظ تاريخنا الشعري بقصيدة كتبت في رثاء هرّ وأهمل قصائد قيلت في الوجهاء والأعيان.

إن كثيراً من الخلط المتعلق بالشعر ينبع، في رأيي، من النظر إليه بمنظار غير منظار الشعر ذاته. إذا نظرنا إلى الشعر بمنظار سياسي وقعنا في ورطة : لا بد لنا أن نستبعد من نطاق الشعر أشعاراً معينة لأنها لا تتمشى مع أهدافنا السياسية. وإذا نظرنا إلى الشعر بمنظار أخلاقي وقعنا في ورطة أخرى : لا بد لنا أن نستبعد من نطاق الشعر الأشعار التي تتعارض مع قيمنا الأخلاقية. وإذا نظرنا إلى الشعر بمنظار الفلسفة وقعنا في ورطة ثالثة وهلم جرا.

ومن هنا ندرك شطط الذين يطالبون الشعراء بأن يكونوا قادة الفكر والرأي وضمير البشرية الحيّ. إن الشعراء ليسوا أكثر ذكاء، ولا أكثر حكمة ولا أكثر أخلاقية ولا أحدّ بصراً ولا أرق أحساساً من غيرهم من البشر. كل ما يميز الشعراء عن سواهم هو أنهم يحملون في ضلوعهم تلك الكيمياء العجيبة التي تنتج شعراً. ولقد كان العرب في الجاهلية على علم أكيد بهذه الحقيقة. ولهذا فإنهم عندما جُوبهوا بمعجزة القرآن كان ردّهم عليها أن القرآن شعر وأن النبي صلى الله عليه وسلم شاعر. كان العرب يدركون أن الشاعر من حيث أنه شاعر لا يتطلع إلى ما وراء كتابة الكلام الجميل والمجد الذي يتبع كتابة هذا الكلام الجميل. وكان رد القرآن عليهم ردّ من يعرف موقفهم تمام المعرفة. أجابهم القرآن أن الشعراء «في كل واد يهيمون» وهم بالفعل يتحدثون عن تجارب مختلفة متباينة دون حرص على اضطراد منطقي ودون مبدأ ثابت أو منطلق واضح. والشعراء «يقولون مالا يفعلون» وهم بالفعل يتعبرون القول غاية تغني عن الفعل. وليس الأمر كذلك مع صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

كما أنني استغرب من الذين يتوقعون من الشعراء أن يلتزموا بمعايير سلوك تختلف عن المعايير التي يلتزم بها غيرهم من البشر. إننا لا نصاب بالدهشة عندما نرى الفرد العادي يصانع ويجامل ويغيّر رأيه حسب تغيّر الظروف والأحوال ، ولكننا نستغرب ونستنكر مثل هذا المسلك من الشعراء. لنأخذ المتنبي على سبيل المثال : لقد ألفت كتب لا تحصى تتهم المتنبي بالنفاق والتذبذب والطموح الأعمى والانتهازية ولا يزال الجدل حول أخلاقيات المتنبي قائماً على قدم وساق. ولو كان المتنبي إنساناً عادياً تنقّل من سلطان إلى سلطان وذم ومدح وغيّر رأيه أكثر من مرة لما وجدنا في سلوكه أية غرابة ولما تحمسنا هذا الحماس العجيب لانتقاد تصرفاته. إننا نتوقع أن يكون الشاعر «مختلفاً» عن الآخرين وحقيقة الأمر هي أن «أختلافه» لا يتجاوز قدرته

على قول الشعر أما فيما عدا ذلك فهو إنسان عادي معرّض لكل ما يتعرض له الإنسان العادي من نوازع الضعف البشري وتقلبات الطبيعة الترابية. المتنبي شاعر عبقري ولكنه لا يجب أن يكون المثل الأعلى لأحد في سلوكه الشخصي. وأبو نواس شاعر مبدع ولكنه أسوأ معلم يمكن أن نتصوره للأخلاق والفضيلة. وعمر بن أبي ربيعة شاعر رقيق ولكن قضاء العمر بأكمله في مطاردة النساء الجميلات لا يجب أن يكون هدفاً لأي إنسان عاقل.

إنني أضحك عندما أرى الأسئلة التي توجّه إلى بعض الشعراء في المقابلات الصحفية. وكثيراً ما تذكّرني هذه الأسئلة بالأسئلة الموجهة إلى ممثلات السينما ممن لا يعرفن القراءة أو الكتابة تستطلع آراءهن في ظواهر علمية واجتماعية وسياسية معقدة. إن البعض يتصور أن الشاعر لمجرد أنه شاعر قادر على أن يتحدث في كل موضوع وأن نظراته إلى القضايا العامة أكثر عمقاً ونضجاً من غيره. إنني أضحك عندما أرى هذه الأسئلة وأضحك أكثر عندما أرى هؤلاء الشعراء ينساقون مع هذا الوهم فيحاضرون القراء المساكين في كل شيء من التاريخ إلى غزو الفضاء إلى الاجتماع إلى العلوم السياسية وهم في كثير من الحالات يهرفون بما لا يعرفون.

إنني أعجب لشاعر أوتي موهبة الشعر ، وهي موهبة ثمينة نادرة ، يحاول أن يثبت أنه أوتي بجانبها قدراً لا يستهان به من النفوذ السياسي والاجتماعي. شاعر يزعم أن قصائده كانت مفاتيح الانقلابات والثورات. وشاعر يزعم أن قصائده أعادت رسم المجتمع. وثالث يزعم أن آراءه السياسية لو اتبعت لكانت كفيلة بتحقيق الانتصارات. إن مثل هذه الإدعاءات حتى ولو افترضنا صحتها ، لا تعني شيئاً في ميزان الشعر. إن أكثر الشعراء تأثيراً في الناس ليس بالضرورة أعظم الشعراء. قد نجد شعراً وسطاً يستطيع استثارة الجماهير وشعراً رائعاً لا يكاد يقرأه أحد.

أما أنا فأقول - مخلصاً - إنني لم أكن في أي لحظة من اللحظات مدفوعاً بأي هدف يتجاوز التعبير ، شعراً عما كنت أحسّه في تلك اللحظة. لم أكتب الشعر يوماً خدمة لخط سياسي معين ولم أكتبه هجوماً على خط سياسي معين. لم يكن هدفي من كتابة الشعر أن أغير نفسي أو أغير الآخرين. كان هدفي الوحيد أن أتحدث شعراً. لقد تركت أحداث الحياة المتعاقبة أثرها عليّ وعلى شعري كما رأينا في الصفحات الماضية. ولكنني لم أشعر في أي يوم من الأيام أنني أردت من كتابة الشعر تحقيق أي هدف يتجاوز الشعر ذاته. لقد قيل في الحُطيئة إنه عبد من عبيد الشعر ، وأنا بدوري تابع بسيط من أتباع الشعر ، أما سادة الشعر فوضعهم يختلف بطبيعة الحال.

إن هناك تواتراً يكاد يبلغ الاجماع لدى من كتبوا عن شعري في تصنيفي ضمن الشعراء

الرومانسيين. ولا أظنني بحاجة إلى أن أقول إن «الروماسية» ليست أكثر التعابير دقة أو تحديداً. يقصد بالرومانسية ، أحياناً ، تلك الأشعار التي كتبت في أوروبا مع أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وتستعمل «الرومانسية» أحياناً بمعنى انتقاصي لتشير إلى الأشعار «الذاتية» وإلى ما يسمى «الفن للفن» وتستعمل الرومانسية أحياناً بمعنى اصطلاحي للإشارة إلى أساليب وألفاظ واتجاهات تتكرر لدى مجموعة من الشعراء. كما تستعمل «الرومانسية» أحياناً بمعنى توفيقي لوصف الشعراء الذين يقفون في منتصف الطريق بين الكلاسيكيين والواقعيين. وكثيراً ما تستخدم الرومانسية لتعني هذا كله. إنني أترك مهمة تصنيفي للنقاد ولا اعتراض لدي على أن أصنف ضمن فئة معينة ولكنني أريد أن أقول إن (التصنيف) يريح الباحث ويسهل مهمة الطالب ولكنه لا يقودنا بالضرورة، إلى فهم أفضل للشاعر أو للشعر.

والتصنيفات تنقلب إلى خطر محقق على الشعر إذا اقترنت بحكم أخلاقي. إننا نسيء الى الشعر إذا أصررنا على ادخاله في أحد الأقفاص الثلاثة (الكلاسيكية) و(الرومانسية) و(الواقعية). غير أننا نجرم في حقه إذا اعتبرنا (الكلاسيكية) أفضل أو أسوأ من (الرومانسية) أو (الواقعية). إن كل شاعر حقيقي يجب أن يكون كلاسيكياً ورومانسياً وواقعياً في الوقت نفسه. يجب أن يكون كلاسيكياً فيتحدث بلسان قومه وبالأسلوب الذي يفهمونه وبالموسيقى التي تعودت عليها آذانهم وبالكلمات التي يحتويها تراثهم. ويجب أن يكون رومانسياً فيعايش تجاربه معايشة شخصية ذاتية مباشرة بحيث تمتزج التجارب بالذات وتصبح كلاً واحداً لا ينفصل. ويجب أن يكون واقعياً فيعيش مع البشر ويستنشق هموم البشر ويلامس مشاكل البشر.

من نظرتي إلى «دور الشعر» وإلى طبيعة الشعراء انطلقت عدة مواقف عملية محددة. نظراً لاقتناعي بأن الشعر غاية في حد ذاته وليس وسيلة نحو غاية أكبر رفضت أن أجنّد شعري لخدمة أي قضية من القضايا. لا أذكر أنني كتبت قصيدة ما لأن أحداً اقترح عليّ أن أكتبها أو لاعتقادي أن جمهوراً ما سيقابلها بالاستحسان. ولقد خاب أمل كثيرين أرادوا أن أكون متحدثاً شعرياً باسم قضاياهم وكثيراً ما اتهمت «بالذاتية» و«اللا التزام» و«العبث». إن هذه التهمة هي ثمن استقلالي الشعري، وهي لا تزعجني اليوم، ولم تزعجني في يوم من الأيام.

ونتيجة اقتناعي بأن الشعراء لا يتميزون عن غيرهم من البشر بشئ سوى قول الشعر فإنني لم أحرص، كما يفعل بعض الشعراء، على التعرف على أكبر عدد ممكن من «زملاء الحرفة». وأرجو ألا يفهم أحد أنني أنظر نظرة عداء أو شك أو ريبة إلى بقية الشعراء انطلاقاً من قاعدة «عدو المرء من عمل عمله» فهذا أمر لم يخطر لي ببال. كل ما أعنيه أنني لم أتعمد اصطناع

المناسبة للتعرف على شاعر ما. لقد جمعتني الظروف بعدد لا بأس به من الشعراء، ولكن هذه الظروف جاءت مصادفة ودون تخطيط. إن عدداً من أصدقائي يكتبون الشعر أو يتذوقونه. ولكن عدداً آخر من أقرب أصدقائي المخلصين ينفرون من الشعر. أذكر أنني في السنة التي صدر فيها **أشعار من جزائر اللؤلؤ** طلبت من زميليَّ في السكن, محمد إبراهيم كانو ومحمد صالح الشيخ عبدالله وهما صديقان حميمان أعرفهما منذ سن السادسة، أن يحفظا بيتاً واحداً من الديوان ولكنهما عجزا عن ذلك. إن الاعتقاد بأن هناك خيطاً خفياً يربط الشعراء أو صلة روحية تجمع بينهم هو اعتقاد لا يوجد في رأيي ما يبرره من الحقيقة والواقع.

ونظراً لأنني أعتبر نفسي إنسانا ذا جوانب متعددة، بالإضافة إلى كوني شاعراً، فإنني لا أحرص على أن أحيط نفسي بما يذكّرني بأني شاعر. لا توجد لديّ، كما توجد عند أكثر الشعراء الذين أعرفهم، ملفات تحتوي على ما كتب عني. إنني أشعر بالحرج عندما يطلب مني أحد الباحثين أن أوافيه بما كتب عني من دراسات سابقة لأنني لا أحتفظ بهذه الدراسات، اللهم إلا إذا كانت في كتاب أو أطروحة جامعية. كما أنني لست من هواة النوادي الأدبية أو الجمعيات الشعرية، ولا أذكر أنني ساهمت في مؤتمر أدبي أو لقاء شعري.

وانطلاقاً من اعتقادي بأن أثر الشعر في هذا العصر محدود ضيق لم أحرص على أن تحصل دواويني على انتشار واسع وكان يكفيني أن يتمكن متذوقو الشعر، وهم قلّة بطبيعتهم، من الحصول عليها. ولعلي للسبب نفسه لا أميل إلى الإكثار من الأمسيات الشعرية. وأعتقد أن عدد الأمسيات التي ساهمت فيها منذ انتهاء الدراسة الثانوية لا تتجاوز أصابع اليدين. وهو عدد أقل بكثير من عدد المحاضرات العامة التي ألقيتها في الفترة نفسها. إنني كلما دعيت إلى إلقاء محاضرة أو إلقاء قصائد من شعري اخترت المحاضرة.

إن شيئاً ما لا يزعجني بقدر ما يزعجني أن يطلب مني إنسان لا أكاد أعرفه في وسط مجموعة لا أكاد أعرفها أن ألقي شعراً. إن الشاعر ليس جهاز راديو يفتح ويغلق تمشياً مع ما يطلبه المستمعون. على هواة الشعر أن يطلبوه في مظانه وأماكنه. إن عجبي لا ينتهي من الشعراء الذين يتطوعون بالقاء قصائدهم في كل مجتمع أو يهبّون للاستجابة لأي طلب، حتى عندما يكون أغلب المستمعين بعيدين كل البعد عن فهم الشعر وتذوقه. إن هؤلاء يسيئون إلى أنفسهم وإلى الشعر. هذا الكائن الرقيق الوديع الذي لا يستطيع أن يتنفس إلا في الهواء النقي.

إن اقتناعي بأن تذوق الشعر عملية عفوية شخصية ولّد لديّ نفوراً من الشعر الذي لا يُفهم. إنني مع الذي قال «لم لا تقول ما يفهم» ضد الذي أجاب «لم لا تفهم ما يُقال» يذهب عدد من

الشعراء الحديثين أن قراءة القصيدة ليست تسلية أو متعة ولكنها مغامرة فكرية شاقة. يقول هؤلاء ان القصيدة لا تكشف عن نفسها ولا تفتح مغاليقها إلا لأولئك الذين يجابهونها بعزم وإصرار ويقضون الساعات في استجلاء أسرارها. إنني لا أؤيد هذا الرأي فالقصيدة ليست أحجية أو لغزاً أو شفرة. إنني لست على استعداد لأن أصارع قصيدة ما زمناً طويلاً لأعثر في النهاية على مقصد الشاعر، إن كان له مقصد.

على أن «مشكلة» الغموض في الشعر لا تزعجني. أنني أعتقد أنه لابد من وجود حد أدنى من الألفة النفسية والفكرية واللغوية بين الشاعر والقارئ ليستطيع الثاني أن يتذوق شعر الأول. إن الغموض قد لا يكون عيباً في القصيدة أو عيباً في القارئ ولكنه نتيجة لانعدام الحد الأدنى. إن عجزي عن فهم اثنين يتحدثان بالفرنسية ليس طعناً في الفرنسية ولا في قدراتي العقلية ولكنه نتيجة طبيعية لعدم إلمامي بالفرنسية. إننا لا نستطيع أن نشرح الفرق بين اللون الأصفر واللون الأخضر للمصابين بعمى الألوان ولا نستطيع التقاط إذاعة معينة إذا كان مذياعنا لا يحتوي على ذبذبة هذه الاذاعة. والأمر نفسه يصدق بالنسبة للشعر. إنني أقرأ ما أتذوق وأهمل ما لا أتذوق, مدركاً ان العملية تتعلق بذوق يختلف من شخص إلى آخر. إنني لا أتهم أحداً بالغباء لأنني لا أفهم شعره وأرفض أن يتهمني أحد بالغباء لأنني عجزت عن تذوق قصيدة ما.

إن هذه النظرة إلى تذوق الشعر تجعلني أستغرب الجدل البيزنطي الذي يثور بين حين وآخر حول «أشعر» الناس. لقد كتب أحد الباحثين مرة رسالة دكتوراه «يثبت» فيها أن شوقي «أشعر» من المتنبي. ولا يزال الجدل حول خلافة شوقي في إمارة الشعر قائماً. ولا يزال هناك من الشعراء من يتطوع لهذا المنصب أو يرشّح له أحد أصدقائه. إن «أشعر» الناس حكم يختلف من إنسان إلى إنسان، بل انه يختلف عند الإنسان الواحد بتغيّر الحالة النفسية. إنني معجب بالناقد العربي القديم الذي حاول حسم الجدل حول «أشعر» الناس فقال إن فلان أشعرهم إذا طرب والآخر أشعرهم إذا غضب والثالث إذا رغب. إن هذا حكم أدبي رائع ولكنه حكم ناقص وتكملته: إن فلاناً أشعر الناس إذا غضب القارئ، والثاني أشعر الناس إذا طرب القارئ وهلم جرا.

إن هذا العالم يضجّ بأعداد هائلة من التجار والصيّادين والزرّاع, والصنّاع والمهندسين والأطباء، وباستطاعة العالم بالتأكيد ان يستقبل أعداداً أكبر من الشعراء دون ان يشتكي الزحام. إن الشعر ليس تنظيماً بيروقراطياً هرمياً يحتاج إلى رئيس ونواب

ومدراء وإدارات. والشعر ليس إرثاً ينتقل من مالك إلى مالك. وفي الشعر لا يوجد جهاز تشريفات يمنح النياشين والأوسمة والألقاب. من طبيعة الشعر أن تعجب أنت بشاعر ما وأعجب أنا بشاعر غيره. ومن طبيعة الشعر أن تعتبر أنت قصيدة ما رائعة وأعتبرها تافهة سخيفة. ومن طبيعة الشعر أن تهمل فترة زمنية شاعراً ما لتكتشفه فترة زمنية أخرى. إن الأمور لابد أن تكون على هذا النحو وإلا كنا بصدد «ديكتاتورية» شعرية لا تقل في سوئها عن بقية الديكتاتوريات.

إنني لا أدري هل ترك شعري أي أثر, سلبي أو ايجابي، في المجتمع أو في الناس. ولا أدري هل سيحتفظ التاريخ باسمي في قائمة الشعراء. ولا أدري هل استفادت هذه الأرض من كوني شاعراً. كل ما أدريه أنني منذ البداية كنت صادقاً مع الشعر، أميناً مع الشعر، مقيما على عهد الولاء.

الفصل الحادي عشر
أنا

على قلق.. كأن الريح تحتي
أوجهها جنوباً.. أو شمالاً

المتنبي

في البداية: «من أنت؟»

❖ من أنت؟

راشد الجودر

❖ إنسان طفا على سطح الحياة فرأى الكثير الكثير من الدموع، والقليل القليل من الابتسامات. فحاول أن يمسح من الدموع دمعة، وأن يضيف إلى الابتسامات ابتسامة. وأن يتحدث عما مّر به شعراً. فنجح حيناً، وأخفق أحياناً. ولا يزال يحاول.

هوية ركضك؟! ولون نبضك؟!

*** مـن أنت؟ ومـا هـويـة ركضك؟ ومـا لـون نـبضك؟ وهـواك؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ من أنا؟! أتريد الإجابة شعراً أم نثراً أم سجّع كهان؟ أم عبارة ذكية؟ أم جملة تجري مجرى الأمثال؟ أم مزحة طريفة؟ ليتني أستطيع! ليتني أستطيع! هذه «الأنا» أعقد بكثير من التعريف، أصعب بكثير من التصنيف، أعند من الانسياق للتأطير. أتعرف لماذا؟ لأنها لا تتكون من «أنا» واحدة - ولكن من «أنا»... و«أنا»... و«أنا»... أعوذ بالله منها جميعاً. ولا أقصد «الأنا السفلى» و«الأنا العليا» التي ابتدعها العم الخرف فرويد. ما أقصده هو أنه يوجد «أنا» بسيط متفائل انفعالي مرح كطفل. وراءه بالضبط كما تلتف قشرة البصلة بأختها، ومعذرة لهذا التشبيه غير الشذيّ، يقف «أنا» عملي واقعي انتهازي أقرب ما يكون إلى سوء الطويّة والشك. وراءهما «أنا» ثالث يتجاذبه الأثنان بلا رحمة، فيبدو مرة كالوليد الحالم ومرة كرجل الأعمال الشرس. وراء هؤلاء يقف «أنا» وجودي يضحك من هذا ويسخر من هذا ولا يهتم بشئ ويختفي وراء فقاعة من فقاقيع الصابون. يجيء بعد هؤلاء «أنا» مسؤول إلى درجة الوسوسة يحسب وقته بالثانية ويضع لنفسه جدولاً صارماً للغاية. ثم يطلّ «أنا» شديد الشغب همه الوحيد ترتيب المقالب وإزعاج الأصدقاء وهناك «أنا» الأب بكل ما يوجبه هذا الدور من وقار حيناً وتبسّط حيناً آخر، حسب نظريات التربية الحديثة (الفرويدية الخرفة غالباً!). ثم هناك «أنا» الزوج - الإنسان الذي يحاول التعايش مع إنسانة دون تسلّط أو سيطرة. وهناك «أنا» الموظف هذا الكائن المزعج الذي يحمل في عمق أعماقه كل عقد البيروقراطية, رغم سخريته الدائمة منها. وهناك «أنا» الضيف

عدو الولائم والعزايم بأنواعها وأشكالها. وهناك «أنا» السائق أجارك الله من الركوب معه. هل تريد بعد هذا أن أحدثك عن «أنا» الشاعر؟ أرجو أنك تمزح!

هوية ركضي؟ للركض، إذن هوّية! لم لا؟، الإنسان بدون هوّية ضائع كما اكتشف الفلسطينيون وكل المشردين عن ديارهم. لم لا تكون للركض هوّية حتى لا يتحول إلى مجرد «جوكنج» يمارسه غلاة الرياضيين؟.

ركضي، ياسيدي، هو كما وصفته في قصيدة «معركة بلا راية»:

أحسّ بأن أيامي
كهذي الليلة الحمقاء.. عاصفة بلا معنى
صراعٌ دونما غايةْ
ومعركةٌ بلا رايةْ
طواف حول دائرة من الأوهام تبدأ..
كلما قلتُ انتهتْ.. وتطول قدامي
وأحلامي
كؤوس إن تعبت شربتها.. وسكرتُ..
واستسلمتُ للدرب
.. وياقلبي!
أتعرف أننا ضِعنا؟!
قضينا العمر نضرب في دجى الصحراء..
نرقب كوكب الحبّ
وهل يرعى دجى الصحراء
إلا كوكب الجدب؟

لون نبضي وهواي؟ كما تقول قصيدة «حنين».

تريدين.. لون.. حنيني إليك؟ إذن طالعي الشمس عند المغيبْ
تريدين طعم حنيني إليك؟ إذن لامسي بيديك اللهيبْ
تريدين حجم حنيني إليك؟ إذن سافري في الفضاء الرحيبْ

صقراً ذهبيَّ الريش؟!

*** لو ولدت من جديد، فماذا تختار؟**

خالد باطرفي

❖ لعلك تتوقع مني أن اقول إنني أتمنى لو كنت صقراً ذهبيَّ الريش، أو ببغاء أفريقية رمادية اللون، أو عصفوراً من عصافير الكناري، أو سمكة من أسماك القرش. أو لعلك تتوقع أنني أتمنـى لو كنت عمر بن أبي ربيعة، أو الأصمعي، أو الرئيس ابن سينا. وربما توقعت أن اقول إنني أتمنى لو ولدت برشاقة ترافولتا - واحسرتاه! - ووسامة الفيس برسلي وخفة دم عجوز «سيدتي».
لا يا أخي العزيز! لو كان هناك خيار فسوف أفضّل أن أبدأ الكرّة من جديد، كما أنا: أن أولد بالاسم نفسه، في ظل الظروف نفسها. قد يكون هذا عائداً إلى الخوف من المجهول أو إلى الألفة التي تجعل الإنسان يتعوّد على كل شئ. إلا أنني أفضلّ أن أعتبره من باب الحديث بنعمة الله. فحياتي هذه بفضل الله، ممتلئة وسعيدة ومثيرة.

شعر أو سياسة

*** أين يجـــد غـــازي القصيبي نفسه؟ في الشعر أم في الســياســة؟**

ايمان علي

❖ دعيني، أولاً، أستبعد حكاية السياسة هذه، فلست سياسياً محترفاً، ولم أكن في يوم من الأيام. لقد شاء قدري أن أتولى بعض المناصب الإدارية ضمن مسيرة طويلة في الخدمة العامة، إلا أنها لم تكن في تخطيطي أو حسابي عندما بدأت حياتي العملية بالتدريس في جامعة الملك سعود بالرياض. كما أن هذه المناصب لم تحولني سياسياً لا يجد نفسه إلا في ممارسة السياسة. بعد هذا أودّ أن أقول إنني لا أجد نفسي في شئ واحد، كائناً ما كان هذا الشئ، حتى الشعر. إن نفسي، كنفسك ونفوس بقية البشر، ظاهرة معقدة، شديدة التعقيد، يصعب اختزالها واختصارها وحبسها في نافذة واحدة من نوافذ النشاط الإنساني. إنني، أولاً، إنسان - وبعد ذلك شاعر. الشعر لا يمثل سوى جانب واحد من جوانب الإنسان، قد يكون أهمّها في المدى البعيد ولكن، في النهاية، يبقى الإنسان في أكبر من الشاعر.. وأشمل.

وهل تحلّق في السماوات..؟!

*** في أي سماء تحلق؟ وفي أي عالم تعيش ولمن أنت بعد منتصف الليل؟!**

خالد باطرفي

❖ لا أحلق إلا عندما أكون في الطائرة - إذا اعتبرنا هذا تحليقاً. وعندها يكون تحليقي في

السماء الدنيا وفي الأجواء السعودية غالباً. أما العالم الذي أعيش فيه فهو هذه الكرة الأرضية - ما غيرها! - وبين المكتب والمنزل. أما بعد منتصف الليل فأكون، عادة، مستغرقاً في نوم عميق. لا أدري لماذا تسألني هذه الأسئلة. ألا تعرف أنني موظف حكومي عليه أن ينهض في الصباح الباكر ليزاول عمله عبر ساعات طويلة؟ وإن لديّ من مشاغل الأرض وشجونها ما يغنيني عن التحليق في السماوات؟ وانني لا أستطيع السهر إلا على حساب العمل، وهذا يتنافى مع نظرتي إلى الوظيفة والمسؤولية العامة؟.

كم يؤسفني أن تجئ الاجابة جافة كهذه. وكم كان بوديّ أن تكون أكثر رومانسية. من يدري، بعد أن أتقاعد فقد يكون بإمكاني أن أحلق في سماوات المنى الوردية. وأعيش في عالم الأصداف والزهور. وأستسلم بعد منتصف الليل لحوريات القصيد. وعندها، يمكن أن توجه لي السؤال مرة أخرى.

بين الحلم.. والحقيقة:

*** لحظـــة الحــلم ماذا تمنحك؟ وإلى أي مدى تصـــل بك؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ لحظة الحلم ولحظة الحقيقة توأمان لا ينفصلان إلا بموت أحدهما.. أو بمعجزة طبية. لحظة الحلم أمس هي لحظة الحقيقة اليوم. ولحظة الحقيقة أمس هي لحظة الحلم اليوم. الحلم هو المادة الخام للحقيقة. والحقيقة هي الشكل النهائي للحلم. الحلم هو الحقيقة كما تودّ أن تكون. والحقيقة هي الحلم الذي بدأ يشيخ.

عن الصوت.. والحزن.. والحقيقة الإنسانية:

*** هل تستطـيع تعريف صـوتك وحزنك وحقيقــتك الإنســانية؟**

خالد باطرفي

❖ بالتأكيد، وبكل سهولة، صوتي هو نتيجة مرور الهواء عبر الحبال بحنجرتي إلى لساني. أليس هذا تعريفاً جامعاً مانعاً، كما يقول المناطقة؟ حزني هو مجموع المشاعر التي تصطخب في نفسي والتي يمكن تمييزها عن مشاعر السعادة. هذا التعريف أقل دقة من الأول ولكنه يفي بالغرض. حقيقتي الإنسانية لا تختلف كثيراً عن حقيقة أي إنسان. هناك في الأعماق المزيج نفسه من نزعات الخير ودوافع الشر. هناك الصراع نفسه بين الغريزة والمثل العليا. هناك كل نواحي

الضعف البشري، وكل نواحي القوة البشرية في صراع خالد بين مد وجزر، وانتصار واندحار. هذه هي حقيقتي. أنها لا تختلف عن حقيقتك. أو حقيقة القارئ؟ الذي يقرأ هذه السطور هذه اللحظة. أو الحقيقية الإنسان الذي يلفّ مشترواته بهذه الصفحة دون أن يقرأها.

وعن التطرف.. حباً وكرهاً..

*** في حياتنا لا نعرف القصد، نبالغ في مواقفنا مع أو ضدّ.. فهل تجد نفسك طرفاً أو مستهدفاً لهذا التصرف أو ذاك؟**

عبدالحميد الحادين

❖ لا أدري هل تقصد بنون الجمع بني يعرب، أو بني البشر، أو الشعراء. على أنه سواء كان التطرف من طباع البشر أو العرب أو الشعراء، فقد حاولت جهدي، وأعتقد أنني نجحت إلى حد كبير، أن أحدّد من الوجود ومن الكائنات مواقف بعيدة عن التطرف. منذ سن مبكرة تعلّمت أن العالم مليء بالألوان المتشابهة المتشابكة والظلال، وأدركت أن أولئك الذين لا يرون سوى السواد والبياض مصابون بعمى الألوان. منذ سن مبكرة فقدت القدرة على التعصب. غير أنني، في أحيان قليلة، أجد نفسي هدفاً لحب أعمى أو بغض أعمى. ولا أدري حتى هذه اللحظة أيهما أخطر الحب الأعمى.. أم البغض الأعمى.

عن لون الحلم وهويته

*** لكل مرهف حلم - ما لون حلمك؟ وما هويته؟**

خالد باطرفي

❖ إذا سلّمنا أنني من المرهفين، وهذه من صفات السيوف لا الشعراء والله أعلم، فانني لا أستطيع أن أتحدث عن حلم بعينه له هوّية بذاتها، كل يوم تولد وتموت عشرات الأحلام الصغيرة.. شأنها شأن الفراشات الصغيرة.. والزهور الصغيرة. كل يوم أضحك مع اطلالة ألف حلم، وأبكي على أشلاء ألف حلم. آلاف الأحلام. هنا حلم شخصي لا أبوح به حتّى لنفسي. هناك أحلام لمن أحبّ. هناك أحلام تعانق الكون كلّه. هناك أحلام ترتبط بالعمل. وهناك ذاك الحلم المتجدّد في أن أرى نفسي إنساناً أفضل.. يعيش في عالم أفضل.

أنا... والليل...

*** يزرعنا الليل أغنيات غزل على الصدور المثقلة بالحنان.. ليلك أنت.. أين ينتهي بك عادة؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ قصة الشعراء مع الليل طويلة جميلة. بدأت منذ أن قال زعيمهم:

وليل كموج البحر أرخى سدوله

عليّ بأنواع الهموم.. ليبتلي

وعبرت بالبيت الخالد:

يا ليل! الصب متى غده؟ أقيام الساعة موعده؟!

ومرّت بالبيت الجميل:

يا ليل! طل! أو لا تطل لابد لي أن أسهرك!

انتهاء بليل عبدالصبور في الشعر الحديث:

والحزن يولد في المساء لأنه حزنٌ ضريرْ

حزنٌ كما امتدّ الطريق...

من الجحيم الى الجحيمْ

حكايتي مع الليل لا تختلف عن حكاية هؤلاء:

أقضيّ نهاري بالحديث وبالمنى

ويجمعني بالهم في الليل جامعُ

في الليل تتحررّ الأشياء من حرفيتّها ونثريتها ورتابتها. هل حاولت أن تشمّ الياسمين في النهار وتشمه في الليل؟ أن ترقب البحر في النهار وترقبه مع بدر المساء؟ أن تروي شعراً في النهار وترويه في الليل؟ أتعرف مشكلتي مع الليل؟ مشكلتي أن «الأنا» المنضبط الذي يسكن مكاناً ما في داخلي يذكرني أن عليّ أن أنام لأن عليّ أن أصحو لأن عليّ أن أذهب إلى «الدوام» ليلي، إذن، ينتهي عادة قبل أن أشبع منه أو يشبع مني بالتقهقر إلى الفراش وفي يدي كتاب مُمَلّ لاستدراج النوم. أليست هذه نهاية مفجعة؟!

وهل يفهمك أحد؟!

*** هل وجدت أخيراً من يفهمك؟**

خالد باطرفي

❖ لا أدري ماذا تقصد بأخيراً. ذلك أنه لم يسبق لي أن اشتكيت في سرّ أو علن من عدم فهم الناس لي. ولماذا لا يفهمني الناس؟ هل أتحدث بالسريالية؟ أو بلغة أهل بابل أو بأسلوب بعض

الشعراء من أهل الحداثة؟ لقد كنت قادراً في كل مراحل حياتي أن أتفاعل مع الآخرين فيفهموني وأفهمهم. ويفهمون عني وأفهم عنهم. أرجو ألاّ تحاول إضافة «مواصفة جديدة» إلى «مواصفات» الشعراء وهي صعوبة الفهم - فالشعراء لا يختلفون في هذا المجال عن غيرهم. ان أكثر الشعراء الذين أعرفهم كتب مفتوحة لا يحتاج فهمها إلى قليل أو كثير من ذكاء أو فطنة.

قل لي من تقرأ!...

*** لمن تقرأ من الشعراء العرب؟ ولمن تقرأ من الشعراء العالميين؟ سواء الأحياء أو الذين رحلوا. ولماذا تخصهم بقراءتك؟ أعني، ماذا يشدك في تجربتهم وشعرهم؟**

عبدالمنعم إبراهيم

❖ من القدامى أعود بين الحين والحين إلى المتنبي، وبإعجاب يتزايد مع مرّ السنين. وإلى ابن الرومي. والعباس بن الأحنف. وجرير.

ومن شعراء هذا القرن أحب عمر أبو ريشة وبدوي الجبل والأخطل الصغير وأمين نخلة ومحمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب وصلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازي وأمل دنقل (وهذا الأخير في رأيي هو ألمع شاعر كتب خلال العقدين الأخيرين). ونزار قباني.

وفيما يتعلّق بالآداب العالمية، فإن معرفتي باللغات الأجنبية تقتصر على الانجليزية. الأمر الذي يحصر قراءاتي إما في الشعر الانجليزي أو في الشعر المترجم إلى الانجليزية.

من الشعر الانجليزي أقرأ لشكسبير (مقتطفات، لا الروايات كاملة) ولشعراء البحيرة وللشعراء الرومانسيين عموماً. وفي العصر الحديث أقرأ لتوماس ديلون وروبرت جريفز، وفروست من الشعراء الأمريكيين.

كما تعجبني قصائد الشاعر الألماني «ريلكه» - ولعله شاعري المفضل خارج اللغة العربية. وأعجب إعجاباً بالغاً «بالهايكو» وهو ضرب من الشعر الياباني يتكون من ثلاث جمل قصيرة تحمل الكثير من المعنى.

فيما عدا ذلك، توجد شذرات متفرقة من هنا وهناك.. وهنالك.. من آداب عالمية عديدة.

لماذا أقرأ؟ لأني أجد مع هؤلاء الشعراء «ألفة نفسية» تجعلني أعشق ما يكتبون.. «وللناس

فيما يعشقون مذاهب»؟

المتنبي... لماذا؟!

*** انت معجـــب بالمتنبي. فما مصـــــادر هذا الاعجاب؟**

عبدالحميد الحادين

❖ أستطيع أن أعطيك ألف سبب. أن أسرد لك ألف مرجع. أن أحيلك إلى أستاذنا إبراهيم العريّض الذي أعتبره أعظم دارسي المتنبي المعاصرين. ومع هذا فسوف يبقى السؤال بدون جواب شاف. إن الاعجاب يتعلق بائتلاف الأرواح واختلافها لا بتحليل ذهني جامد. هذه الألفة هي التي تشدّك إلى شاعر ما تجعلك تحسّ أنه يعبر عن أحاسيسك أنت بصدق وروعة. تجعلك تقول «كيف عرف هذا؟!».. تجعلك تصرخ «ليتني قلت هذا أنا!». هذه «الألفة» هي التي تجعل حكمة «المتنبي» شيئاً نابضاً بالحياة يختلف عن «حكمة» أبي العتاهية ومقصورة ابن دريد التي «حوت جميع المعاني». هذه «الألفة» إما أن توجد أو لا توجد. صدقني ودع عنك تبريرات النقاد وتقعّراتهم.

أسئلة.. سريعة الطلقات!

*** بمن تأثرت؟ ولمن تكـتب؟ وأين هـو الأديب والشـاعر من قضـايا أمته؟ وهل يمكن فصل الفـكـر عن السـياسة، أو العـكس؟**

عبدالله الشيتي

❖ هذا ليس سؤالاً! هذه قذائف من مسدّس سريع الطلقات! ولكنني سأجيب باختصار، حتى لا ينام القارئ، هذا إذا لم يكن قد نام منذ البداية؟

ياسيدي! الذين تأثرت بهم من شعراء أو كتاب أو أساتذة أو أقارب أو أصدقاء أكثر من أن أحاول أن أحصيهم هنا، ولو تمكنت من إحصائهم لما كان في ذلك فائدة تذكر. التأثر عملية نفسية عقلية عاطفية بالغة التعقيد تحتاج إلى دراسة متكاملة لرصدها. وأي مناقشة عابرة تسئ إليها. إذا أردت أن تعرف بمن تأثر شاعر ما كان عليك أن تدرس بيئته الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وجذوره الحضارية ونشأته الأولى، بالإضافة إلى عشرات المتغيرات الأخرى. لقد كتبت فصلاً قائماً عن الموضوع في سيرة شعرية. وحتى هناك لا أعتقد أنني أعطيت الموضوع حقه.

تقول لي لمن تكتب؟ أكتب لنفسي وللناس لنفسي أولاً، وللناس ثانياً. وأحياناً أكتب لنفسي

وللناس في الوقت نفسه. إلا أنني أكتب أبداً للناس دون نفسي. أنا قارئي الأول!

نعود إلى موقف الشاعر أو الأديب من قضايا أمته. ولي رأي أوضحته مراراً وتكراراً، وهوجمت عليه مراراً وتكراراً. باختصار، ليس على الشاعر أي مسؤولية سوى أن يكون شاعراً صادقاً مع نفسه والأمر نفسه يصدق بالنسبة للرسام أو الروائي أو الموسيقي. إذا كتب الشاعر شعراً انتهى دوره كشاعر. أما ما يتردد بين الحين والحين عن ضرورة «التزام» الشاعر فإنه في رأيي قيد رهيب على حرّية الشاعر ذلك أنه يصعب التفريق بين «الالتزام» والإلزام».

تبقى ثمة حقيقة وهي أن الأديب الحقيقي يجد من الصعب عليه أن يعيش بمعزل عن قضايا أمته. هذه القضايا تمثل البيئة التي يتنفس فيها والتي لابد أن تنعكس، على نحو أو آخر، في إنتاجه. من هنا فالسياسة، بأوسع معانيها، حقيقة من حقائق الحياة التي يصعب أن تتجاهلها أي تجربة أدبية ناضجة.

والمتنبي.. مرة أخرى!

*** يقال إنك مشدود إلى المتنبي وإلى شوقي وإلى أبي العلاء - هل نعلم لماذا؟**

عبدالله الشيتي

❖ لا! لست «مشدوداً» إلى شوقي ولا إلى أبي العلاء. تعجبني لشوقي قصائد وومضات هنا وهناك. ومقاطع من «مجنون ليلى» و«مصرع كليوباترا». وتعجبني لأبي العلاء عدة قصائد في سقط الزند وأبيات نادرة في اللزوميات. أما المتنبي فهو الحضن الشعري الرؤوم الذي أعود إليه ولا أكاد أفارقه. لماذا؟ لأنك كل ما قرأت المتنبي عثرت على كنز جديد لم تلاحظه من قبل. حتى الأبيات التي أحفظها منذ الطفولة أكتشف فيها كل يوم أبعاداً وظلالاً جديدة. لأنه «أحدث» الشعراء وأكثرهم حضوراً. لأنه إذا قال شعراً «أصبح الدهر منشداً». ألا يكفي هذا؟!

تترنم.. أو لا تترنم؟!

*** أبيات لك تتغنى بها وتترنم. وأبيات لغيرك؟**

عبدالله الشيتي

❖ دون أن أدعي أي موهبة في «الترنم» أود أن أقول إن الأبيات التي أرددها غالباً ما تكون لغيري، وهي تختلف وتتغير باختلاف المزاج النفسي.

فإذا كنت في حالة عشق قفز إلى ذهني بيت عمر بن أبي ربيعة:

ليس حب فوق ما أحببتكمْ

غير أن أقتل نفسي.. أو أجنّ!

وإذا كنت في حالة حب رددت مع ناجي:

هو عمر واحد عشت به

كل أعمار الورى مجتمعات

وإذا تنكرّ لي صديق قلت مع القائل:

وكنت أخي بإخاء الزمان

فلما نبا صرت حرباً عُوانا

وكنت أعدك للنائبات

فأصبحت أطلب منك الأمانا

وإذا ذكرت الصبا الأول رددت مع ابن الرومي:

أأفجع بالشباب.. ولا أعزّى؟

لقد غفل المعزّي عن مصابي!

وإذا اشتقت للوطن قلت مع شوقي:

ويا وطني! رأيتك بعد يأس

كأني قد لقيت بك الشبابا

وإذا ابتليت بثقيل قلت:

كيف لا أتحمل الأمانة أرضٌ

حملت فوقها أبا عمران؟!

وإذا كثرت عليّ أسئلتك رددت مع القائل:

ولو كان جرحا واحداً لشفيته

ولكنه جرح.. وثان.. وثالثُ!

الفصل الثاني عشر

.. والشعر

قـــواف إذا ســـرن عن مقـــــولي

وثـــبن الـجـبـال وجبن البحارا

المتنبي

*** هـــل تذكر أول بيت شــعر قرأته في حـــــياتك؟**

محمد همّام

❖ كلا.. للأسف الشديد. ولكني أكاد أجزم أنني عثرت عليه مع الأناشيد القومية التي كنا نحفظها في المدارس الابتدائية والتي تلاشت، كما يبدو، من مناهجنا هذه الأيام. أعتقد أنني مررت بأول شعر في حياتي مع:

نـحـــن الشـبـــــــاب لـنـــا الـغـد ومجـده المخلّـدُ

أو مع:

بـــلاد الــعــرب أوطــاني مــن الشـــام لـــبـغـدان

أو مع:

عــلــيــك مــنــي الســلامْ يــــا أرض أجــــدادي
فــفـيك طــاب المـقــامْ وطــــاب إنـشــادي

هل تسمح لي أن أستطرد فأرجو وزراء التربية والتعليم في عالمنا العربي أن يعيدوا هذه الأناشيد إلى الصدور الصغيرة. لقد حرمنا واقع الوحدة العربية فهل من الكثير علينا أن نطمع في حلمها؟

مواجع الشعر.. ومواويله.. وهمومه

*** شــعــرك.. عـلـى أيّ المواجـــع يـحـــكـي؟ وأي المـــواويـل يـؤدي؟ وأي الهـــموم يطـــرح؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ ليتني أستطيع أن أقول كما قال شوقي:

كـان شـعـري الـغـنـاء في فـرح
الشـرق.. وكـان الـبـكـاء في أحـزانـهْ

أو كما قال، فيما يشبه وقوع الحافر على الحافر، الأخطل الصغير:

أنا لا أمن.. رضيت أني ثـغـرها الشـادي... وإنيّ جفنها المغرورق

إلا أن شعري بلا وظيفة وبلا دور، صدّق أو لا تصدّق أن شعري من سواقط القيد ومن مجهولي الهوّية. لا توجد له علامة فارقة. ولم يصنّف طبقاً لأي تصنيف. شعري كائن منفصل عنّي، ومستقل إستقلالاً ذاتياً كاملاً. يلقي عليّ بتحية المساء أحياناً. ويتجاهلني أحياناً. وهو جاهل بكل «رطانة» الشعر المألوفة. جاهل «بالحداثة» و«المعاصرة» و«الالتزام». وهو مزاجي وعنيد إلى درجة غير معقولة. يتحدّث عندما يشاء. ويضرب عن الكلام عندما يشاء. مرة يلبس عباءة الحطيئة (إن كانت للحطيئة عباءة). ومرة يلبس ثياب «البلاج». وهو ليس موظفاً عند أحد. لا عندي ولا عند غيري. ولا يتحدث باسم أحد. لا اسمي ولا اسم غيري. ولا اسم المواجع القومية. ولا الضمير الإنساني. وهو: ولا فخرا, لا يملك أي رؤية كونية أو نظرة شمولية أو عمق فلسفي. وأحياناً يقول أشياء سخيفة. وأشياء قديمة. إلا أنه نادراً ما يتحدّث بلغة غير مفهومة.

لقد فقدت الأمل، في النهاية، في فهم هذا الشيء وقبلته، على علاته، بكل نواقصه ومزاجياته وتقلباته. كيف أشرح لك ما لا أفهم؟!

الشعر... كل شيء؟!

*** ماذا يمثّل الشـــعر لغـــازي القـصيبي؟**

ايمان علي

❖ يمثل الكثير الكثير. فهو، بدون أية مبالغة شعرية، غنائي في لحظات السعادة، ودموعي عندما يجتاحني الشوق إلى البكاء ومعه أعيش أوقاتاً لا تنسى، وعن طريقه أصل تجربتي الذاتية بتجارب البشرية عبر القرون والسنين. ولكن الشعر، بعد هذا، لا يمثل بداية حياتي ونهايتها، ولا الحرف الأول والحرف الأخير من قصتي على هذه الأرض. إنه يعني الكثير الكثير. ولكنه لا يعني كل شيء. ربمّا لو كان الشعر حياتي كلّها لأصبحت شاعراً أفضل.

ومشوارك مع الشعر؟

*** ماذا يمثّل الشـــعر بالنســبة لك، هل كنت دائم التواصل معـــه من حـــيث الكتابة والنشر؟ وهل حدث أن هجـــرت القصيدة أو هجرتك؟ متى؟ ولمـــاذا؟**

عبدالمنعم إبراهيم

❖ كنت أتمنـّى لو قلت لك، كما يفعل كل الشعراء أو معظمهم، إن الشعر يمثّل حياتي كلّها وإنني لا أتصور لنفسي وجوداً بدون الشعر. إلا أن هذه مبالغة لا أجرؤ على الإقدام عليها. ولعل

أصرح جواب، وأصدقه، هو أنني لا اعرف، بالضبط، ما يمثله الشعر في حياتي. أعرف، بالتأكيد، أنه ناحية هامة من نواحي وجودي. وأعرف، بالتأكيد، أنه يتيح لبركان التجارب والأحاسيس والمشاعر أن ينفس عن معاناته بين الحين والآخر على هيئة هذا الانفجار الغريب الذي نسمّيه قصيدة. وأعرف أني سأكون شيئاً مختلفاً عن نفسي كما أعرفها الآن لو لم أكن شاعراً. هذا كل ما أستطيع أن أقوله دون أن أذهب أبعد من ذلك فأقول إن العالم سينتهي لو نضب الشعر عندي. إن الحياة تستمر في دورتها، بالشعراء وبدونهم.

لقد بدأت قصتي مع الشعر في سن الثانية عشرة ولم تنته ولا أتوقع أن تنتهي ما حييت. ومنذ أن بدأت كتابة الشعر وحتى الآن كانت فترات الخصب تعبر بفترات من الجدب. لقد كان أغزر إنتاجي في فترة المراهقة بين ستي السادسة عشرة والعشرين. كانت تمرّ عليّ أيام متعاقبة أكتب خلالها كل يوم قصيدة، وأحياناً أكثر من قصيدة. تبعت ذلك مرحلة من الجفاف لم أكن أكتب فيها إلا قصيدتين أو ثلاثاً في السنة. ولعل أطول فترة جفاف مرت بي استغرقت سنة، وكنت في الثالثة والعشرين. كما أن الفترة بين الخامسة والعشرين والثلاثين كانت فترة خصب بدورها. منذ ذلك السن - أي خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة - استقرّ الانتاج بمعدّل قصيدة واحدة كل شهرين.

لا تسألني تفسيراً لهذه الظاهرة - لا ظاهرة الخصب ولا ظاهرة الجفاف، هذا من ألغاز العملية الشعرية وأسرارها. ومن قديم كان الشعراء يشتكون أن قلع ضرس من أضراسهم قد يكون أهون من كتابة بيت واحد، كما قال شاعر مشهور. كل ما أستطيع أن أقوله إن الشاعر الحقيقي، أو «المطبوع» إذا أردنا استخدام تعبير أثري، لا يعدو أن يكون أداة طيعة في يد الشعر. الشعر هو الذي يزور عندما يريد، ويهجر عندما يريد، ويغضب عندما يريد. الشعر هو أكثر المحبوبين دلالاً وكبرياء وعناداً. الشعر لا يقبل أن يناقشه أحد الحساب.

هذا عن الكتابة، أما عن النشر فقد كان يتم في دورات تستغرق كل منها قرابة خمس سنوات، وهذه ظاهرة أخرى لا تعليل لها عندي - لقد طبعت **أشعار من جزائر اللؤلؤ** سنة ١٩٦٠م (١٣٨٠هـ). وبعده بخمس سنوات «**قطرات من ظما**» وبعده بخمس سنوات «**معركة بلا راية**» وبعده بخمس سنوات «**أنت الرياض**» وبعده بخمس سنوات «**الحمَى**» وبعده بخمس سنوات **العودة إلى الأماكن القديمة**.

عندما بدأت كتابة الشعر كان معظم ما أكتبه لا ينشر، إما لأنه غير صالح للنشر أو لأنه غير قابل للنشر. وقد استمرت هذه الظاهرة فترة من الزمن. أما خلال السنوات العشر الأخيرة فقد كنت أنشر كل ما أكتبه، باستثناء نسبة ضئيلة لا تذكر. هذا قد يعني أن المستوى تحسن. وقد لا

يعني إلا أنني أصبحت أكثر حذراً عند الكتابة.

الشعر حرّاً... ومنثوراً!

*** هل كتبت شعراً حراً؟ وهل تسـمّي القصـيدة المنثورة شـعراً؟**

ايمان علي

❖ أقصى «تحررّ» وصلت إليه في تجاربي هو إهمال القافية نهائياً والتمسك بالوزن وحده. وذلك في قصائد لا تتجاوز أصابع اليدين. ولكني لم أكتب شعراً «حراً» بمعنى الانفلات من الوزن والقافية معاً. أما عن قصيدة النثر فقد تكون أجمل من الشعر ولكنها تبقى قصيدة نثر... لا شعر.

ما يطلبه المستمعون!

*** من أول من تقرأ عليه شـعرك؟ وإلى أيّ حد تتأثر بتقييمه؟**

خالد باطرفي

❖ لا يوجد لديّ «مستشار شعري» يحظى بشرف (أو ألم) الاستماع إلى قصائدي لأول مرّة. بل أنني أستطيع أن أقول إن الغالبية العظمى من قصائدي لا يستمع إليها أحد ولا يقرأها أحد إلاّ بعد أن تنشر. وفي الحالات النادرة التي يصدف فيها أن أجد صديقاً ذواقة بعد الانتهاء من كتابة قصيدة ما فقد أقرأها أمامه. أما عن تأثري بتقييمه فيكاد يكون معدوماً لا عن غرور ولكن إدراكاً أن الشعر وليد عملية نفسية معقدّة وليس قطعة إملائية لغوية قابلة للتصحيح والشطب بالقلم الأحمر. ولا يوجد إنسان يضايقني أكثر من الذي يطلب مني أن أسمعه آخر قصيدة وكأنني برنامج ما يطلبه المستمعون. إنني ضنين بقراءة شعري إلا على الذين يتذوقون بالفعل وهم، بطبيعة الأمور، قلة قليلة. والأغلبية العظمى من أصدقائي لا تحب الشعر ولا تحرص على سماعه، والحمدلله!

قصائد قريبة من القلب..

*** أيّ قصائدك أقرب إلى نفسـك؟**

نبيلة سليمان

❖ هذه المنزلة. عادة. لا تدوم طويلاً لقصيدة، إلا أنه إذا كان ولابد من الاجابة فبوسعي أن

أشير إلى «أغنية قبل الرحيل» من ديوان (**قطرات من ظما**) [١] و«رباعيات عاشقة» [٢] من ديوان «**معركة بلا راية**». و«حبك» من ديوان «**أنت الرياض**» و«أعز النساء» من الحمّى [٣] والعودة إلى **الأماكن القديمة** [٤] من الديوان الذي يحمل إسمها.

وماذا عن الشعر الدرامي؟

*** أين أنت من الشـــــعر الـدرامي؟ ولماذا لم تهتم بهذا النوع من الشعر رغم إعجابك به عند الآخرين؟**

عبدالحميد الحادين

❖ كل مُيسّرٌ لما خلق له. وأعـتقد أنني لا أملك أي موهبة تتجاوز حدود الشعر الغنائي، هذا إذا كنت أملك أي موهبة هنا. ولهذا فلم أحاول في الماضي ولا أعتقد أنني سأحاول في المستقبل أن أكتب في غير هذا المجال.

لحظة الميلاد..

*** حدثنا عن شعورك عند ميــــلاد القصيدة.**

نبيلة سليمان

❖ في معظم القصـائد لا يبدأ الميلاد فجأة ولكن تسبقه إرهاصات تستغرق بضع ساعات، وفي أحيان نادرة بضعة أيام، وفي حالات أندر عدة أسابيع. يقفز في الذهن شطر بيت. ثم يختفي. لا أدري من أين جاء. ولا أين ذهب. ثم يعود على هيئة بيت كامل. ثم يغيب قليلاً. وأتساءل هل ثمة قصيدة تتحفّز أم أنها مجرد خواطر عابرة. لا أملك غير الانتظار. يصبح البيت بيتين. وفي هذه المرحلة تحدث أشياء كثيرة غريبة. تبدأ الإرهاصات ببيت تقليدي. وبيتين. وثلاثة. ثم فجأة يتحوّل الشكل شعراً حديثاً. وأحياناً يحدث العكس. أحياناً تتغير القافية ويتغير الوزن. وأقف أنا حائراً عاجزاً لا أستطيع التحكمّ في شيء. حتى إذا نضجت القصيدة شعرت بالحاجة الجارفة إلى البقاء وحدي، مع ورقة وقلم، حتى تنتهي كتابة القصيدة. والشعور هنا ليس خارقاً أو مذهلاً. إنه مجرد تركيز كامل شامل على الكلمات المتساقطة من القلم وشيء شبيه بحمّى خفيفة تجعل الذهن متقداً ويقظاً ورغبة في إنهاء الميلاد بأسرع وقت ممكن. هذه المرحلة يندر أن تتجاوز ثلاث ساعات. وبنهايتها تكون

---

(١) أنظر ما يلي من ص ص ٢٧٠ - ٢٧٢.

(٢) أنظر ما يلي ص ص ٢٨٢ - ٢٨٥.

(٣) أنظر ما يلي من ص ص ٢٨٩ - ٢٩٢.

(٤) أنظر ما يلي من ص ص ٢٩٣ - ٢٩٨.

القصيدة قد اكتملت - وبشكلها النهائي. ونادراً ما أعود إلى قصيدة ما بعد الانتهاء من كتابتها بالتنقيح أو التعديل.

الشعر.. جبناً!

*** ماهي القصيدة التي كتبتها فأعجبتك - ثم جبنت عن نشرها؟**

خالد باطرفي

❖ كنت أفضل لو أنك استخدمت كلمة أكثر دبلوماسية من «جبنت» مثل «ترددت» أو «أحجمت».. أو «عدلت».. ولكنك لم تفعل فجعلتني أبدو كشاعرنا القديم الذي قال «دعوني فإني آكل العيش بالجبن!». هناك قصائد كثيرة جبنت عن نشرها، إلاّ أني ألاحظ أنها تقلّ بمرور الأيام. عندما كنت في سن العشرين كان معظم شعري لا يقبل النشر أما الآن فنادرة هي القصيدة التي لا تنشر. قد يعني هذا أن روح التمرد الصّبية استسلمت لروح الكهولة الوادعة. وقد يعني أن التجارب اختلفت. وقد لا يعني أيّ شيء على الإطلاق!

«ما قالته النخلة للبحر».. عنـي...

*** في كتاب علوي الهاشمي «ما قالت النخلة للبحر» دارت تحليلات مستفيضة لدورك الشعري - فهل اطلعت عليها؟ وكيف وجدتها؟**

عبدالحميد الحادين

❖ كتاب الأخ علوي الهاشمي سفر أدبي ضخم قرأته وأعجبت بما بذل فيه من مجهود كبير في التحليل والبحث والتنقيب. إلاّ أن الأخ علوي كان، وإخاله لا يزال، ينطلق في أحكامه الأدبية من منظار أيديولوجي خالص. الشعر، لديه، إما رومانسي متقوقع في زوايا النفس والضياع والخدر وإما واقعي يخدم قضية الإنسان، كما يفهمهما، وهذا وحده الشعر الحقيقي. ولسنا بحاجة إلى كثير من الذكاء لندرك أنه متى ما انطلق المرء من مسلمّات حاسمة كهذه كانت النتائج معروفة سلفاً. ولهذا كانت أحكام الأخ علوي على شعري، الرومانسي حسب تصنيفه، كأحكام القاضي الذي دخل المحكمة وفي جيبه الحكم. إلا أنه لا اعتراض لدي على ما كتبه الأخ علوي، وما كتبه أو يكتبه أي ناقد آخر فأنا من المؤمنين بقول صاحبنا القديم «كدعواك.. كلّ يدّعي صحة العقل!».

القيود... وبيكاسو.. والخربشة!

*** يلاحظ على معظم قصائدك اعتماد القافية. ألا تقيدك القافية في الصياغة الشعرية؟ لماذا تلجأ إليها كثيراً؟**

عبدالمنعم إبراهيم

❖ فلأبدأ بالإجابة على «لماذا». والاجابة، ببساطة، لا أدري، وقديماً قيل «من قال لا أدري فقد أفتى» انني لا أقرّر عند كتابة قصيدة هل ستكون مقفاة أو غير مقفاة، من الشعر التقليدي أو الشعر الحديث. والواقع أنني حتى ظهور البيت الأول لا أدري من أي نوع ستكون القصيدة، كثيراً ما دارت بذهني قصيدة ما، أثناء المخاض، كنت أرجو أن تولد بثوب تقليدي. ولكنها فاجأتني وخرجت شعراً حديثاً. والعكس صحيح. إن تفاعل التجربة في العقل الشعري اللاواعي هو الذي يحدد شكل القصيدة وليس لي دور كبير أو صغير في الإختيار.

نأتي بعد ذلك إلى مسألة «التقيّد». لاشك أن القافية «قيد». كما أن الوزن «قيد». ولكني لم أسمع أن أحداً قد عرّف الشعر - أو الفن عموماً - بأنه الانفلات التام من القيود. هل يستطيع أحد أن يرسم دون «التقيد» بقواعد الرسم؟ أو أن يكتب موسيقى دون «التقيد» بالنوتة؟ أو أن ينحت تمثالاً دون «التقيد» بأصول النحت؟ وهلم جرّا. حتى عباقرة السرياليين، كبيكاسو مثلاً، لم يطرحوا القيود إلا بعد أن اثبتوا القدرة الكاملة على الإبداع ضمنها.

هناك، إذن، حقيقة وهي أنه لابدّ من «قيود» في الشعر. بعد هذا تأتي حقيقة أخرى وهي أن الكتابة بدون «قيود» أصعب كثيراً، في نظري، من الكتابة «بقيود» - والسبب في ذلك أنك عندما تتحرّر من «القيد» يجب عليك أن تبحث عن «نمط» آخر يحل محل «القيد» القديم. إذا تحررت من القافية فقدت الكثير من الموسيقى الخارجية وأصبح عليك أن تعوّضها بالكثير الكثير من الموسيقى الداخلية، وهذه مهمّة عويصة. ولعل المأساة التي يمر بها شعرنا العربي، في هذه المرحلة، هي تصوّر الكثيرين أن الشعر الحديث المتحرّر من القافية والوزن أسهل من الشعر التقليدي. بينما الحقيقة هي العكس تماماً. ولو كنت ديكتاتوراً شعرياً - وأرجو ألا أكون! - لفرضت على كل من يكتب الشعر الحديث أن يطبع ديواناً واحداً على الأقل من الشعر الموزون المقفى، ثم يتحرر بعد ذلك إن شاء. هكذا فعل كل الشعراء الذين أبدعوا في كتابة الشعر الحديث. أما أن يبدأ الشاعر تجاربه بدون وزن ولا

قافية بحجة التحرر من القيود فهذا كمحاولة صبي في السابعة والثامنة أن يبدع لوحة سيريالية تحتلّ العين منها ضعف مساحة الرجل. والواقع أننا نجد «تجارب» شعرية هذه الأيام أشبه ما تكون بلوحات سيريالية من إبداع طفل في السابعة. هذا بطبيعة الحال لا يعني ألا يكون لمثل هذه اللوحات السيريالية معجبون وقراء ونقاد - (من «شلّة» الطفل غالباً!).
إلا أن «الخربشة» شيء.. والفن شيء آخر. ويؤسف المرء أن يقول إن كثيراً مما ينشر هذه الأيام باسم الشعر الحديث لا يعدو أن يكون «خربشة».

وأين أحلى الكلام؟!

*** ما أحلى كلام أزهر على شفتيك؟ ونما على عشب بوحك الجميل؟**

فوزي عبدالوهاب خيّاط

❖ لو قلت أحلى الكلام عندي لكان معنى هذا أني انتهيت وانتقلت إلى متحف الشمع!

عندما كنت في الثامنة عشرة قلت:

آه! كم أشقى بشيء مبهم

ثائر.. يشعل ناراً في دمي

مرسلاً أصداءه عبر فمي

عالم يسبح فيه قلمي

ثم يرتد كسيح القدم

آه! لو صورته في كلمي

لمنحت الدهر أحلى نغم

طاف في بال يراع مُلهم

وفي الخامسة والعشرين قلت:

لا تخدعنك أبيات أنمقها

فإن زخرفة الأشعار من حيَلي

وأصدق الشعر بيت فرّ من شفتي

وضلّ عن درب قرطاسي.. فلم يَصل

وفي الخامسة والثلاثين:

ولماذا..

كلما حركنا الشعر.. غزانا النثرْ..

فـالألـفـاظ فـحـمٌ دون نـار؟!

وبعد الأربعين كتبت:

قصـيـدي خـيـره الصـمـت!

لا يزال الشعور القديم هو نفسه لم يتغير. أحلى الكلام هو الذي لم أكتبه بعد. أحلى الشفاه هي التي لم تهمس لي بعد. أحلى الضفائر هي التي لم تشر لي بعد. أحلى الجزر هي تلك البعيدة.. البعيدة.. البعيدة!

والشعر: يرفع أم يخفض؟!

*** قيل إن شعرك رفعك بأجنحته - كما قيل إن أجنحة شعرك قد تكسرت فأضرت بك - ما مدى صدق هـذا؟**

علي محمود

❖ لم أنظر إلى الشعر يوماً على أنه «وسيلة» تقود إلى «غاية». كنت أعتبر الشعر دائماً غاية في حد ذاته. ولا أعتقد أن مساري المهني قد تأثر بشعري. أو أنني كتبت الشعر هادفاً تحقيق غرض معين في نفسي. لقد كان قدري أن أكون شاعراً - والمرء لا يهرب من قدره. تسألني، ياسيدي، هل ضرّني الشعر أم نفعني؟ ليس هذا هو السؤال. هل بإمكاني إلاّ أن أكون شاعراً - هذا هو السؤال!

شعري في الأغاني؟!

*** هل تؤيد أن يتغنى بأشعارك في الأغاني؟**

ايمان علي

❖ لم لا؟! إنها بكل، تواضع، أحسن بمراحل من الأغلبية الساحقة من الكلمات التي أسمعها في الأغاني.

الشعر والغناء.. و«السح الدح»!

*** الأغنية العربية تعاني من اهتزاز ورتابة وركاكة. أهي مسؤولية الشعراء الكبار المبتعدين عن إنقاذها؟**

عبدالله الشيتي

❖ لا يحتاج الأمر إلى تدخل من شعراء كبار أو صغار. فالإنتاج الشعري الصالح للغناء كثير ومتنوع ومتوفر بسهولة سواءً من التراث أو من الإنتاج المعاصر. وقد أثبتت فيروز أن الكلمة الراقية يمكن أن تطرب وتسحر. كما أثبتت أم كلثوم الشيء نفسه في القصائد التي غنتها. وكذلك عبدالوهاب. إن المسؤولية تقع بالدرجة الأولى على المطربين والمطربات من الذين يفضلون «السح الدح» و«أشرب كازوزة أنا» على الكلمات الرفيعة. كما يقع على الجمهور الذي يرضى أن يملأ أذنيه بالسّح المشار إليه والكازوزة وبلاطة المرمر.

الشعر.. والإلتزام

*** من أبعاد التجربة تتكون عناصر القصيدة الشعرية.. ما علاقة تجربة الشاعر بموقفه؟ وهل يعدّ ذلك نوعاً من «الإلتزام» بمعناه النقدي المعروف؟**

«مجلة الفيصل»

❖ أحب أن أختلف معك منذ البداية فاقول إنني لا أعتقد أنه يوجد هناك «التزام نقدي معروف». والواقع أنني أرى أن كلمة «التزام» من أكثر الكلمات غموضاً واضطراباً حيث أن كل إنسان يفهمها بمعنى يختلف عن فهم الآخرين. إن كل نقاش عن الإلتزام ينتهي في آخر المطاف بما يشبه «حوار الصم»، في تجربتي الشخصية على أي حال. انني أعتقد أن «الإلتزام» مفهوم سياسي، ويعني، في معظم الحالات، أن الناقد أو القارئ يوافق على المنهج السياسي والخط الاجتماعي للشاعر، فيعتبره «ملتزماً». وما دام هذا المفهوم سياسياً خالصاً، فإنني أشك في إمكانية اعتباره مفهوماً نقدياً أو أدبياً نافعاً. إن الذي يعنينا من شاعر ما هو شعره فحسب، وأعتقد أن تجاوز ذلك للبحث والتنقيب عن «موقفه» أو «التزامه» هو من قبيل الشطط والتعنت خاصة وأن أي حكم سنصل إليه سيكون حكماً سياسياً أو حكماً أخلاقياً ولن يكون حكماً نقدياً. هل كان للمتنبي «موقف»؟ هل نزار قباني «ملتزم»؟ هل كان العباس بن الأحنف شاعر «عبث» أم شاعر «مبدأ»؟ لا أستطيع أن أجيب على هذه الأسئلة إجابة قاطعة، ولا تهمني الاجابة الصحيحة، إن وجدت، بقدر ما يهمني علمي أن هؤلاء الثلاثة شعراء حقيقيون وأنه بوسعي أن أقرأهم واستمتع بما أقرأ دون أن أضرب في معميات ومتاهات من الجدل حول مدى «التزام» الشاعر، أو مدى ارتباط تجاربه «بموقفه». هذا، على أية حال، رأيي كقارئ وللنقاد آراؤهم وفوق كل ذي علم عليم.

مسار الشاعر: نرصد أو لا نرصد؟!

*** إحساس الشاعر انطباعي يتغيّر بتغيّر المواقف والتجارب.. فكيف يكون رصد مسار الشاعر من خلال هذه اتغيرات.. والمواقف.. والتجـــــارب؟**

«مجلة الفيصل»

❖ لماذا نريد أن نرصد مسار الشاعر؟ أليس الهدف من هذا الرصد أن ننتهي بحكم ذي طبيعة سياسية أو طبيعة أخلاقية فندين الشاعر سياسياً أو اجتماعياً أو أخلاقياً أو نمدحه؟ إن قيمة ما يكتبه الشاعر يتوقف على مدى «فنية» ما يكتب، يتوقف على روعة عطائه وصدقه وحرارته، ولا يتوقف على التزامه موقفاً معيناً أو سيره على نهج معين. من هنا فإنني لا أرى أي ضير في أن أقرأ لشاعر يتناقض مع نفسه ومع مواقفه السابقة ومع منطلقه القديم. لا بل أنني أعتقد أن الإنسان السوي هو بالضرورة إنسان متناقض. من طبيعة النمو التخلي عن مواقف قديمة واكتساب مواقف جديدة، الأمر الذي يبدو في نظر المراقب المتفرج نوعاً من التناقض. يكفي الشاعر أن يكون صادقاً مع تجربته عندما كتب عنها، ولا يهم أن يتناقض معها مستقبلاً. المهمّ ألاّ يزيف الشاعر أحاسيسه ويعرضها للبيع أو للايجار أو للاعارة. أما كون هذه التجارب تشكلّ في مجموعها «مساراً» واضحاً محدّداً أو «التزاماً» معيناً، فهو أمر قد يهم من زاوية أخلاقية أو سياسية أو اجتماعية، ولكنه ليس بذي بال من زاوية فنية. لقد كنت، ولا أزال، أطالب بشدة بإبعاد المعايير السياسية والاجتماعية عن الشعر. ولقد كنت، ولا أزال، أرى أن أي ميعار يزج به زجاً في الحكم على الشعر للوصول إلى نتائج ذات طبيعة أخلاقية أو سياسية هو معيار قليل الفائدة إن لم يكن ضاراً. لنذكر أن الشاعر إنسان قبل أن يكون شاعراً، وما دمنا نغفر للبشر مختلف نواحي ضعفهم البشري فلماذا نطلب من الشاعر أن يكون أنموذجاً مختلفاً للسلوك في الوقت الذي نطلب منه أن يعبر عن التجربة الإنسانية كما يراها؟!

وماذا عن شعر الاخوانيات؟!

*** جانب من شـــعرك يغـــلب عليه التـــرف الفكــــري. ناهيك بجانب آخر هو شعر الأخــــوانيات والمداعـــبات. ما موقـــع هذا العطـــاء في الشعر؟ هل هو أدب ذاتي أم أدب مناسبـــات؟**

عبدالله الشيتي

❖ لا يوجد في شعري ترف من أي نوع. ولكن دعنا من هذا الآن. تسأل عن أدب الأخوانيات. أن حصيلتي من هذا الباب كثيرة ولو أنني تعودت ألاّ أحتفظ بشيء من شعري في الأخوانيات، لأنني لا أعتبره أدباً جديراً بالنشر والبقاء وعناية القراء. فهو يكتب، عادة، ارتجالاً أو شبه ارتجال. وهو لا يستند إلى تجربة نفسية حقيقية. ويندر أن يأتي بشيء ذي بال. وأعتقد أن القراء الذين يحرصون عليه يعجبهم ما ينطوي عليه، غالباً، من فكاهة ودعابة. إلاّ أن النكتة شيء، والشعر شيء آخر.

الفصل الثالث عشر

.. والحياة

ومن لم يعشــق الــدنيا قـــديماً؟

ولكــن لا ســـــبيل إلى الوصــال

المتنبي

الشعر والصدمات الحضارية..

*** ماذا عنيت «بالصـــدمة الحضارية» التي واجهتك في القاهرة - و«الصدمة الكبرى» التي اعتورتك في أمريكـــا؟**

علي محمود

❖ في مجتمع الأحساء الذي ولدت فيه، وفي مجتمع البحرين الذي انتقلت إليه وأنا في الخامسة، كان أفراد المجتمع يعرف بعضهم بعضاً. وإذا تذكرت أنني ولدت في عائلة يقدر عدد أفرادها بالعشرات - وربما المئات الآن - أدركت أنني كنت محاطاً أينما ذهبت بوجوه أعرفها وتعرفني. في القاهرة، تغيّر هذا الوضع إذ وجدت نفسي فجأة في مجتمع يتكون من ملايين لا أكاد أعرف منهم أحداً. كان هذا الوضع في بادئ الأمر مصدر وحدة ووحشة وألم، وشوق إلى المكان القديم المألوف. ثم، بطبيعة الحال، مع مرور الأيام تطورت الأمور فأصبحت أشعر وأنا في القاهرة أنني في وطني. وعندما غادرت القاهرة بعد انتهاء سنوات الدراسة الجامعية كنت أشعر بالفعل أنني أترك بقعة لها موقع قريب من شغاف القلب وذكريات لصيقة بالروح (لا يزال الموقع! ولا تزال الذكريات!).

غير أن «الصدمة الحضارية» الحقيقية كانت في مجتمع الولايات المتحدة، هذا المجتمع الذي يختلف جذرياً عن مجتمع المملكة ومجتمع البحرين ومجتمع مصر. السرعة المذهلة في كل شيء. التنافس الرهيب. المادية الواضحة. إنشغال كل إنسان بأموره الخاصة. التقدم التقني الرهيب. العلاقة المختلفة تماماً عن العلاقة في الشرق بين الجنسين. كل هذه أمور يقف أمامها كل طالب شرقي يذهب إلى الولايات المتحدة مبهوراً مذهولاً. وأعتقد أن قلة فقط من الطلبة الشرقيين هم الذين سلموا من شعور الوحشة الرهيب في بداية اتصالهم مع المجتمع الأمريكي. إلا أن كل «الصدمات» تخفّ بمرور الوقت. وقد كان هذا شأن تلك الصدمة الحضارية إذ أنها بدأت تتحوّل إلى تأقلم تدريجي وإن كانت قد تركت في نفسي - وفي شعري - بصمات لا تنسى.

الأستاذ.. والوزير.. والشاعر:

*** غازي القصيبي.. شاعراً.. وأستاذاً جامعياً.. ووزيراً.. كيف تفاعلت هذه الجوانب مع بعضها البعض؟ ماذا أخذ كل جانب من الجوانب الأخرى وماذا أعطـــى لهـــا؟**

«مجلة أهلاً وسهلاً»

❖ لقد تعلمت من بقائي في الجامعة سنين طويلة، طالباً وأستاذاً، قواعد البحث العلمي والمنهج الموضوعي، وأعتقد أنني، مسؤولاً، حاولت، قدر طاقتي، اعتماد الطريقة المنهجية أساساً لصنع القرارات. من ناحية أخرى، كنت دائماً أذكر نفسي، مسؤولا، إن السلطة ظاهرة زائلة عابرة وأن على المرء أن يبذل دائماً جهده لئلا تؤثر خمر السلطة على اتزانه ولعل كوني شاعراً قد ساعد على تكوين هذه الحصانة. من ناحية ثالثة، لاشك أن عملي وزيراً قد ساعدني على أن أرى جوانب من الطبيعة البشرية يصعب الاطلاع عليها إلاّ من مثل هذا الموقع. ولا أشك أن هذه الخبرة ستفيدني إذا عدت إلى التدريس الجامعي، ربما كانت قد أفادتني شاعراً. تسألني هل استفاد الشاعر من الأستاذ الجامعي ومن الوزير أم كان الضرر أكبر فأقول - صادقاً - إن هذا سؤال لا أعرف الإجابة عليه.

من الطالب... إلى السفير:

*** كيف تطوّر شعر غازي القصيبي، الطالب، المراهق، الابن، العاشق، الأب، صاحب المناصب، الوزير.. السفير؟**

ايمان علي

❖ تطوّر مع تطوّر حياتي نفسها، حادثة حادثة، مرحلة مرحلة. تجربة تجربة. وإذا عدت إلى أشعار من **جزائر اللؤلؤ** الذي كتبت معظم قصائده بين سنيّ السابعة عشرة والعشرين **والعودة إلى الأماكن القديمة** الذي كتبت معظم قصائده بعد سن الأربعين أحسست بالمسافة الهائلة التي تفصل شعر اليوم عن شعر الأمس. لقد تركت الأيام والليالي بصماتها على نفسي، وبالتالي على قصائدي وهذا هو الأمر الطبيعي الذي ينسجم مع سنن الحياة ونواميسها. إن هموم المراهق غير هموم الشاب غير هموم الكهل (أما هموم الشيخ فلم أصل إليها بعد!). إنني أتمنى أن يظلّ شعري في حالة تغيّر مستمر ويستوي عندي، بعدها، أن يكون التغيّر إلى الأفضل.. أو الأسوأ.

الشعر.. بين الزمان والمكان:

*** إحساسك بالزمان يرتبط بالفجيعة - وإحساسك بالمكان مخالف لذلك - فما مردّ هذا التباعد؟**

عبدالحميد الحادين

❖ لا! الفصل بين الزمان والمكان، شعرياً، أمر مستحيل أو يكاد يكون مستحيلاً. ولو

استطاع شاعر أن يتصوّر مكاناً بدون زمان، أو زماناً بدون مكان لخرج علينا برائعة من روائع «اللا معقول». هل تريد مثلاً؟ زقاق في المنامة.. - ولكن متى؟. لهذا الزقاق رائحة في سن الخامسة، ورائحة مختلفة في سن الخامسة والعشرين، وثالثة في سن الخمسين.. فعن أي زقاق أتحدث؟ تريد مثلا ثانياً؟ فتى في العاشرة.. ولكن أين؟ في حصة الحساب التي يمقتها؟ أم في حصة الإنشاء التي يعشقها؟

لقد وضع ابن الرومي يده ببراعة على هذه العلاقة الديناميكية بين الزمان والمكان عندما قال:

وحـــبّــب أوطــان الــرجــال إلــيــهــم

مــآرب قضـاهـا الشـبـاب.. هـنـالـكـا

إذا ذكـــروا أوطـــانــهـــم ذكـــرتـــهـــم

عـهـود الصـبـا فـيـهـا فـحـنـوا لـذلـكـا

فالمكان (الأوطان) لا معنى له بدون الزمان (الشباب). والشباب (الزمان) ضائع بدون الأوطان (المكان).

عن الأماكن القديمة:

*** من يقرأ اشعارك يحسّ بحجم الحنين الهائل الذي تحمله لزمن البراءة الأول، ولأماكن الطفولة الأولى، فما قيمة الزمان والمكان في تجربتك الشعرية؟**

محمد همام

❖ من منا لا يحن إلى الزمن القديم؟ حتى ابني فارس الذي لم يتجاوز الثامنة يتحدث معي أحياناً بحنين عن تجربة مرّت به «عندما كان صغيراً!» كانت الحياة يوماً ما أقل تعقيداً، أكثر براءة، أغزر شعراً، أو هكذا تبدو الآن. ثم جاءت الأيام والأعوام تقتل الأحلام الأولى، تغتال «الفارس القديم» كما يقول صلاح عبدالصبور، تأخذ الهموم الصغيرة من الأكتاف الصغيرة لتضع الهموم الكبيرة على الأكتاف الواهنة: هموم الصراع مع العيش، مع الواقع، هموم المعركة الأزلية بين الإنسان والوحش والملاك اللذين يسكنان أعماقه، وهموم الهزائم المتوالية في هذه المعركة. ألا يبدو الزمن الأول أرق وأحنى؟ ألا تبدو الأماكن القديمة أكثر جمالاً وحناناً؟

وما أدراك ما المناصب؟!

*** غازي السفير.. وزير الصناعة.. وزير الصحة.. الدكتور.. وغازي الشاعر.. هل الشعر يخدم فيك هذه المناصب؟ أم هذه المناصب تخدم فيك الشعر؟**

عبدالحميد الحادين

❖ المناصب لا تهم كثيراً أو قليلاً في ميزان الأدب. هل يهمك الآن أن بدوي الجبل كان وزيراً للصحة؟ أو أن عمر أبو ريشة كان سفيراً؟ أو أن «جوته» كان وزير المالية في مقاطعته؟ أو أن أبا تمام كان «مدير عام» بريد الموصل؟ أو أن ابن المعتز كان أمير المؤمنين لمدة ٢٤ ساعة؟ أعتقد أن المهم هو الشعر وما ينطوي عليه من تجربة إنسانية صادقة. هذا ما سيبقى بعد أن تذهب الألقاب كلّها.. وتقفل كل دواوين الخدمة المدنية. ولا تنس أن أعظم شعرائنا لم يتمكن من الحصول على أيّ وظيفة في أي ولاية؟

والمنصب.. مرة ثانية!

*** ألا يشكل منصبك الرسمي عائقاً كشاعر في طريق التعبير عن أفكارك؟**

ايمان علي

❖ قد تحول الوظيفة دون النشر، ولكن كيف تحول دون الكتابة؟ ثم ماذا عن أولئك الذين لا يشغلون وظائف رسمية؟ هل لاحظت أنهم في عالمنا العربي السعيد هذا يعبرّون عن أنفسهم بكل حرية.. وانطلاق.. وتمرّد؟!

والمنصب.. مرة ثالثة!

*** أنت شـــاعر منتشر الشعر.. فهل هناك أسباب لذلك غير شاعريتك.. كالانتشار من خلال المنـــاصـــب العـــليـــا؟**

عبدالحميد الحادين

❖ الأدب، وحده، وأعني به هنا حسن الخلق، يمنعني من أن أذكرك بعدد من علية القوم على امتداد العالم العربي نشروا الكتب والدواوين والقصص من أرائك السلطة ومع هذا فلم يقرأ لهم أحد، ولم يأبه بهم أحد، ولم يتذكّرهم أحد.

وهج الشعراء.. ومرور السنين

*** يخفت وهج الشعـــراء إذا تزوجـــوا وتعدوا ســـن الإنفعال - فماذا وجدت أنت بعد أن تزوجت وأنجبت وتجاوزت الأربعين؟**

خالد باطرفي

❖ خفوت الوهج هذا دعوى عريضة لم يقم عليها برهان، يروّجها، كما أتصوّر، المراهقون والعزّاب. ليس هناك أي دليل يشير إلى أن مرور السنين أو الزواج أو الانجاب يؤثر تأثيراً سلبياً على الإنتاج الأدبي. والشعراء الذين تألقوا في سنوات غروبهم أكثر من أن نعدهم. ولولا خشية إغضاب شعرائنا العرب «الكبار» الذين يخفون أعمارهم الحقيقية لسردت لك قائمة طويلة من الأسماء. صحيح أن بعض الشعراء لمعوا في أوائل حياتهم ثم خبوا بعدها ولكن هذه حالات فردية يمكن أن تقابلها حالات فردية أخرى لشعراء لم يتألقوا إلاّ مع خريف عمرهم. والمجتمع الأدبي في الولايات المتحدة يتحدّث هذه الأيام عن روائية نشرت روايتها الأولى وهي في سن السبعين.. على أية حال، هذا لا يعني أن انفعال ابن الأربعين هو إنفعال ابن العشرين.. فالمفروض أن تكون تجارب الأيام والليالي قد أضافت بعداً آخر يختلف عن البعد القديم. أما فيما يخصني شخصياً فلا أستطيع الحكم على إنتاجي وإن كنت لم ألاحظ أي انخفاض في الإنتاجية بعد الزواج أو الإنجاب أو الأربعين!

وماذا عن الأولاد.. وأمهم؟!

*** هل أثرت الحيـــاة الزوجيـــة والإنجاب سلباً على شـعرك؟**

راشد الجودر

❖ لا أعتقد ذلك. كثير من الشعراء المبدعين تزوجوا وأنجبوا وكثير من العزاب لم يكتبوا شعراً. ولم يثبت أحد حتى الآن، حسب علمي، ان الشاعر الأعزب أفضل إنتاجاً من المتزوج. بعد ذلك يجب أن نتوقف لحظة لنرى ما يفعله الزواج والإنجاب بالشاعر. لكي يتحدث المرء بصدق عن تجربة ما يجب أن تكون قد مرّت به على نحو أو آخر. الذي لم يعرف الحب لا يستطيع أن يكتب عن الحب. والذي لم يعرف صديقاً واحداً لا يقدر أن يكتب عن الصداقة. تجربة الزواج والأبوة والبنوة تندرج تحت هذا المعيار. هل يمكن لكائنين اثنين أن يعرفا الالتزام المطلق، وما يتبعه من ولاء مطلق، ووفاء مطلق، خارج أسوار الزواج! هل يمكن لشاعر لم ينجب أن يتحدث عن الأبناء؟ عن الفرحة مع أول سن تظهر في فم الطفل؟ عن القلق مع كل مرض أو عرض ينتاب الوليد أو الوليدة؟ الزواج والأبوة، إذن، تجربتان

غنيتان بالحياة وإن كان لهما من تأثير على الإنتاج الشعري فهذا التأثير، فيما يبدو لي، هو أن يجعل الإنتاج أغنى.. وأملأ بالحياة.

الذي لم يكن...

*** هل تعتقد أن أجمل الأشياء التي يبحث عنها الشـــاعر داخـــلك لم تـوجـد بعد لأنك تلهث - ككل الشعراء - وراء الكمال المفقود في الحبيبة وفي الحلم.. وفي الآمال؟ أم أنك تسـعى لإكمال ما لم يستطع الإنسان إكماله في الواقع؟**

محمد همام

❖ المجهول يثير دائماً، يغري دائماً، ويخيف قليلاً. ليس هذا موقف الشعراء وحدهم - أعتقد أنه نبض الطبيعة البشرية. ما نعرفه يصبح تدريجياً مألوفاً - وقد يصبح مملاً. أما ما لا نعرفه فهنا الإثارة.. وهنا الإغراء. تبدو الحياة أحياناً سلسلة من القمم كلما وصلت إلى قمة تحولت إلى سفح.. وبدأت ترتقي القمة المقبلة.. وهكذا ثم أن التساؤل عن الأشياء التي لم تكن تساؤلاً لذيذاً.. ماذا لو أن تلك البسمة العابرة لم تكن عابرة؟ ماذا لو تكلمنا بدلاً من أن نصمت؟ أو صمتنا بدلاً من أن نتكلم؟ ماذا لو ذهبنا إلى هذه الجزيرة، بدلاً من تلك؟ عبرنا هذا النهر بدلاً من ذاك؟ ألا تعتقد أننا نستطيع أن نعيش مع هذه الأسئلة حياة ثانية لا تقل غنى عن الحياة التي عشناها بالفعل؟

ما أشبه الليلة.. بالبارحة!

*** كان والدكم تاجراً وممثلاً للمملكـــة العربيـــة السعودية في البحرين.. وأنت الآن كذلك ولكنك لست تاجراً. فهل من تعليق؟**

عبدالحميد الحادين

❖ على زمن سيدي الوالد، رحمه الله، لم يكن هناك تمثيل دبلوماسي ولهذا كان يسمى «الوكيل التجاري»، وإن كانت كثير من أعمال الوكالة لا تختلف عما نسميه اليوم الأعمال القنصلية. كثيراً ما كنت أجلس معه بعد الظهر في المكتب لأساعده في بعض أعمال الوكالة. وكثيراً ما كان يكلفني بكتابة برقية أو الرد على مذكّرة. ولعله كان يتعمد تدريبي «على رأس العمل»، كما يقولون الآن وأنا بعد طالب في الثانوية. والآن وبعد أن دارت الأعوام دورتها أتطلع إلى برقية ما، أو مذكرة ما، فتبرق في ذاكرتي ملامح أبي الطيبة: عيونه وما فيها من ذكاء حاد، وابتسامته الوارفة.. فأقول «رحمه الله!» وأقول «ما أشبه الليلة بالبارحة»!

معالي الوزير.. وسعادة السفير!!

*** ما الفرق بين الوزارة والسفارة؟ وأين وجدت نفسك أكثر عطاء وتفاعلاً؟**

عبدالله الشيتي

❖ تعودّت منذ بدأت الخدمة العامة على أن أنظر إليها كعملة واحدة تتعدّد وجوهها ومظاهرها ولكن جوهرها الأصيل - وهو أن تعطي من نفسك بقدر ما يمكنك - لا يتغيّر بتغير المسميات والواجبات. كما علمتني الحياة أن المرء يأخذ من كل عمل بقدر ما يمنح هذا العمل. إذا أعطيت عملك كل ما تملك من إخلاص وتفان وجدّ كافأك بمشاعر الرضا والحماس المتجدّد. أما إذا نظرت إلى عملك نظرة لا مسؤولة لاهية تحول رتيباً وعقيماً. أما عن نفسي فإنني لا أجدها في موقع دون آخر؛ إنني أحملها معي حينما أذهب!

مدن... وحسان!

*** ماهـــي أهـــم البلدان التي زرتها وتغـــنيت بها شعراً كما لو كانت نساء؟ هل المدن تتشابه مع النســـاء؟ في أي مدينة وأي امرأة قلت أجمل أشعارك؟**

عبدالله الشيتي

❖ لا أودّ أن نخرج من الأدب إلى الجغرافيا وقد كانت من المواد البغيضة إلى قلبي. ولا أود أن يعتقد أحد أنني ابن بطوطة معاصر. ذلك أنني، في واقع الأمر، قليل الأسفار. والمدن التي تشدني بها علاقات عميقة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة - وقد تتشابه المدن والنساء. وقد لا تتشابه. ولا ينبغي أن نشبه كل شيء نحبه بالمرأة - فهناك أشياء تحب وتكره غير النساء. أسمح لي أن أتجاهل الجزء الأخير من السؤال وأترك الإجابة لرأيك. ذلك أنني لا أريد أن تغضب مني مدينة.. أو حسناء!

الفصل الرابع عشر

... والتجربة

إذا اشـــــتـبهت دموع في خـدود

تبـين من بكـــــى ممن تباكـى

المتنبي

عن مدن الشوق.. ومشاتل الجموح..

***دخلت كل مدن الشوق، وتعرفت على كل مشاتل الجموح المسكون بالتحدي، ترى بأي شيء امتلأت سلال تجربتك؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ لا! لا! لا! هناك مدن كثيرة للشوق لم أزرها وإن كنت أنوي زيارتها حالما تنهي إجراءات التأشيرة وهي أحياناً طويلة ومعقدة كما يعرف كل المسافرين. لا! لا! لا! هناك مشاتل كثيرة لم أسرق منها بنفسجة واحدة، ولا أزال أبحث عنها بين غابات الزهور الصناعية والبيوت الخضراء الدافئة التي تربّى فيها «الكوسة» بدون تربة و«الفراولة» بدون طعم. وسلال التجربة؟ من قال انها ممتلئة؟..

.. وزوادتي كسرتان من الخبز..

شيء من الملح..

بعض قواف جفاها البريق

التجربة تجدها عند الفلاسفة ومحاضري الاذاعة والتلفزيون. هؤلاء هم بيوت الحكمة المتنقلة. أما الشعراء فسلالهم خالية الوفاض. كل تجربة تجيء تقذف بما قبلها إلى قاع «فيزوف». لا تسأل الشاعر عن «التجربة» – إسأله عن آخر تجربة.

صنع القصيدة...

*** ماهي القصيدة بالنسبة لك؟ وكيف تصنع قصيدتك؟**

محمد همّام

❖ أنا لا أصنع قصيدتي! هذه حقيقة مؤكدة! القصيدة تولد في الأعماق التي لا أكاد أعرف عنها شيئاً. في الأعماق السابحة في الظلام كأغوار المحيطات تتكوّن القصيدة تدريجياً من عشرات العواطف، من عشرات التجارب، من كلمة هنا، من نظرة هناك. هذا المزيج العجيب يختمر في هدوء، أياماً أو أسابيع أو شهوراً أو سنين. ثمّ في لحظة سحرية، بسبب أو بدون سبب، تنفجر القصيدة وأقف مبهوراً أتفرّج على هذا الحريق الساحر. هذه هي القصيدة عندي: بركان في أغوار النفس ينام. ويتأمّل، ويفكر، ويعاني، ويكابد، ثم ينفجر شعراً. حياة متجدّدة مع اللهيب المتجدّد حياتي مع الشعر.

في أعماق التجربة...

*** هل يجب أن يعتمد الشاعر على التجربة الصادقة؟ بمعنى أن الشاعر الذي يعيش تجربة ما يستطيع أن يجسدّها أكثر من الشاعر الذي لم يعشها؟**

نبيلة سليمان

❖ نعم! بل أذهب أبعد من ذلك فأقول إن الشاعر الذي لم يعش تجربة ما سوف ينتج لنا «منظومة» لا قصيدة. على أنه بعد أن نقرر ذلك لابد من إيضاح الأمور حتى لا تختلط. «التجربة» ليست بالضرورة حادثة محدّدة.

هناك فارق هائل بين أنواع التجارب بحيث يصبح التعميم تضليلاً. هناك «تجربة» تستغرق العمر كله، كتجربة الحياة نفسها. و«تجربة» تدوم لحظات، وتختفي مع النظرة أو الإبتسامة أو الوردة. وهناك «تجربة» تختمر شعراً خلال أيام. و«تجربة» تختمر عقوداً. و«تجربة» لا تتحول إلى شعر. كما أن علينا أن نحدّد بدقة معنى «الصدق» في «التجربة الصادقة» . ليس المفروض أن تكون القصيدة نسخة فوتوغرافية من التجربة التي ولدتها وإلا كانت نثرّاً تفصيليّاً شبيهاً بالمواصفات والمقاييس. أحياناً لا يكاد القارئ يتبين أثر التجربة في القصيدة إلاّ في رموز وإيحاءات تأتي خطفاً هنا وهناك. أحياناً تختلط عدة تجارب، قد تكون متناقضة، في قصيدة واحدة.

أتريدين أن تعرفي السرّ البسيط العميق لمشكلة الغموض في الشعر؟ إنها تنشأ عندما يتحدث الشاعر عن تجربة لم تمرّ بالقارئ. يصبح القارئ هنا كمن يقرأ كتاباً بلغة لا يحسنها!

وماذا عن شعر المناسبات؟!

*** في ضوء هذا الحديث عن التجربة، ماهو رأيك في شعر المناسبات؟**

نبيلة سليمان

❖ من الواضح جداً، لي أنا على الأقل، أن أي شيء يكتب لمجرد المناسبة، سواء كانت قدوم شهر أو مطلع سنة أو زفاف وجيه، ليس بشعر بل انه، في أفضل حالاته، نظم ردئ. بعد أن نفرغ من هذه البديهية يجب أن نقول إن الشاعر قد يكتب قصيدة تتصادف مع مناسبة تكوّن تجربة حقيقية لدى الشاعر. نحن هنا لم نعد نتحدث عن «مناسبات» ولكن عن

«تجارب». ولهذا السبب فأنا لا أستطيع أن أعتبر الشعر الذي يكتبه شاعر عن حزيران الأسود أو عند وداع عزيز عليه أو مع ضحكة أول أطفاله من شعر المناسبات. لابد أن ندرك أن المناسبة لا تنفي، بالضرورة، التجربة. وهذا أمر يخلط فيه كثير من النقاد المعاصرين الذي يستبعدون شعراً حقيقياً رائعاً لمجرد أنه وقع مع مناسبة ما، ويتناسون التجربة التي كانت الخلفية الفعلية للقصيدة.

الشعر وهموم الإنسان...

*** لماذا لا يعبر الشعر عن قضايا الإنسان وهمومه؟**

ايمان علي

❖ هذه هي طريقة طريفة في وضع السؤال. والجواب هو أن الموضوع لا يمكن أن يعالج بهذه البساطة الآسرة. الشعر ليس دعاية تجارية وليس منشوراً سياسياً وليس مقالاً صحفياً. الشعر معاناة نفسية حميمة صامتة تتحول إلى كلمات عبر عملية غريبة أشبه ما تكون بالسحر والألغاز والطلاسم - الشاعر نفسه لا يدري كيف يقول الشعر، ولا لماذا يقوله، ولا يقرر طبيعة قصائده. وعندما يتخذ الشاعر، أي شاعر، قراراً بأن يتحوّل إلى متحدث بإسم الإنسان وقضاياه فإنه، في الغالب، يحوّل إنتاجه الى دعاية تجارية أو منشور سياسي أو مقال صحفي. لماذا ينجح بعض الشعراء في التعبير عن الهموم الإنسانية دون غيرهم؟ السرّ هو الموهبة. والموهبة لا تشترى في الدكاكين، ولا تعلّم في الجامعات ولا تأتي مع الايديولوجيات. الموهبة من فضل الله يؤتيه من يشاء.. بحساب وبدون حساب.

عن الشعر... والفقر...

*** هناك من يقول انك لم تعبرّ عن معاناة الإنسان لأنك من طبقة مرفهة ومقتدرة.. فما هو تعليقكم على ذلك؟**

ايمان علي

❖ وهناك من يقول ماهو أسوأ من ذلك! لو كانت معاناة الإنسان الوحيدة على الأرض هي العوز المادي، وهي حالة لم أجربها بحمد الله لا بفضل نبوغي المتوهج رغم أنها كانت دائماً حقيقة أساسية من حقائق وجودي، لكان القول صحيحاً إلى حد كبير، إلا أن معاناة الإنسان تتخذ ألف لون ولون وقد عشت من هذه الألوان ما شاء لي قدري أن أعيش، الأمر الذي يسمح لي بالحديث عن المعاناة الإنسانية بقدر لا بأس به من الخبرة الشخصية.

وماذا عن ورقة التوت؟!

*** ألا زالت ورقة التوت هي القضية؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ ورقة التوت؟! قضية؟! لست متأكداً أنني أفهم المقصود. هل بدأت تتأثر بالحداثة؟ لعلّك تقصد بورقة التوت محاولة الإنسان الاختفاء عن الآخرين. لا! ليست هذه القضية. القضية، كما قال أحدهم «لا يوجد إنسان/جزيرة».

وشرارة الإبداع!

*** لكل مبدع شرارة تشعل مسك إبداعه - ترى من أين جاءت شرارتك؟ ومتى؟**

خالد باطرفي

❖ لا! لا توجد شرارة واحدة إلا عند مجانين المبدعين مثل «مجنون ليلى» أو «مجنون إلزا» أو «مجنون أم كلثوم». الشاعر يمتصّ التجارب طيلة الوقت في عملية لا شعورية لا تنقطع ليلاً نهاراً. يمتصّها كما تمتصّ الأسفنجة قطرات من الوقود حتى تمتلئ وتصبح جاهزة للاستعمال. عندها قد تكون الشرارة أي شيء: نظرة عابرة، مقطعاً من أغنية، صورة فوتوغرافية باهتة الألوان، قصيدة نقرأها أو نسمعها، محادثة هاتفية، رسالة. وقد لا يكون هناك شيء محدد، لا تكون هناك شرارة. أحياناً يزداد ضغط الأوكسجين فيحصل احتراق داخلي فوري دون حاجة إلى تدخل عامل خارجي.

شعر السياسة.. وسياسة الشعر!

*** ماهي تجربتك مع الشعر السياسي؟**

ايمان علي

❖ لم أتعمد يوماً أن أكتب «شعراً سياسياً». كما لم أتعمد يوماً أن أكتب شعراً عاطفياً. عندما أبدأ كتابة القصيدة أجهل كيف ستنتهي. لقد عبرّت عن مختلف تجاربي شعراً فكان من الطبيعي أن يتنوع الشعر بتنوع التجارب. إلاّ أنني لم أحاول الدفاع عن وجهة نظر سياسية معينة، ولم أحاول بطريقة شعورية على أي حال. لقد قيل عن الحطيئة أنه «عبد من عبيد الشعر». وأنا، بدوري، عبد آخر. ذلك أن الشعر يملكني.. ولا أملكه.

عن البحر... وعن الصحراء!

*** يتـــردّد ذكـــر البحـــر في كثير من قصـــائدك. كما يتردد ذكـــر الصـــحراء. لماذا؟**

راشد الجودر

❖ لنبدأ بالبحر. العلاقة التي تربط أيّ كائن حيّ بالماء علاقة وطيدة لا تخلو من أبعاد ميتافيزيقية وفلسفية. نحن نعرف أن الله سبحانه وتعالى جعل كل شيء حي من الماء. وكان عرشه على الماء. نعرف، إذن، أن الحياة بدأت من الماء. نعرف أن الماء يشكل الجزء الأكبر من جسد الإنسان. هناك علاقة ضاربة في الأعماق، أعماق التاريخ وأعماق النفس، بين الإنسان والماء. والبحر، باعتباره أكبر المسطحات المائية، يشدّ الإنسان شداً غير مرئيّ. ويشدّ الشاعر أكثر من غيره. خصوصاً إذا كان الشاعر قد ولد ونشأ على أحضان البحر. كما حدث لي.

نأتي إلى الصحراء. الصحراء، ببساطة، هي مهد العرب. شهدت مولدهم، ومنطلق رسالتهم، وانبعاث حضارتهم. والصحراء، بكل جفافها وهجيرها وسرابها وواحاتها، بكل معانيها وأبعادها، تسكن في أعماق كل عربي. غيرنا انطلق من وديان الأنهار أو المراعي، أو الجبال. ولكننا انطلقتنا من الصحراء. شئنا أو لم نشأ فالصحراء حية في الذاكرة الكلية للعرب، وجزء لا يتجزأ من الوجدان العربي.

أريد أن أضيف شيئا آخر. البحر ليس بالضرورة نقيض الصحراء. وجوه الشبه كثيرة ومتعدّدة. الصحراء، في نظري، بحر متجمد من الرمال والبحر صحراء تسيل.

تجارب لم أعرفها...

*** ماهو الجـــانب الذي لم يتطـــرق إليه شـــعـرك.. ولمـــاذا؟**

ايمان علي

❖ لابد أن هناك عدداً غير متناه من التجارب الإنسانية التي لا تنعكس على شعري. وأنا لم أحاول، ولا أعتقد أن غيري من الشعراء حاول، تغطية كل مجال من مجالات النشاط الإنساني شعراً. الشعر ليس عملاً موسوعياً يتضمن نبذة عن كل شيء ولكنه تعبير عن علاقة ذاتية حميمة بين الشاعر وحياته ولا يوجد شاعر واحد، حتى شكبير أو المتنبي،

يستطيع أن يعيش تجارب البشر أجمعين.

الشعر... و«الغرض»!

*** أهناك من أغراض الشعر العربي ما تعرض عنه وتأباه.. ولماذا؟**

علي محمود

❖ لقد عبرّت عن تجاربي بصدق وأمانة. أو حاولت ذلك على الأقل. ولم يكن يخطر ببالي عندما أكتب أي «غرض» من «أغراض» الشعر العربي التقليدية. أعني أنني لم أكن أصنف ما أكتبه ضمن «الأغراض» القديمة. بل أنني أعتقد أن كثيراً من قصائدي يصعب أن تصنّف حسب هذه الأغراض. وسوف أستمر في كتابة تجاربي بصدق وأمانة دون أن يهمني في كثير أو قليل أن تدخل ضمن الموروثات القديمة المصنفة أو لا تدخل. يكفي أن تكون شعراً!

بالعاطفة... أو بالعقل؟!

*** كيف تكـــتب؟ بعــاطفتك؟ بعقـــلك؟ بمـــاذا؟**

خالد باطرفي

❖ أحب أن أقول، أولاً، إنني لا أكتب إلا بقلم حبر ذي ريشة طويلة كلاسيكية، أسود اللون، ضخم الحجم، ألماني الصنع. بعد هذه المعلومة التي لا تضرّ ولا تنفع (إلا ربمّا الشركة التي تصنع هذه الأقلام!)، أقول إنني خادم القصيدة لا سيدّها. القصيدة هي التي تقرر هل أستخدم رأسي أو قلبي أو أي مزيج منهما. أنني أغبط أولئك الذين يتحكمون في كتابة الشعر - أما أنا فكتابة الشعر تتحكم فيّ. التجربة نفسها تفرض عليّ الوزن والقافية والكلمات. وأنا، تحت تأثير اللحظة الشاعرة، أداة طيعة لا حول لها ولا قوة. أسأل سادة الشعر.. أما أنا فمن عبيده.. «وما فيّ إلا تلك من شيم العبد».

الحريق! من أين! وإلى أين؟

*** هذا الحـــريق المتواصـــل في قصـــائدك - من أين يأتي؟ وفي أي أرض يحـــط؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ الحريق!؟ هل يعرف أحد من أين يجيء الحريق؟ الحريق يجيء من كل مكان. من

تلك النظرة الناعسة التي لم تقف لتسلّم. من تلك الضفيرة الواعدة التي حطت على كتف الغروب. من ضحكة الطفل الصغير. يجيء أيضاً من الخنجر المسموم المزروع في القلب. من منظر المجاعات في التلفزيون. من الجثث الممزقّة. من الشرف «المفروم فرماً» من نشرة الأخبار. يجيء، صدق أو لا تصدق، من عناوين الصحف. من صورة باهتة في دولاب عتيق. من أغنية: حريقي ليس من النوع الارستقراطي الذي لا يشتعل إلا في قمم «الأولمب» الصافية. ولا هو من النوع البيروليتاري الذي لا يتولدّ إلاّ في عرق الكدح. حريقي متسامح إلى أبعد الحدود: يشتعل بكبريت وبدون كبريت، بسبب وبدون سبب (أعني بدون سبب نفهمه نحن).

أين يحطّ؟ آه! هذا الحريق سريع الحركة. لا تكاد تشعر به في عينيك حتى ينتقل إلى فمك. قبل أن تصرخ ينتقل إلى يديك. قبل أن تستطيع لمسه يفرّ إلى روحك. هناك يلعب لعبته المفضلة. يغيب ويظهر. «كما تلوّن في أثوابها الغول». في أحيان نادرة أستطيع اصطياد شرارة منه أسجنها في شطر أو بيت أو مقطع. هل تريد اعترافاً صغيراً؟ لو تمكنت من اصطياد شرارات أكبر لكنت شاعراً حقيقياً!

السَّكين.. أم أهداب المرأة؟!

*** إذا خيرتَ أن تكتب بأهداب امرأة أو بحدِّ السكين فأيهما تختار؟ وفي أيهما أنت أقدر؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ في هذا السؤال ظلال «نزارية» ألم يقل نزار:

ياوطني الحزينْ

حولتني بلحظةٍ

من شاعر يكتب شعر الحب والحنينْ

لشاعر يكتب بالسكينْ

وتراودني رغبة ماكرة في أن أجيب إجابة نزارية فأقول إن أهداب المرأة أحدّ من نصل أي سكين. ولكن هذا الحديث معي وليس مع نزار، فلندعه جانباً. أنا، ياسيدي، لا أكتب إلا بقلمي الأسود. ماذا أكتب به؟ كيف أكتب به؟ هذا هو السؤال! السؤال سهل والإجابة صعبة. أتذكر شرارة الحريق التي تحدثنا عنها قبل قليل؟ هي التي تحسم كل شيء. عندما تكون

الشرارة آتية من عين حسناء يتحرك القلم ليرسم عين حسناء. عندما تكون الشرارة قادمة من طفلة جريحة يتحرك القلم ليرسم طفلة جريحة. تسألني على أيهما أنا أقدر رسم الفرح أو رسم الترح. لا أدري ولا القلم يدري! الجواب عن الشرارة!

عن الشعر.. والسحر!

*** حدثنا عن القصيدة.. من أين تجيء؟ وكيف؟**

راشد الجودر

❖ الحديث عن ميلاد القصيدة ينقلنا من الشعر إلى السحر. ميلاد العمل الشعري يكاد يكون سحراً. ربما لهذا السبب كان الإغريق يؤمنون بوجود «ربّة» للشعر تلهم الشعراء. وكانت الملاحم الإغريقية تبدأ بنجوى هذه «الربة» طلباً للوحي. كما أن العرب واجهوا ظاهرة الشعر بانبهار. كيف يأتي هذا الكلام الجميل الغريب؟ كيف يجيء فجأة؟ كيف يثير ويهز - كما لا يثير ولا يهزّ النثر؟ وكان الجواب بسيطاً: هناك «شياطين» تسكن في عبقر وتقذف الشعر في روع الشعراء. ولكل شاعر شيطانه. وتحتوي كتب التراث على قوائم بأسماء شياطين الشعراء، وهي بالمناسبة، أسماء طريفة للغاية. نحن الآن في القرن العشرين وقد ابتعدنا كثيراً عن عصر الإغريق وعصر الجاهلية. ولكننا لم نحرز تقدماً يذكر في فهم العملية الشعرية. نحن نعرف أن القصيدة تولد في «اللاشعور». ولكن ما الذي نعرفه عن هذا «اللاشعور»؟. أقلّ من القليل. كل ما نعرفه أنه عالم حي قائم بذاته. إنه المخزون الذي يحتوي على ذكريات الطفولة، على صور الماضي. كل تجربة مرت بنا وسقطت من الذاكرة تستقرّ في هذا المخزون. تتكون القصيدة في «اللاشعور» كما تتكون اللؤلؤة تماماً: حبّة رمل تدخل المحارة وتبني حولها الهالة البيضاء البراقة تدريجياً. كذلك القصيدة. تبدأ حبة صغيرة في عالم كبير ثم تبني حولها بيتها الأبيض الجميل. تبنيه من ماذا؟ من كل شيء تجده حولها: من الآلام، من الأحلام، من الاحباطات تبنيه في صمت، في هدوء، بدون عجلة. تبنيه دون أن يدري الشاعر نفسه بما يدور داخله. حتى إذا اكتملت اللؤلؤة (القصيدة) انفجرت، فجأة، على العالم الخارجي. قد لا تستغرق الكتابة سوى ساعتين أو ثلاث. ولكن هذا ليس عمر القصيدة الحقيقي. عمرها بدأ حين بدأت الرملة الصغيرة رحلتها قبل شهور أو سنوات أو عقود من الزمن.

هذا ليس تحليلاً للعملية الشعرية. فالشعر لا يُحلّل ولا يعُلّل. وأرجو أن يظل الشعر كذلك.. إلى الأبد. إن مختبرات العلماء ضرورية جداً ولكنها ضيف ثقيل على الشعر والشعراء.

«أعذب الشعر أكذبه»؟!

*** قال النقاد القدامى إن «أعذب الشعر أكذبه» ما مدى صحة هذه المقولة؟**

«مجلة الفيصل»

❖ لا يجب أن نعطي هذه العبارة حجماً أكبر من حجمها الحقيقي فهي لا تمثل نظرية مستقرة في النقد، ولا حكماً موضوعياً تمّ الوصول إليه بعد جهد وعناء. ويغلب على ظني أن العبارة انطلقت عفواً في بادئ الأمر ثم «جرت مجرى الأمثال» وأشك أن أي شاعر حقيقي قد أخذها مأخذ الجدّ، أو توقف عندها طويلاً. وتفسيري الشخصي لهذه العبارة أنها تعتبر مجرد تسجيل لحقيقة واقعة وهي أن الشعر يجب أن يتضمن «شيئاً» ما فوق تصوير الواقع. لقد قلت من قبل وأكرر هنا أن الشاعر يختار من الواقع بعض زواياه وألوانه وظلاله، وليس مصوراً فوتوغرافياً يعكس الواقع كما يراه بكل حذافيره.

أكذب الشعر.. ومراثي هذيل؟!

*** سئلت هذيل «ما بال المراثي أجود أشعاركم؟» فقالت «لأنا نقولها وأكبادنا تحترق» أرادت عنصر الصدق.. كيف نوفق بين هذا العنصر وبين مقولة «أعذب الشعر أكذبه»؟**

«مجلة الفيصل»

❖ إنني مع هذيل إلى النهاية. معها في أن الشعر الصادق هو ما ينبع من تجربة حقيقية، حزن حقيقي أو فرح حقيقي. ومعها أن أشعار الرثاء تتميز، في العادة، بصدق وحرارة وعفوية قد لا نجدها بنفس القدر في «أغراض» الشعر الأخرى. ولا أعتقد أنه يجب أن نوفق بين هذا المنطلق وبين عبارة «أعذب الشعر أكذبه» فالعبارة الأخيرة كما قلت قبل قليل لا تمثل وجهة نظر مدروسة ينبغي الوقوف عندها وتحليلها، والتوفيق بينها وبين ما قالته هذيل أو قاله غيرها. أعتقد أن موقف الشاعر الحقيقي من هذه القضية هو ما قاله شاعرنا الجاهلي:

وإن أحسن بيت أنت قائله
بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وإلى العاطفة والعقل نعود!

*** الشعر عند بعض الشعراء عملية ذهنية ذات أبعاد وزوايا.. وعند بعضهم الآخر تجربة تخضع لكثير من العوامل.. أين يقع الشعر في رأيكم من هؤلاء وأولئك؟**

«مجلة الفيصل»

❖ لا أعتقد أن بإمكان أحد، شاعراً كان أم ناقداً، أن يجيب على هذا السؤال بدقة ووضوح. وأنا، شخصياً، أشك في أن هناك نوعين من الشعراء أحدهما يعتبر الشعر عملية فكرية خالصة والآخر يعتبره عملية عاطفية أو نفسية. وأعتقد أن هذا الانطباع يتولد عند القارئ بعد أن يقرأ عملاً شعرياً معيناً فيتصور أن كتابة القصيدة كانت بالنسبة للشاعر عملاً فكرياً أو عملاً عقلياً يحتاج إلى مجهود ذهني أو يتصور، على النقيض، انها كتبت بعفوية وانطلاق. وليس هذا الموقف بالجديد فنحن نذكر عبارة المعري الشهيرة «المتنبي وأبو تمام حكيمان أما الشاعر فالبحتري» - وهو حكم لا أشك أن هناك من يجادل فيه بشدة. إن كل الشعراء، فيما أعتقد، ينظرون إلى العملية الشعرية التي تسبق المخاض وتواكبه على أنها مزيج من العوامل الواعية والعوامل اللاواعية، مزيج من الذكاء والعاطفة، مزيج من العقل والقلب. وأعتقد أن أي شاعر سيشعر بالإهانة فيما لو قيل له إن شعره يمثل مجهوداً ذهنياً أو فكرياً خالصاً. غير أن مدى نجاح الشاعر فنياً في التعبير عن تجربته هو الذي يحدد موقف القاريء منها، فعندما يتلقى القارىء تجربة الشاعر وقد عبرت عن نفسها بطريقة تقريرية مباشرة، يعتبر القصيدة عملاً فكرياً جامداً وعندما يلمس في القصيدة روحا شفافة موحية معبرة يتصور أنها ولدت بمنأى عن سلطان الفكر الجامد. إن العملية الشعرية لا تزال، وستبقى، مليئة بالألغاز والأسرار. والشعراء أنفسهم أعجز من أن يستطيعوا فهم هذه الألغاز والأسرار. وهذا التفاعل الكيمائي السحري بين الفكر والإحساس سيبقى أحد جوانب هذه العملية المحاطة بحجاب كثيف من الغموض.

الفصل الخامس عشر

... والحب

لعينيكِ ما يلقى الفــــؤاد.. وما لقــى

وللحــب ما لم يبـق مــني.. وما بقى

المتنبي

*** حـــــدثنا عن المـرأة في حــــياتك وفي شـــعرك..**

راشد الجودر

❖ قصتي مع المرأة بدأت قبل أن أولد! بدأت وأنا جنين تحمله أمي، رحمها الله، في أحشائها. ولم تنته. ولا أتوقع أن تنتهي إلا بنهايتي. كانت المرأة، دائماً، وجوداً مكملاً لوجودي. كانت، دائماً، رفيقة طريق، وأنيسة عمر، وشريكة رحلة. وكنت نصفاً ضائعاً يتطلع إلى لقاء نصفه الآخر. لم تكن المرأة لدي أبداً وجهاً فاتناً أستوحى منه بيتاً أو بيتين، ثم أنصرف عنه بسلام. وكم أتألم عندما أرى بعض الشعراء يتحدثون عن المرأة شفة مكتنزة، أو صدراً عامراً، أو نظرة ساهمة - ولا شيء بعد ذلك، أو قبل ذلك. هؤلاء الشعراء أبعد الناس عن فهم روح المرأة وإن ألفوا مئات الدواوين عنها. الشاعر الذي يختزل وجود المرأة، بكل طموحاته واهتماماته وتعقيداته التي لا تقل عن طموحات الرجل واهتماماته وتعقيداته، ليصبح قبلة أو لحظة من شهوة عابرة يسيء إلى المرأة إساءة بالغة.. كما يسيء إلى نفسه. فالرجل الذي يحتقر المرأة رجل غير جدير بالاحترام.

كانت المرأة دائماً جزءاً من حياتي. وكان من الطبيعي أن تكون دائماً جزءاً من شعري - لقد وصفت مراراً بأنني شاعر امرأة! - إما بوجهها المباشر، أو رمزاً يمثل الأرض، أو رمزاً يشير إلى الخلاص، أو هذه الأشياء مجتمعة، وإذا كنت لا أستطيع أن أتصور لنفسي حياة بدون امرأة فأنا، بالضرورة، لا أستطيع أن أتصور لي شعراً بدون امرأة.

القناعة الكبرى! القضية الكبرى!

*** المرأة في حــياتك - كيف تتسـلل إليك؟ وبأي القناعات تتوسد ســـاعديك؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ كنت أتمنى لو لم تسألني عن المرأة. فلا هذه الورقة تكفي. ولا أوراق «الندوة» تكفي. ولا جرائد العالم تكفي. كيف أبدأ الحديث؟ تسألني عن تسلل المرأة. أرأيت كيف يتسلل الأوكسجين إلى الدماء؟ كذلك تسللها! هل تتصور الدماء بلا أوكسجين؟ كذلك غيابها! أرأيت كيف يتسلل الشذى إلى الوردة؟ كذلك تسللها؟ أرأيت وردة بلا شذى؟ كذلك غيابها!

المرأة تشرق مع الشمس وتغرب معها. تطلع مع الربيع وتزهر في مواسم الحصاد.

تنبثق من أغنيات الفلاحين. وتترعرع في حداء المسافرين. وتخطر في مواويل البحارة. في كل همسة «ماما!» هناك امرأة.. امرأة رائعة الجمال. في كل همسة «بنتي!» هناك امرأة.. امرأة رائعة الجمال. في كل همسة «حبيبتي!» هناك امرأة.. امرأة رائعة الجمال. القناعات؟ أبداً! المرأة لا تحتاج إلى قناعات. المرأة هي القناعة الكبرى! هي القضية الكبرى! هي الملحمة الكبرى!

الدهشة.. والحب...

*** من كان أكثر تأثيراً في تفجير ينابيعك الشعرية: أول تجربة حب أم أول دهشة أمام الحياة؟**

محمد همام

❖ هل يمكن الفصل بين الحب والدهشة؟ أليس الحب دهشة لا تنتهي؟ أليست الدهشة أمام الحياة حباً؟ فلنقل أنها كانت دهشة الحب.. أو حب الدهشة!

لا شعر إلا شعر الحب!

*** أي من جوانب الشعر أقرب إلى نفسك: الغزل، الشعر السياسي أو الاجتماعي؟**

ايمان علي

❖ أعتقد أن التقسيم التقليدي للشعر بحسب أغراضه قد استنفد أهدافه، وانتهى، أو يجب أن ينتهي. لم يعد لدينا، بحمد الله، باب منفصل من أبواب الشعر للهجاء. والمديح، بدوره، في طريقه إلى الانقراض. وكذلك رثاء الوجهاء والأعيان. شعر «الطرد», وصف الصيد وحيواناته، اختفى. ولم أعد أسمع أحداً يتحدث عن «الشعر الوصفي» أو «شعر الطبيعة».

ماذا يبقى إذن؟ يبقى الشعر/ الشعر وهو شعر حب سواء كان حب امرأة بذاتها (غزلاً) أو وطناً بعينه (شعراً وطنياً) أو الإنسانية جمعاء (شعراً إجتماعياً - سياسياً.. واقعياً).

والفروق بين هذه الأنواع من الحب أضأل بكثير مما نتصور (فلا يوجد وطن دون حبيبة، ولا حبيبة دون وطن، ولا وطن وحبيبة دون انتماء إنساني أوسع). وجميع شعري،

كما يحلو لي أن أتصور، هو من هذا النوع: شعر الحب، بوجوه الحبّ المختلفة.

المرأة.. رمزاً

*** لماذا قلت إن المرأة في قصائدك ليست بالضرورة إنسانة حقيقية وإنها قد تكون رمزاً؟**

علي محمود

❖ لأن هذه حقيقة واقعة. الشعر ليس كاميرا تنقل الواقع بحذافيره ولكنه ريشة فنان تختار من الواقع بعض ملامحه وخصائصه. والرمز في الشعر قديم قدم الشعر نفسه. ولا أظن أحداً بحاجة إلى تذكير أن الشعراء الصوفيين استخدموا الغزل للتعبير عن الحب الإلهي. وفي عدد من قصائدي تظهر المرأة كرمز يتجاوز المرأة بمفهومها البيولوجي المحدّد. قد تكون رمز الحرّية. أو الخلاص. أو الوطن. أو كل هذه الأشياء. ولا أظن أنني أبالغ إذا قلت إن المرأة في كل شعر خالد يندر أن تكون مجرد مخلوقة من لحم ودم - بل إنها، بالإضافة إلى ذلك، تعبير عن معنى كبير يختفي وراء الحب الكبير. هل تستطيع أن تحب امرأة دون أن تحب الأرض التي أنبتتها؟ أو الوطن الذي يضمكما معاً؟ أو المثل العليا التي تؤمنان بها؟ أما أنا فلا أستطيع!

الحب زواجاً

*** هل تزوجت عن حب؟**

عبدالله الجفري

❖ نعم. الحب بمعنى «الرحمة والمودة» لا بمعنى الاحتراق العاطفي.

وماذا عن ابنة الجيران؟!

*** أليست في حياتك «ابنة جيران»؟**

عبدالله الجفري

❖ في سن المراهقة.. كانت هناك.

وهل غازلتها؟!

*** هل قلت فيها شعراً؟**

عبدالله الجفري

❖ قلت قصيدتين أو ثلاثاً. من رديئ الشعر!

وأعجب شعور!

*** هل سبق لك أن شعرت بملل وأنت تتحدث مع امرأة جميلة جداً؟**

عبدالله الجفري

❖ كلا. لم أتعرّف على شعور كهذا بعد.

المرأة «الفقاعة»!

*** الشعر والمرأة.. كيف ترى العلاقة بينهما؟**

محمد همّام

❖ علاقة غير متوازنة تميل بعنف وإصرار إلى جانب المرأة ذلك أنه لا يمكن أن يوجد شعر دون امرأة، بينما يمكن أن توجد امرأة دون شعر. ولكن دعني أسارع فأقول إن هذه المرأة ستكون امرأة عابرة كالفقّاعة لا يعرف تاريخ الجمال ولا تاريخ الجميلات عنها شيئاً. الشعر والمرأة، إذن، يكملان بعضهما. المرأة تجعل الشعر شعراً؛ والشعر يجعل المرأة أحلى.. وأشهى.. أمتع.. وأبقى!

المرأة.. الماضي.. الحب

*** المـــرأة، وذكريات المـــاضي، والحـــب مواضـــيع تتكـــرر في شعرك - فماذا يمثل لك كل منهـــا؟**

ايمان علي

❖ أما المرأة، فلا أتصور وجود شعر بدونها. في البداية جاءت المرأة، ثم جاء الشعر. ووجود بدون امرأة هو وجود نثري إلى درجة الملل المميت. أما الماضي ، فنحن نقضي حياتنا متطلعين إلى الغد، أو مفكرين في الأمس. وإذا كان من الطبيعي أن نقضي صدر حياتنا مع أحلام المستقبل فمن الطبيعي عندما نقارب الأربعين ونتجاوزها أن نعود إلى ذكريات الأمس. أما الحب فهو عمود الشعر وروحه وجوهره. وكل شعر حقيقي هو، في النهاية، شعر

حب. إن الحب والشعر، في كتابي، توأمان من فصيلة التوائم السيامية لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر إلا بقتلهما معاً.

الحب... والمأساة!

*** قلت إن الحب لا يحل مشاكل الحياة.. أتراك اخترت جانب «كورنل» ضد «راسين» في الأدب الشعري المسرحي الفلسفي الفرنسي؟ كان «كورتل» يسمو بالواجب فوق الحب، بينما رأى «راسين» أن الحب دواء لكل داء.**

علي محمود

❖ أعتقد أن الحب، في حد ذاته، لا يمكن أن يحل مشاكل الحياة. بل إن الحب الأبله أو الأحمق يتحوّل مشكلة جديدة من مشاكل الحياة. غير أن الحب المقترن بمثل تسنده ويسندها، بإيمان بخالق الكون ومبدعه، برغبة أكيدة في خدمة البشرية - مثل هذا الحب يستطيع، بالتأكيد، أن يكون مصدر قوة كبيرة يحتاج إليها المرء وهو يواجه زوابع الحياة وعواصفها. المسألة إذن، مسألة تعريف. أي أنواع الحب نقصد؟ إذا كنا نقصد نزوة الجسد العابرة فهذه غريزة بيولوجية لا يمكن أن نطلق عليها اسم الحب. وإذا كنا نقصد شهوة المراهقة المتعطشة فهذه، بدورها، مرحلة عابرة في حياة الإنسان يندر، إن لم يستحل، أن تتحوّل إلى حب حقيقي. أما إذا كنا نتحدث عن إنسان ناضج، ناضج في رؤيته وفي عواطفه وفي تجاربه، فالحب هنا نعمة كبرى من نعم الله.. وسلاح في مواجهة المأساة.

الحنين.. ومرابع الهوى.. والمشاوير

*** حين ينتهي الحنين، وتستكين مرابع الهوى، وتعلن كل المشاوير استسلامها - على أي شيء تحرص؟ وبأي شيء تتمسك؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ هذا ليس سؤالاً! هذه دعوة إلى الشيخوخة وهي دعوة مرفوضة بدون نقاش! حين ينتهي الحنين؟ الحنين لا ينتهي ما دام هناك قلب واحد يخفق. حين تستكين مرابع الهوى؟ مرابع الهوى تظلّ عامرة ما دامت هناك ليلى واحدة تخطر فيها. أما المشاوير فمن طبيعتها أن تبدأ عندما تنتهي. مشوار البرّ ينتهي ليبدأ مشوار البحر. مشوار البحر ينتهي حين يبدأ مشوار الجوّ. وكذلك مشوار الأمل، ومشوار الوجد. ستجدني دائماً مع الحنين العائد.. مع مرابع الهوى الخضراء..مع المشاوير التي لا تنتهي.. أنا والقمر والنجوم.. وديوان شعر!

الحب: أن تحب ما لا يُحب!

*** هل يجب على الشاعر أن يعيش قصة حب دائمة حتى يبدع في شعره؟ وأنت - هل تعيش قصة حب دائمة؟**

نبيلة سليمان

❖ قديما قيل، وبحق، «فاقد الشيء لا يعطيه». الذي لم ير منظر الشروق كيف يستطيع أن يتحدث عنه؟ الذي لم يسمع صوت زخات المطر كيف يستطيع أن ينقل النشوة التي تزرعها زخات المطر لغيره؟ والحب - هذا الجنون المعقد المعطر الجميل! - يصعب الحديث عنه حتى على من عاناه فكيف بمن لم يعانه؟ أن أي شعر يخلو من تجربة حب حقيقي هو نظم محنط مثلج.

ولكن دعيني أتحفظ بعض الشيء على صفة «دائمة» التي وردت في سؤالك. لم يقل أحد أن الحب يجب أن يكون دائماً لكي يكون حقيقياً. الحب يكبر، ويتغير، ويشيخ. ورحم الله كثير عزة:

وقد زعمت أني تغيرت بعدها
ومن ذا الذي يا عز لا يتغيرُ؟!

كما أن الحب يمرض، ويموت، ويولد بعد موته حب آخر، وربما آخر.

دعيني أقول إن المهم هو أن تمتلك المقدرة على الحب. هذه المقدرة لا تعني الشبق واللهفة والوصال فهذه مشاعر بيولوجية تستطيع أدنى المخلوقات في المملكة الحيوانية ممارستها. المقدرة الحقيقية على الحب هي أن نحب ما لا يحب، أن نعشق ما لا يعشق، أن نؤمن بما لا نرى، أن نعطي دون أن نأخذ، أن نعجز عن الكراهية.

لا تسأليني عن نفسي، فهذا الحديث يحرج ويخجل. يكفي أن أقول إنه إذا جاء اليوم الذي أفتقد فيه القدرة على الحب، بمعناه الواسع، فاني أدعو الله أن يكون هذا اليوم آخر أيامي على هذه الأرض.

الأجمل

*** من هي أجمل امرأة في رأيك؟**

عبدالله الجفري

❖ المرأة التي نحبها لحظة السؤال.

وعبر التاريخ؟

*** وأجمل امرأة في التاريخ؟!**

عبدالله الجفري

❖ ليلى.. محبوبة قيس.

والأسخف؟!

*** وأسخف امرأة؟**

عبدالله الجفري

❖ جولدا مائير. عندما قالت «لا يوجد فلسطينيون».

والأوفى؟

*** المرأة أم الرجل.. أيهما أصدق في الحب وأوفى؟**

عبدالله الجفري

❖ لا يمكن التعميم هنا. ربما كان الكلب أوفى الجميع!

هل هناك «قحط ناعم»؟!

*** المرأة في شعرك وأدبك - والمرأة في العطاء الشعري والأدبي كإسم وفعل وتأثير أين هي اليوم؟ وهل تعتقد أن هناك فقراً إن لم نقل قحطاً بين الجنس الناعم، مجاراة بجنس الرجال؟**

عبدالله الشيتي

❖ النساء، ياسيدي، شائق الرجال. وهن يشكلن أغلبية الجنس البشري إذا صدقنا الاحصائيات (كما أنهن أطول أعماراً من الرجال طبقاً لهذه الاحصائيات) والرجل يستقبل أول نسمة من نسمات الحياة في أحشاء امرأة ويفتح عينيه وليدا يصرخ على أحضان امرأة. ويذهب إلى القبر مودعاً ببكاء امرأة (لا تنس أنهن أطول أعماراً!). لابد، والحالة هذه، أن تحتل المرأة مكانها الطبيعي في إنتاج كل شاعر وكل أديب وكل فنان. وهي تحتل هذا المكان الطبيعي في

إنتاجي. وأنا لا أتصور شعراً بدون امرأة إلا إذا تصوّرت كوناً بدون امرأة.

بقى الجزء الثاني من السؤال. وهنا لابد أن أوضح أنني لست من أنصار «الفلسفة العقادية» في المرأة - إن جاز أن نعتبر تطرفه الجامد هنا فلسفة - وهي التي تذهب إلى تفوق الرجل الفطري في كل ميدان - من الطبخ إلى الطب إلى تصميم الأزياء! أعتقد أنه فيما يخص الإنتاج الأدبي فإن تساوي الفرص أمام الجنسين - فرص التعليم وفرص النشر وفرص الذيوع - يعني أن المرأة ستبدع إبداعاً لا يقل عن إبداع الرجل. لقد ألف أبو الفرج الأصفهاني منذ قرون كتاباً عن الاماء الشواعر ضمنه شعراً جيداً لإماء. ألا نستطيع أن نتوقع من حرائر اليوم أكثر من إماء الأمس؟!

الفصل السادس عشر

... والحزن

ألا ليت شعري هل أقول قصـــــيدةً

فلا أشـــتكـــي فيهـــا.. ولا أتعتـــبُ؟!

المتنبي

خبز الشعراء!

*** الحزن خبز الشعراء - هكذا يقال! - فما مقدار حزنك؟**

خالد باطرفي

❖ لا أدري من الذي قال إن الحزن خبز الشعراء. وقائل العبارة، على وجه اليقين، ليس خبازاً وليس شاعراً، على الأغلب. فالخبازون يدركون أن خبز الشعراء لا يختلف عن خبز بقية زبائنهم - فهو لا يعجن بماء الدموع، ولا يطبخ على نار الأشواق. والشعراء، بدورهم، يدركون هذه الحقيقة. فأنا لم أسمع بشاعر أفطر «بسندوتش» حزن، وتغدى بطبق كآبة. وأنا شخصياً آكل الخبز نفسه الذي تشتريه زوجتي للعائلة (متمنياً لو كان يحتوي على وحدات حرارية أقل!).

أريد أن أقول، ياسيدي، إن الشعراء لا يتمتعون بأي احتكار لأيّ من المشاعر الإنسانية المعتادة: لا الحزن ولا السعادة ولا الشماتة ولا الغيرة ولا حب التكاثر ولا حب المال. والذين يروجون لغير هذا هم، في رأيي المتواضع، قوم يهرفون بما لا يعرفون.

تبقى بعد هذه الأوهام حقيقة واحدة وهي أن الشاعر، بخلاف الإنسان غير الشاعر، يستطيع أن يعبر عن حزنه بالطريقة السحرية الغريبة الأخاذة التي نسميها شعراً. هذا لا يعني أن حزن الشاعر أعظم أو أروع من حزن سمسار العقارات أو إسكافي الأحذية أو مهندس الطرق. كل الذي يعنيه هذا هو أن هؤلاء لا يستطيعون أن يعبرّوا عن حزنهم شعراً.

والأمر، بالنسبة لي، لا يختلف. فأنا لست أشد حزناً من الآخرين. ولكنني أتمكن، أحياناً، من التعبير عن حزني بالطريقة التي تعارف الناس على اعتبارها شعراً. هذا لا يجعل حزني حزناً «درجة أولى». وحزن غيري «درجة ثانية». الحزن ميراث إنساني عظيم نشترك فيه جميعاً: الشعراء والفصحاء، والخرس العاجزون عن أي تعبير.

شعرك حزين.. هل أنت حزين؟

*** ماسبب الحزن في شعرك، ونبرة صوتك؟**

راشد الجودر

❖ الحزن، بطبيعته، أمر يرتبط بالعقل الباطن، أمر لا يستطيع المرء أن يتبّين بسهولة أسبابه ودوافعه، أمر يشعر به الآخرون، ربما، أكثر من شعوري به عندما يقرأون قصائدي.

أنا لا أحسّ عندما أكتب إحساساً مباشراً بالحزن، ولا أتعمد أن ألقي شعري بنبرة حزينة. إلا أنني سمعت هذا السؤال مراراً وتكراراً. لابد، إذن، أن هناك ظلالاً من الحزن تتسلّل إلى شعري دون استئذاني. ربما لأني أعيش في عالم حزين إلى أقصى الحدود. عالم يموت الأطفال فيه جوعاً. عالم يعج بالمظلومين والمضطهدين. عالم يرحل فيه عنا كل يوم حبيب أو صديق. في مثل هذا العالم ألا يصبح الإنسان غير الحزين إنساناً غير سويّ؟!

الموت والشعر:

*** كيف تبرز لنا هذه المكانة التي يحتلها الموت في شعرك؟**

محمد همّام

❖ لا أعتقد أن الموت يحتل في شعري مكانة خاصة أو متميزة. الموت جزء أصيل كبير من التجربة الإنسانية، ولابد، وبالتالي، أن يكون جزءاً أصيلاً كبيراً من التجربة الشعرية. هل سمعت بإنسان لم يمت؟! أو لم يمت له حبيب؟!إني، صدقني، لا أعرف شاعراً واحداً لم ينعكس الموت على إنتاجه على نحو أو آخر. إن البعض يقولون إن شعري في الرثاء أروع شعري وأصدقه. وهذا رأي لا أعارضه ولا أؤيده. قد يكون صحيحاً وقد لا يكون. على أنني حاولت أن أكون صادقاً مع الحياة، مع الحياة في مولدها، ومع الحياة في مغربها. والموت، في النهاية، ليس سوى حياة غاربة.

والموت... وأنا!

*** هل تخـــاف المـــوت؟**

خالد باطرفي

* أرى كلنا يبغى الحياة لنفســـه

حريصاً عليها مستهاماً بها صبا

كما قال عاشق قديم من عشاق الحياة. دلنيّ على رجل يزعم أنه لا يخاف من الموت لأدلك على رجل كاذب أو رجل مريض. بالتأكيد، أخاف الموت! أعيش في ظله، وأرتعد. أرى مايفعله بالأحباء والأصدقاء, وأرتعش. إلا أنني أخاف الموت في تفاصيله. هل سيكون مؤلماً؟ هل سيكون نتيجة مرض عضال طويل؟ كيف سيكون وقعه على من أحب؟ هل سيدمر العش الصغير الأخضر؟ هذه هي التفاصيل التي ترعبني. أما الموت، بمعناه الكبير، فهو الحقيقة الكبرى في عالم مليء بالأوهام. الموت انتقال إلى رحمة الله، وثقتي في رحمة الله لا حدود

لها. أعتقد، وإن كنت لا أعلم، أنه حين تحين ساعة موتي فستجدني مستعداً لها بقليل من الحسنات، وكثير من الذنوب، وأمل شاسع في عفو الله، وشوق كبير إلى لقاء وجهه الكريم.

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟!

*** يتأثر التعب مع أكتافنا لحظة أن نواجه الفراق، فتئن مفاصل الحنين، وتتلوى خاصرة الرضا. كيف تفعل أنت أمام الفراق؟**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ أوّاه! هذا السؤال ينفذ، دون مقدمات، إلى منطقة حساسة من الروح. شأني مع الفراق، ياسيدي، شأن أسلافي الكرام من الشعراء. ألم يقل أحدهم بصدق:

ودّع هريرة.. ان الركب مرتحلُ

وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ؟!

ألم يقل آخر:

قالوا الرحيل فما شككت بأنها

روحي من الدنيا تريد رحيلا!

ألم يطلق شاعر مفارق هذا البيت الخالد:

وتلفتت عيني.. فمنذ خفيت

عني الطلول.. تلفّت القلبُ

والمتنبي شاعر الرجولة التي حاولت أن تستكبر على العشق.

ألم يستخدّ أمام الفراق:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت

لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

أنا أمام الفراق كهؤلاء:

فتنتي! ما بال جرحي كلما

فرّ مني.. ردّه ليل التياع؟

أغريق أنا في بحر على

موجه ينأى شراع عن شراع؟

أم وحيـد راح فـي درب الأســـى

يتمشـــــى.. مـن وداعٍ لـوداع؟

أم غـريـبٌ ليـس في أحــلامه

غـير ميـنــــاء.. وتلـويـح ذراعِ

ترعبني مواقف الوداع. أحاول أن أتجنبها ما أمكن. أحاول أن أفرَّ من هذه الصورة الكئيبة:

واقفٌ وحدي في الميدان..

والفجر حصانْ

شدّه الشوق.. وأرخاه العيّاءُ

والمدينة

تتلقى قبلة الفجر.. بشيء من حياءْ

وعلي كفيَّ منديلك أشذاء حزينة

آه! ما أقسى طلوع الفجر من غير حبيب

ورجوعي كاسفاً.. لا نور عينيك..

ولا سحر اللقاءْ

أتعرف أجمل ما قيل في الوداع؟ مقطع صغير لأحمد عبدالمعطي حجازي:

أليمة «إلى اللقـــاء»

و«أصبحوا بخيرْ»

وكل ألفاظ الوداع مُرّةْ

والموت مُرّ

وكل شيء يسرق الإنسان من إنسانْ

ومـاذا عن شعـر الـرثـاء؟!

*** أنا أتأثر بشـــعرك الرثائي أكثر من ســـــواه فماذا يعني ذلك؟**

عبدالحميد الحادين

❖ لا تنزعج! فأنا مثلك، أحب شعر الرثاء. ومثلنا عدد كبير من القراء. كثير من الشعراء، في نظري، كتبوا أروع شعرهم في الرثاء. وعلى سبيل المثال، خذ يائية ابن الريب

في رثاء نفسه، ودالية ابن الرومي في رثاء ابنه، وميمية المتنبي في رثاء جدّته، وعينية ابن نويره في رثاء أخيه. أتعرف السبب؟ في شعر الرثاء يبدو الفارق الشاسع بين الثكلى والأجيرة.

والجراح التي تصهل!

*** تصـــهل جــــراحك.. وتقــدر على أن تمسك بلحظة إلتفاف قصوى.. كيف تتأصل جراحاتك ياســـيدي؟!**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ أحب أن أقول، بكل وضوح، إنني لست «جرحاً بملامح إنسان» كما يقول نزار قباني. ولا إنسانا بملامح جرح. أرفض أن تكون الجراح هي هويتي المتميزّة. أنا لا أسير بجراحي وأفتخر, كما يفعل المصابون بعسر الهضم. جراحي جزء مني، ولكنها ليست الجزء الأخصب ولا الأدفأ. جراحي لا تقيم إلى الأبد.

إنها تذبل وتضمر وتتلاشى. وتحل محلها جراح جديدة. أشدّ ألماً أو أقلّ، أكثر نزيفاً أو أقلّ ولكل جرح قصته وتاريخه، وطبيبه وممرضته. لقد ألفت جراحي ولكني لم أعشقها. إن الفة الجراح قدر؛ أما عشقها فمرض.

الحرمان.. مفلسفاً...

*** يتواصل هـــروبك مع مشاوير الحــــرمان حتى لنكاد نراك في كل الأحداق التي احترقت بالجفاف. حــدثنا عن حرمانك ياسيدي.**

فوزي عبدالوهاب خياط

❖ لابد، أولاً، من التسليم بأن مفهوم الحرمان، وما يتبعه من ظمأ وجوع، مفهوم «محترم» فلسفياً وفكرياً وشعرياً وتاريخياً. ألم يقل فارس بني عبس «ولقد أبيت على الطوى وأظلّه».؟ وشاعر صعلوك «أقسّم جسمي في جسوم كثيرة».؟ وصعلوك آخر «وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه»؟. وفي عهد أقرب قال لنا شوقي صادقاً:

إن البطـولة ان تموت من الظــما

ليــس البطـولة أن تعــبّ المـــاءَ

على أنني لا أتحدث عن الحرمان لهذا السبَب. أتحدث عنه لأنه تجربة إنسانية دائمة

الحضور بالنسبة لي. ماهو الحرمان الذي أقصده؟ سأعطيك بعض الأمثلة على طريقة المعلمين (وأنا معلم سابق، بلا فخر!).

تأمل البيت/ الملحمة لابن الرومي:

أعانقها والنـفـس بعد مشـــوقة

إليهـــا.. وهل بعد العناق تدان؟!

شاعرنا لم يطمع في الوصال الجسدي الذي تحقق. ولكنه تطلع الى امتزاج روحي - لا يمكن أن يتحقق.. ولهذا بقي محروماً. أتريد مثلاً ثانياً؟ هناك قمة جبل تريد الوصول إليها. بعد عناء طويل يذكرك بمعاناة «سيزيف» تصل إلى القمة. ولا تكاد تلتقط أنفاسك حتى تكتشف ان هناك قمماً أعلى، وأروع، وأبعد. ينتابك شعور حاد بالحرمان وتبدأ الطريق إلى القمة التالية. أتدري؟ حتى أكثر العيون دفئاً تصبح بعد فترة وجوداً روتينياً. تبدأ البحث عن عيون أدفأ. يداهمك الشعور الحاد بالحرمان.

الحرمان، إذن، رفيق البحّار الذي يبحث عن مرفأ لم يوجد. رفيق العاشق الذي يريد حسناء لم تولد. رفيق الفنان الذي يتمنى أن يرسم حورية لا تعيش إلا في أوهامه. رفيق كل إنسان يحاول أن يتشبث بشيء من المثالية في عالم واقعي.

أعطني إنساناً بلا حرمان، لأعطيك إنساناً فقد نعمة الشوق إلى الأفضل.

الموت... حباً!

*** تتعامل مع الموت بعمق وحرارة - ربما أكثر من تعاملك مع الحب - لماذا؟**

عبدالحميد الحادين

❖ إن التعامل مع الموت هو، في جوهره، تعامل مع حب، حب يواجه النهاية المؤلمة المروعة. إن كل شعر هو، في النهاية، شعر حب. المديح شعر حب في الممدوح (أو ماله، على الأغلب!). الشعر الوطني هو شعر حب في التراب. الغزل شعر حب في المرأة. والرثاء شعر حب في العزيز الراحل. والتعامل مع حب ينتهي هو أشد عنفاً وضجيجاً من التعامل مع حب يبدأ. نحن نتعامل مع الحب الذي يبدأ من الصفر - دون أن تكون لنا معه ذكريات أو مواعيد أو عهود. أما الحب الذي يغرب فيذهب تاركاً في أعماقنا عطره وجراحه وألف حكاية وحكاية. وإلى هذه الظاهرة أشار فيلسوف المعرّة:

إن حـزنا في ســـاعة الـمـوت

أضعـــاف سرور في ســاعة الميلاد

وقد صدق!

وماذا عن «الواقع الحزين»؟

*** تكلمت في إحدى قصائدك عن صحوتك «في الواقع الحزين» إلى أي مدى تأثرت أحاسيس الشاعر غازي القصيبي «بالواقع الحزين»؟ وتأثر بها شعره؟**

نبيلة سليمان

❖ لا أدري! ربما إلى أبعد مدى ممكن. فأنا أعيش في «وادي الدموع» هذا مع بلايين البشر المرهقين في صراعهم اليومي الدامي من أجل لقمة العيش، من أجل الكرامة، من أجل دقائق أسعد, ولحظات أدفأ. أعيش الواقع الحزين مع كل نسمة هواء استنشقها. أعيشه عذاباً بائساً هنا، ولوعة مريض هناك. أعيشه ذلة أمّة عريقة يلفها هوان يتجدد كل يوم. أعيشه حيرة جيل ناشئ قادم حائر بين أولئك الذين يبشرونه بأن الفردوس القادم سيطلع من كتاب «كارل ماركس». وأولئك الذين يبشرونه بأن إطالة شعره قليلاً أو تغطية شعره قليلاً كفيلة بحل كل مشاكله. وأولئك الذين يتعاملون مع ألسنته بقصها، ومع قلوبه بوقف دقاتها، ومع عيونه بسملها. الواقع الحزين يلف هذا العالم كسحابة عاتية متمردة من التلوث الذري تنفث غبارها في كل صدر وكل روح. هل يمكن أن يلفت أحد. شاعر أم غير شاعر؟ كلا! دليني على إنسان لا يعاني من الواقع الحزين وسأريك رجلاً من أولئك الذين سماهم اليوت.. «الرجال المجوفين».

وهل تعذب نفسك؟!

*** لماذا يعذب المبدع نفسه؟ هل لابد أن يفعل ذلك لكي يبدع؟**

خالد باطرفي

❖ وهذا وهم آخر عن المبدعين، جعل الله كلامي خفيفاً على قلوبهم!. أنا لم أسمع عن مبدع واحد يبدأ يومه بضرب نفسه بالسياط. أو بقذف نفسه من شباك في الدور الثالث. أو بالوقوف أمام سيارة «تفحّط».

المبدع، وليس كل شاعر مبدعاً وليس كل المبدعين من الشعراء، في رأيي لا يختلف عن الإنسان كما تصوره النظرية الاقتصادية التقليدية: يسعى إلى مضاعفة أرباحه وسعادته ولذاته إلى أقصى حد ممكن، وإلى التقليل من خسائره وآلامه ومتاعبه إلى أقصى حد ممكن. وأي مبدع يختلف عن هذا، هو إنسان مريض بالماسوشيه - يجب أن يبحث عن علاج في إحدى المصحات النفسية.

صحيح أن من بين المبدعين من يُبتلى بأكثر من مصيبة. ولكن هذا قضاء الله الذي يشمل حتى أقل الناس إبداعاً. وأنا لم أسمع حتى اليوم بأي علاقة عن مدى العذاب الذي يتعرض له الإنسان وبين أبداعه. أقول قولي هذا معتذراً للمعذبين المبدعين - والمبدعين غير المعذبين!

مرة أخرى.. لماذا الحزن؟!

*** من يسمعك تقول شعراً يحس بهذا الشجن النبيل الذي يغلف حنجرتك الشعرية - فهل تعتقد أن السبب هو كونك، كما يرى البعض، شاعراً رومانسياً؟ أم أن الشجن كان رفيق رحلتك؟**

محمد همام

❖ الحق أقول لك: لا هذا ولا ذاك! السبب أن تجربتنا الإنسانية محاصرة بالحزن من كل جانب: تنمو في الحزن، تكبر في الحزن، وتموت في الحزن. الحياة ليست مسرحية فكاهية من مسرحيات الريحاني ولا فيلماً من أفلام عادل إمام.. ليتها كانت! في الحياة فقراء يتضورون، وأصحاب يفترقون، وشعوب تقتتل, وملايين تذبح. إسمع أي نشرة أخبار تصلك «منجزات» حياتنا المعاصرة: قنابل، وسيارات مفخّخة، ورصاصات إغتيال، ومجاعات. هل يمكن لإنسان أن يتظاهر أن هذا كله من قبيل الخداع البصري؟ هل يمكن لشاعر أن يهرب من الحزن الذي يسكن كل ذرة أوكسجين يستنشقها أما أنا فلا أقدر. لا كإنسان، ولا كشاعر.

الفصل السابع عشر

..... والنقد

وكم من عائب قولاً صحيحاً

وآفته من الفهم السقيم

المتنبي

في البداية: الأصالة أو التجديد؟!

*** ما رأيكم فيما يناقشـــه بعض الأدباء من قضايا الأصالة والتجديد في الأدب كأنما هما معنيان متعارضـــان؟**

مجلة «أهلاً وسهلاً»

❖ إن قضايا التجديد والأصالة، بالنسبة لي، غير ذات موضوع وأستغرب أن تثار بهذا التكرار العنيف الممل. هل يمكن أن نتساءل أيهما أهم للإنسان الطعام أو الشراب؟ أو أيهما أكثر ضرورة الليل أو النهار؟ أو أيهما أنفع في الطيران الجناح الأيمن أو الأيسر؟ إن أي أدب يفتقر إلى الأصالة لا يعتبر أدباً حقيقياً، ولا يعدو أن يكون بضاعة مستوردة كما تستورد السيارات أو المولدات الكهربائية. وأي أدب يفتقر إلى المعاصرة لا يمكن أن يعتبر أدباً حقيقياً بل يجب أن يوضع في متحف من متاحف التاريخ. لقد قلت في أكثر من موضع إن على الشاعر أن يكون كلاسيكياً ورومانسياً وواقعياً في الوقت نفسه. يجب أن يكون كلاسيكياً فيتحدث بلسان قومه، وبالأسلوب الذي يفهمونه وبالموسيقى التي تعودت عليها آذانهم، وبالكلمات التي يحتويها تراثهم. ويجب أن يكون رومانسياً فيعايش تجاربه معايشة شخصية مباشرة بحيث تمتزج التجارب وتلتصق بالذات وتصبح كلا واحداً لا ينفصل. ويجب أن يكون واقعياً فيعيش مع البشر، ويستنشق هموم البشر، ويلامس مشاكل البشر. إنني أتمنى أن ينتهي هذا النقاش العقيم ويموت ميتة طبيعية فالبحث فيه سفسطة فكرية ولغو لا طائل وراءه.

وما أدراك ما التجديد؟!

*** ما رأيك في حركة التجديد في الشـــعـــر العـــربي؟**

إيمان علي

❖ التغيير سنة من سنن الله في كونه - ولن تجد لسّنة الله تبديلاً. الأشياء الميّتة، وحدها، هي التي تبقى جامدة مستقرة ثابتة، لا تنمو ولا تكبر، ولا تغضب ولا تنفعل. أما الأشياء الحيّة فهي، بالضرورة، أشياء متغيرة. والشعر، بطبيعته، من أكثر الأشياء حياة. ولهذا فيجب أن يكون من أكثرها تغيّراً. التجديد، باختصار، يعني الحياة: والجمود، بايجاز، يعني الفناء. ولا أستطيع أنا، ولا يستطيع غيري، أن نفرض على الشعر وصاية

كوصاية الولي على القاصر. فلا نسمح له أن يتكلم، أو يغامر. أو يجرب إلا بعد الحصول على إذن. يبقى رأيي الشخصي في إنتاج المجددين وهو، بطبيعة الحال، يتراوح من شاعر إلى آخر ولكنه، بعد كل شيء، رأي قارئ واحد يستند إلى ذوق قارئ واحد.. وهذا أمر لا يهم كثيراً... أو قليلاً.

هل يتلاشى الشعراء؟!

*** الأسماء البارزة في الشعر تلاشت حالياً - فما السبب في رأيك؟**

إيمان علي

❖ تلاشت؟! من أين؟! ومن قال هذا؟! إن المتنبي وابن الرومي والسياب لا يزالون، في نظري، أحياء. بل إنهم أملأ بالحياة من كثير ممّن يمشون على سطح الأرض. إن الشاعر الحقيقي لا يتلاشى بعد موته، بل لعلّه لا يبدأ حياته إلا بعد موته. هناك تزول كافة المظاهر والهالات، ويموت صخب النقد، وضجيج الدعاية، ولا يبقى إلا الشعر وحده.

وأين الشعراء الجدد؟!

*** لماذا لا نسمع بأسماء جديدة في الشعر؟ هل لذلك علاقة بتطور المجتمعات؟**

إيمان علي

❖ أنت لا تسمعين لأنك قارئة عادية ولست من المتخصصات المتابعات لكل إنتاج شعري (ولا يفترض في القارئ العادي أن يتحوّل إلى باحث متتبع). ولكن الذي يقرأ «إبداع» التي تصدر في القاهرة، و«الأقلام» التي تصدر في بغداد، و«شعر» التي تصدر في تونس، وهذا على سبيل المثال العابر، سيجد أسماء كثيرة جديدة تكتب شعراً كثيراً جديداً.

الشعراء، فاعلمنْ، أربَعَة!

*** ماذا عن الشعر الحر؟ هل أدى، كما يقولون. إلى أن تفقد القصيدة إتزانها؟**

نبيلة سليمان

❖ من حق كل شاعر، وكل جيل من الشعراء، أن يبدع لغته الخاصة وأساليبه الخاصة بصرف النظر عن تسمياتنا وتصنيفاتنا. وبدون ذلك يشيخ الشعر ويهرم ويموت. التغيير قانون الحياة الدائم، وهو قانون الشعر الدائم. ولا ينبغي لنا أن ننساق مع المتعصبين لهذا النوع من الشعر أو ذاك. إنني شاهدت عبر تاريخنا الشعري التقليدي نماذج كثيرة للشعراء الأربعة الذين صنفتهم الأرجوزة الشهيرة بدقة متناهية:

فشاعر يجري ولا يجرى معه

وشاعر يخوض وسط المعمعة

وشاعر من حقه أن تسمعه

وشاعر من حقه أن تصفعه

وقد لاحظت، شخصياً، أن الشعراء من النوع الرابع (الجدير بالصفع) هم أكثر الفئات في شعرنا التقليدي. كما شاهدت في تجربة الشعر الحديث التي يكاد عمرها أن يصل إلى نصف قرن نماذج كثيرة للشعراء الأربعة أنفسهم، مع تفوق عددي واضح للنوع الرابع (المصفوع). وهكذا ترين أنه (تنوعت «الأشعار» و«الصفع» واحد). والصفع، بالمناسبة، متبادل فالقارئ هو الذي تلقى الصفعة الأولى!

أنا... ديكتاتوراً!

*** لو عينوك حاكماً عربياً ماذا تراك ستفعل؟ وهل ستواصل الرفض وتواصل البكاء؟**

خالد باطرفي

❖ لو حصل في هذا في كابوس من كوابيس المنام فسوف أتخذ القرارات التالية:

- أولاً: أمنع أي نقاش حول الشعر القديم والشعر الحديث والأصالة والمعاصرة والحداثة وإشكالية الغموض ومشكلة الرموز والأساطير. وذلك محافظة على حرمة الموتى. إن هذه القضايا ماتت قبل أن تولد وقبل أن أولد أنا ولكنها لا تزال تنبش!

- ثانياً: أحرق ٩٥٪ من الدواوين الموجودة في المكتبات وأحيل أصحابها إلى المحكمة بتهمة إفساد الذوق العام.

- ثالثاً: أقدم جائزة الإبداع الشعري لكل شاعر يكفّ طوعاً عن قول الشعر مدة لا تقل عن ٢٥ سنة.

- رابعاً: أعلن أسبوع الراحة الفكرية وفيه يمنع منعاً باتاً نشر الشعر أو قراءته أو إذاعته.

- خامساً: أضع في الدستور مادة تحرم على أي مسؤول نشر إنتاج شعري ما دام في وظيفة حكومية ثم استقيل!

لغة الشعر.. والغول!

*** يردّد النقاد عبارة، أو مصطلح «لغة الشعر» ما هذه اللغة؟ وهل ترى أن لكل شاعر لغته الخاصة التي تميزه عن غيره؟ وكيف يمكننا إدراك هذه اللغة الخاصة؟**

مجلة الفيصل

❖ هل سمعت عن الغول والعنقاء والخلّ الوفي؟! هل تعرف أين يسكنون؟ في أي شارع من أي مدينة؟ إذا استطعت العثور على العنوان ففتش قريباً منه لعلّك تعثر على «لغة الشعر»! «لغة الشعر» هي ذلك الشيء الذي يحسّ به كل شاعر حقيقي، ويحسّ به كل قارئ ذوّاقة دون أن يستطيع تعريفه أو تحديد أبعاده أو مواصفاته نفس الكلمة التي تبدو سمجة هنا تبدو أكثر من رائعة هناك. نفس التكرار الذي يورث الملل هنا يورث النشوة الروحية هناك. لا تصدق أن ناقداً أو شاعراً أو قارئاً يستطيع أن يضع أصبعه على هذا السحر، هذا السهل الممتنع، هذا التعريف الذي لا يقبل التعريف. حسب القراء، إذن، أن يستمتعوا «بلغة الشعر» دون أن يدْركوا كيف ومن أين ولماذا أتت. وحسب النقاد أن يحاولوا كل بحسب مدرسته، أن يبرروا ويفسّروا ويشرحوا. على أنه في النهاية ستبقى «لغة الشعر سراً من الأسرار التي لا نستطيع اقتحامها ولا الاقتراب منها. وأنا، شخصياً، أرجو أن يستمر الوضع على هذا النحو. أرجو ألاَّ تتقدم مداركنا ومعارفنا إلى درجة نستطيع فيها أن نحلّل الشعر كما نحلّل عناصر الطبيعة الجامدة اليوم. وهذه المحاولات البلهاء لإخضاع الشعر «للكومبيتر» أو لتحويله إلى معادلات رياضية أو رسوم هندسية، لا أتوقع لها سوى الفشل الذريع، وستمضي غير مأسوف عليها كما مضت هباء كافة المحاولات لتدجين طائر الشعر البريّ الطليق.

شعر النبط.. والاسكتلندي.. وجاره اليهودي!

*** في المملكة كما في دول خليجية أخرى - يوجد ما اتفق على تسميته بالشعر النبطي. والبعض يقول إن الشعر النبطي صار طريقاً سهلاً لكلّ من يريد الانتماء إلى الشعر بدون إلمام ثقافي.. ومعرفة بالأدب.. ما رأيك في ذلك؟**

عبدالمنعم إبراهيم

❖ أنا، بكل أسف، لست من خبراء الشعر النبطي ولا أتذوق سوى القليل منه للمجيدين من شعرائه (القدامى غالباً) إلا أنني أستغرب الضجّة القائمة حول شعر النبط هذه الأيام وكأنه اختراع جديد مفاجئ. الأمر الذي يذكرني بقصة الاسكتلندي الكاثوليكي الذي فاجأ

جاره وصديقه اليهودي ذات صباح بلكمة شديدة على وجهه. وعندما سأله جاره عن السبب قال «لأنكم معشر اليهود تآمرتم على السيد المسيح» فقال له الجار «ولكن هذا حدث قبل ألفي سنة!» فردّ عليه «يجوز! ولكن الخبر لم يبلغني إلا البارحة!».

لا أدري لماذا اكتشف بعض شعراء الفصحى أن الشعر النبطي خطر داهم ينبغي مقاومته والتصدّي له وكأنه لم يكن خلال معظم تاريخنا صديقاً حميماً للشعر الفصيح يتعايشان دون أن يقضي أحدهما على الآخر. لو لم يوجد الشعر النبطي لحرمت بادية العرب في كل مكان من أجمل أهازيجها وأساطيرها. تصوّر الغناء الخليجي، مثلاً، لو لم يوجد الشعر النبطي.

يبقى بعد ذلك موضوع المستوى. ما ينشر هذه الأيام من شعر النبط فيه الكثير من الغثّ شأن ما ينشر من الشعر الفصيح قديمه وحديثه. إن الشعراء المبدعين لا يولدون «بالجملة»، لا يجيئون «بالدستة». هم «دائماً» من الندرة النادرة، يستوي في هذا شعراء الفصحى وشعراء النبط والشعراء في اللغة «السنسنكريتية». لولا المشقة (الشعرية) ساد الناس كلهم!!

ولكن لماذا يزدهر شعر النبط؟

*** ازدهرت في الأونة الأخيرة ظاهرة الشعر النبطي فبماذا تفسر ذلك؟**

إيمان علي

❖ هذا الازدهار يحيّرني (وإن كان لا يزعجني) هناك، في تصوري، عوامل عديدة متداخلة. هناك فشل الشعر الفصيح في أن يلامس وجدان الجماهير. وهناك الانكفاء الاقليمي الذي حل محل الانفتاح القومي. وهناك الأغاني التي تستمد كلماتها من الشعر النبطي. وهناك اهتمام الصحافة المتزايد بهذا النوع من الأدب (بحيث يجد ناشئ شعر النبط مكاناً لنشر محاولاته ولا يجد زميله ناشئ الفصحى).

أنا.. مخضرماً!

*** في المملكة أدب غزير، هناك تيار الشباب والتيار المحافظ - ولابد أن أحد الحزبين يحسبك منه - فأين تحسب نفسك؟**

عبدالحميد الحادين

❖ سن الخامسة والأربعين، سني الآن، سن متعبة. إذ لا يوجد شاب يحترم نفسه يقبل أن يعتبرني شاباً. وبالمقابل لا يوجد شيخ يحترم نفسه يقبل أن يعتبرني شيخاً. ولهذا أتصور أن كل طرف يصنفني ضمن الطرف الآخر، في الوقت الذي يعتبرني كل طرف دخيلاً عليه. ولعل هذا موقفي الحقيقي. فقد تجاوزت مرحلة الشباب المتحمس لكل قديم لمجرّد أنه قديم. اعتبرني، إن شئت، من المخضرمين شاباً كالشيخ أو شيخاً كالشاب!

الشعر والرمز:

*** عرفت القصيدة الشعرية العربية المعاصرة ما يسمى بالرمز.. وتوظيف الأسطورة لخدمة الأغراض التي يرمي إليها الشاعر دون الوقوع في المباشرة والتقرير.. إلى أي حد يمكن أن تستفيد القصيدة العربية من ذلك؟**

مجلة «الفيصل»

❖ أحب، أولاً، أن أقول إنني لا أعتقد أن استخدام الرمز بدأ مع القصيدة الحديثة. ففي شعرنا الجاهلي إشارات إلى «زرقاء اليمامة» وإلى «السموأل» وإلى «نسور لبد». ولا ننسى أن الحبيبة كانت في شعرنا العربي «قمراً» و«غزالاً» و«عود بان». وأن الممدوح كان «بحراً» و«أسداً» و«جبلاً». على أنه تبقى بعد ذلك حقيقة هي أن القصيدة الحديثة توسعت في استخدام الرمز والأسطورة. وتبقى حقيقة أخرى هي أن الأشعار الغربية تمتلئ بهذه الظاهرة أكثر من الأشعار العربية التي لا يزال الرنين الموسيقي يشكل جزءاً أساسياً لا يتجزأ منها. غير أنني أرى أن العملية لا يجب أن تكون متكلفة أو مصطنعة. والواقع أن الكثير من الرموز التي كان الشعراء الشباب العرب يستخدمونها كانت رموزاً مستوردة منقولة بحذافيرها من الغرب دون أية صلة بالبيئة العربية. إن السيّاب، في رأيي، يظل أنجح شاعر تمكن من توظيف الأسطورة بشكل فني جميل وإن كان بدوره أسرف في أساطير اليونان التي إقتبسها بشكل لا أعتقد أن القارئ العربي العادي يمكن أن يتذوّقه. إنني أتصّور أنه عندما ينجح شعراؤنا الشباب في هضم تراثهم والتعامل معه بدون عقد، فسوف يجد الرمز/ الأسطورة المستمدّ من التراث مكانه الطبيعي في شعرهم بدون تكلف، وبدون أن تبدو المحاولة سخيفة ومصطنعة.

هل هناك شعر «خليجي»؟

*** هل هناك شعر خليجي له شخصية متميزة عن الشعر العربي؟**

إيمان علي

❖ لا أتصوّر ذلك، حتى الآن على الأقل. كان شعر الخليج مجرد انعكاس للشعر في دنيا العرب الواسعة بحيث يصعب على القارئ أن يتبيّن طعماً خليجياً متميزاً أو نكهة خليجية خاصة. هذا لا ينفي بطبيعة الحال أن بعض الشعراء تحدثوا عن تجارب خليجية بحتة، وقد حظيت حقبة الغوص بنصيب الأسد في هذا المجال. ولكننا لا نستطيع أن نتحدّث عن «مدرسة خليجية» في الشعر. وأودّ أن أسارع فأضيف انني أعتبر هذه ظاهرة صحية لا مرضية. لقد تشرذمنا سياسياً إلى أكثر من عشرين كياناً عربياً ضعيفاً ولا مبرر لأن نتشرذم شعرياً.

وماذا عن الشعر في المملكة؟

❖ في الأونة الأخيرة ظهر في المملكة شعراء شباب ينظمون الشعر اعتماداً على الاتجاهات الحديثة في الشعر. وفي الوقت نفسه لا يزال الجيل القديم ينظم الشعر بطريقته الخاصة. أين تضع نفسك بين القديم والجديد؟ وماهي ملاحظاتك على الحركة الشعرية السعودية؟

عبدالمنعم إبراهيم

❖ منذ أن بدأت كتابة الشعر، أو ربما بعد هذا بسنة أو سنتين، وأنا أكتب الشعر التقليدي والشعر الحديث. ومن هنا فقدت، منذ زمن بعيد، قدرتي على الانحياز إلى أحد النوعين. وما دمت قد فقدت قدرتي على الانحياز فإنني، بطبيعة الحال، عاجز عن التطرف والتعصب لصالح أي من المدرستين، وبإمكانك، إذن، أن تعتبرني «منطقة منزوعة السلاح» بين غلاة التقليديين والمجددين الأمر الذي يفقدني، دون شك، إعجاب الطرفين معاً. إنني، في نظر غلاة التقليديين، ضللت طريقي الشعري في متاهات التجديد بينما يعتبرني غلاة المجددين مجرد ظاهرة رومانسية غير ناضجة تماماً. كلما نشرت قصيدة من الشعر التقليدي احتجّ عليّ القراء من أنصار الشعر الحديث. والعكس صحيح.

أما ملاحظاتي على الحركة الشعرية في المملكة فهي نفس ملاحظاتي على الشعر العربي عموماً. وهي أن الفجوة بين الشعر التقليدي والشعر الحديث بدلاً من أن تصبح ظاهرة صحية تدل على حيوية فكرية وديالكتيكية مبدعة تحولت إلى ظاهرة مرضية وأنصار كل نوع يتراشقون التهم لا بالجهل والجدب والخواء - وهو أمر مقبول! - بل بالخيانة الوطنية والقومية أو ما يقاربها - وهو أمر غير مقبول! ان القاموس السياسي العربي البذئ بدأ ينتقل من المهاترات الاعلامية ليصبح جزءاً من «الحوار الأدبي» - الذي

لم يعد «حواراً» وتجرّد كلية من «الأدب. إنني أفهم أن تكره الشعر التقليدي، ولكني لا أفهم أن تصف كل من يكتبه بالتحجر والجمود والرجعية الفكرية. وأفهم أن تكره الشعر الحديث ولكني لا أفهم كيف يمكن أن ترى فيه معول هدم لتراث الأمة وفكرها وحضارتها. انني أعتقد ان المجدد لكي ينجح في تجديده يجب أن يبدأ بداية تراثية تقليدية. كما أعتقد أن الكلاسيكي لكي يكون شاعراً يعيش في هذا العصر لابد أن يكون مجدّداً. وأعتقد أن أي إنتاج رائع سيجئ من أقلام الشعراء الذين تمكنوا من الجمع بين التراث والمعاصرة، كما فعل من قبل السياب وعبدالصبور وقباني وأمل دنقل، وجيل الرواد. تنطبق هذه الملاحظة على الشعر في المملكة. كما تنطبق على الشعر في الخليج. كما تنطبق على الشعر في الأمة العربية.

الوضع الشعري العربي.. موجزاً!

*** ماهو رأيك في الوضع على الساحة الشعرية في الوطن العربي حالياً؟**

إيمان علي

❖ هناك شعراء كثيرون . منهم من يعجبني. ومنهم من لا يعجبني. هكذا كان الوضع دائماً. هكذا سيظل دائماً!

المثلث الخطر.. الشاعر.. الناقد.. القارئ!

*** ماهي نوع العلاقة التي يجب أن تكون بين الشاعر.. وبين الناقد والقارئ؟.**

مجلة «الفيصل»

❖ لا أستطيع أن أقول إن هناك علاقة من نوع معين يجب أن تسود الاتصال بين الشاعر والناقد والقارئ. والأمر كله يتوقف على نوعية الشاعر، ونوعية الناقد، ونوعية القارئ. الشاعر الحقيقي يستطيع، عادة، أن يحظى بمن يقدر شعره من القراء والنقاد. والناقد الموهوب يستطيع، عادة، أن يميّز بين الغث والسمين في الشعر. والقارئ الذواقة يجب أن يتبع ذوقه ويترك ما لا يعجبه. ذلك أن قراءة الشعر ليست التزاماً وطنياً أو أخلاقياً محكوماً بمعايير معينة. كثيراً ما يقال إن هناك«أزمة نقد» وقد يكون في هذا القول شيء من الصحة. كما أن بعض النقاد يرون أن هناك «أزمة شعر» - وفي هذا أيضاً الكثير من الصحة. أنني، على سبيل المثال، لا أعثر على قصيدة تعجبني فيما أقرأ من شعر، وأنا أقرأ الكثير إلا في القليل النادر. ربما كانت الحقيقة، باختصار، أننا إزاء عدة أزمات: «أزمة شعر» و«أزمة قراءة» و«أزمة نقد».

تنصح.. أو لا تنصح؟!

*** لابد من نصيحة لجيل الشبان من الأدباء والشعراء، هل لكم أن تعبرّوا عن توجيهكم لهم - كي يكون عطاؤهم متكاملاً ومثمراً ومقروءاً؟**

عبدالله الشيتي

❖ ياعزيزي عبدالله! من تجربتي ومن تجربتك ومن تجربة الناس أجمعين نعرف أنه لا يوجد أثقل من دم الإنسان الذي يتطوع بتقديم نصائح لم يسأله أحد أن يقدمها أو توجيهات لا «يتوجه» نحوها أحد. المرء إما أن يكون موهوباً أو لا يكون. فإذا كان موهوباً فسوف يشق طريقه دون أن يحتاج إلى نصائح محنطة مني.. أو من غيري. أما إذا لم يكن موهوباً فكل مجلدات الوعظ والارشاد لن تجعله يكتب سطراً واحداً. لا تنس أن من الموسيقيين من كتب سيمفونيات قبل الثالثة عشرة. وأن من الشعراء من كتب الروائع قبل العشرين. الشعر ليس منطقة نصائح؛ إنه منطقة مواهب!

عمالقة... وأقزام!

*** هل نستطيع أن نقول إن زمن العمالقة في الشعر العربي انتهى. أعني من أمثال صلاح عبدالصبور وأمل دنقل؟**

إيمان علي

❖ أنا أحب هذين الشاعرين، وقد كتبت دراسة عن كل منهما. ولكن أرجو إلا يخيب ظنك إذا قلت إنني لست من هواة العمالقة. العملاق لا يبدو عملاقاً إلا إذا أحاطت به مجموعة من الأقزام (هل تذكرين مغامرات جيلفر؟ لقد كان عملاقاً في بلد وقزماً في أخرى) إذا سلمنا بذلك كان من الضروري أن نسلم أن ظاهرة «العملقة» - أو «التعملق»! - هي، بطبيعتها، ظاهرة مرض لا عافية. وإذا كان لابد من وجود أقزام وعمالقة فانني أفضل عالما يسكنه عشرة أقزام يحسنون الكتابة والقراءة على عالم فيه عملاق عبقري واحد وتسعة أقزام أميين. هل أنا بحاجة إلى أن أضيف أنه إذا كان زمن عمالقة الشعر قد ولّى بالفعل, فاني أرجو أن يكون قد ذهب بلا عودة!

شيوخ.. وشباب.. وتراث.. ورموز!

*** تكثر الشكوى من الجيل الجديد من محترفي أو هواة الأدب من حيث انقطاع صلتهم بالتراث وقلة أخذهم بأسباب التجويد وضحالة فكرهم العام - فهل تعتقدون أن الجيل الجديد**

يعيش مثل هذه الأزمة؟ وماهي في رأيكم أسبابها وعلاجها؟

مجلة «أهلاً وسهلاً»

❖ لا أعتقد أنه بوسعي، أو بوسع غيري، الإدلاء بحكم قاطع في هذه المسألة. فمن الأدباء الشباب من يتمتع بثقافة واسعة واطلاع جيّد على التراث. ومن الأدباء الشيوخ من يتسم بضحالة الثقافة. ولكنني أعتقد أنه يمكن القول إن العرب عموماً، كانوا يعيشون حالة انبهار أمام الحضارة الغربية بلغت ذروتها مع الحرب العالمية الثانية - وهذا الإنبهار هو الذي دفعنا إلى محاولة تقليد هذه الحضارة أو نقلها. وأعتقد أن الأدباء والشعراء اندفعوا بدورهم يحاولون تقليد الأدب الغربي دون أن يتوجّهوا إلى الداخل ويستلهموا روح أمتهم وتراثها. بدأ كثير من الشباب، وربما كنت أحدهم، ينقلون رموز الأدب الغربي وأساطيره متناسين أن في تراثهم ما يغنيهم عن هذا كله. غير أننا لا يجب أن نقسو على الأدباء والشعراء أكثر من اللازم فالظاهرة نفسها - الانبهار بالغرب وتجاهل التراث - تصدق بحذافيرها على المفكرين السياسيين والاجتماعيين والمؤرخين والاقتصاديين في العالم العربي. مرحلة الانبهار قد بدأت تتلاشى مع تصاعد الصحوة في العالمين العربي والإسلامي. ولهذا فلا نستغرب عندما نرى شعراء هذا الجيل من الشباب قد بدأوا يستخدمون الرموز والأساطير والمواقف التاريخية النابعة من التراث (لعل، أمل دنقل، كان أكثرهم نجاحاً). كما أنه يمكن أن نتوقع في السنوات القادمة حماساً أكبر إلى العودة إلى منابع التراث والاغتراف منها.

الشاعر... مفلساً!

*** كتبت قصـــيدة عن «الإفـــلاس» - هـل هناك بالفـعل إفلاس شعري؟ ومتى يفلس الشاعر؟**

نبيلة سليمان

❖ الجواب هو نعم! وبكل تأكيد! هناك إفلاس شعري. بل إن ظاهرة الإفلاس عند الشعراء شائعة شيوعها عند التجّار. ومعالجة الإفلاس التجاري أهون وأبسط، يعيّن المصّفي ويقتسم الدائنون الموجودات. أما الإفلاس الشعري فأكثر تعقيداً، من أكثر من ناحية. الإفلاس الشعري قد لا يكون واضحاً. وقد يستمّر شاعر ما مفلساً شعرياً عبر سنين طويلة وعبر دواوين عديدة دون ان «يكتشف» أحد إفلاسه، أو دون أن يملك أحد الوقاحة لاعلان إفلاسه. والإفلاس الشعري لا يتخذ شكلاً واحداً، بل يرتدي ألف وجه ووجه. ومن

وجوه الإفلاس الشعري أن يضع الشاعر رحيقه القديم في قوارير جديدة: أن يجترّ تجاربه القديمة في قصائده الجديدة. ومن وجوه الإفلاس الشعري أن يعجز الشاعر عن الحديث بلغة معاصريه فيلجأ إلى لغة «تأبط شراً» و«السليك بن السلكة». ومن وجوه الإفلاس الشعري أن يبحث الشاعر عن لغة مبتكرة - أو عن لغة يفجرّها بمعرفته - فيعجز فيبدأ يتحدّث بالمعميات والألغاز والاحاجي التي لا يفهمها أحد. ومن وجوه الإفلاس الشعري أن يأتي إنتاج الشاعر مرقعاً بخرق يمكن ارجاع كل خرقة إلى مصدرها دون عناء.

متى يفلس الشاعر؟ عندما يتشبث بالقوالب والكلمات التي «انتهت مدة صلاحيتها». عندما يجبن عن اقتحام تجربة مثيرة جديدة. عندما يتحول إلى «مطرب» حريص على التصفيق والاستحسان. بإختصار، عندما يشيخ قلبه!

الفصل الثامن عشر

...... وهموم الزمن الرديء

أتى الزمان بنوه في شبيبته

فسرّهم... وأتيناه على الهرمِ

المتنبي

الشعر.. مستقبلاً.. وحاضراً..

*** ما رأيك في حاضر الشعر؟ ومستقبله؟**

علي محمود

❖ لستُ من فئة العرافات ولا البصارات. والليالي - كما قال شاعرنا القديم - «مثقلات يلدن كل عجيب» وقد يكون من العجيب الذي تلده الليالي أن تعود للشعر دولته المشرقة وعصوره الذهبية. أما وضع الشعر الحالي فهو على هامش الحياة وعلى هامش اهتمامات الجماهير. كم عدد الدواوين التي تباع لأعظم شاعر؟ كم عدد الذين يحضرون الأمسيات الشعرية؟ ماهو الدور الذي يلعبه الشعر في الحياة العامة؟ الإجابة الصادقة على هذه الأسئلة تبين أن الشعر يعيش فترة انكماش وركود بعد أن تخلّى عن سلطانه القديم لوسائل الإعلام المختلفة من اذاعة وتليفزيون وسينما وفيديو - وبعد أن ظهر منافسون خطرون مثل كرة القدم. إذا كانت اتجاهات المستقبل كنزعات الحاضر فإن تفاؤلي بمستقبل الشعر ضئيل للغاية. ولكني أقول مرة أخرى: من يدري!!

شعر عظيم.. في زمان هزيل؟!

*** يرى البعض أن الأدب العظيم والشعر العظيم قليلان في زماننا العربيّ الذي نعيشه.. فما رأيك؟**

محمد همام

❖ رأيي أن «عظمة» الأدب والشعر مستمدة، في الغالب، من رؤية القارئ أو الناقد وليست، بالضرورة، حقيقة لصيقة بالعمل الأدبي. بعبارة أخرى، ما يراه البعض «عظيماً» قد لا يراه البعض الآخر كذلك. أما أنا فأرى أن زماننا لا يخلو من شعر عظيم وشعر رديئ شأن معظم العصور.

الشعر في مستنقعات الهزيمة:

*** إزاء الأوضاع العربية الراهنة، والانتكاسات المتكررة، ماذا تستطيع القصيدة أن تفعل؟ ماذا يستطيع الشعراء؟**

عبدالمنعم إبراهيم

❖ دعني أقف قليلاً أمام «الأوضاع العربية الراهِنة» و«الانتكاسات المتكرّرة». لي

صديق في الستين من عمره يقول لي إنه منذ ولد وهو يسمع عن «الظروف العصيبة» و«المواقف الحرجة» و«أحلك ساعات النضال العربي». وأعتقد أن الأمر لا يختلف بالنسبة لابن الثمانين أو السبعين أو العشرين أو العاشرة. هل مرّت بنا مواسم فرح وانتصارات منذ حطين حتى نولول من الظروف الحاضرة؟ هل كان انهيار الحضارة العربية الإسلامية في بغداد أو في الاندلس أمراً أبسط أو أتفه أو أهون من «الأوضاع العربية الراهنة»؟

لا أودّ أن أدخل في أعماق التاريخ. ولكن أقول، ببساطة، إننا منذ نهاية العصر العباسي «الذهبي» نخوض في مستنقعات هزيمة لا تتخللها سوى ومضات بسيطة من انتصارات مؤقتة.

إذاً، فأوضاعنا ليست شيئاً طارئاً جديداً، ولا موقفاً يتطلب، فجأة، «اعلان الطوارئ الشعرية». بل انني أخشى أن أقول إن الأيام القادمة ستحمل لنا المزيد من «النكسات» هذا التعبير المهذب المؤدب ذو الدم الخفيف الذي أفرزته هزيمة حزيران ضمن ما أفرزت من غرائب.. وعجائب.

ماذا تفعل القصيدة؟! الحق أقول لك: لا شيء سوى أن تكون قصيدة صادقة! لا نريدها تشنجاً، ولا توتراً! ومطلبنا هذا لا يتغيّر من «أزمة» إلى «أزمة» ولا من «نكسة» إلى «نكسة». ليس من واجب الشعر - ولا من حقه - أن يلبس «لكل حالة لبوسها - إما نعيمها وامّا بؤسها!» يكفي الشعر أن يكون شعراً. الشعر هدف في حد ذاته، غاية في حد ذاته. الشعر يحقق كل رسالته بمجرد كونه شعراً.

وماذا يفعل الشعراء؟! عليهم أن يكتبوا شعراً، شعراً صادقاً، شعراً حقيقياً. الشعراء، ياسيدي، ليسوا مصانع حربية متخصصة في إنتاج «الآر.بي.جي» و«الكلاشينكوف» وليسوا من الخبراء العسكريين أو المخططين الاستراتيجيين. وليسوا أكثر الناس وطنية أو شجاعة أو فداء أو استبسالاً. الشعراء، كشعراء، غير مطالبين بشيء سوى أن يكتبوا شعراً. من حق الواحد منهم - ومن واجبه أحياناً - أن يموت ويستشهد ولكنه يفعل هذا باعتباره «وطنياً» أو «قومياً» أو «عقائدياً» وفي هذا المجال فإن كونه شاعراً لا يهمّ كثيراً. دعني أوضح. لقد قرر «بيرون» أن يحارب من أجل استقلال اليونان ويموت هناك ولكن هذا لم يكن قراراً من «كائن شعري» بل من «كائن سياسي». وعندما استشهد غسان كنفاني فإنه لم يقتل لكونه أديباً، ولكن لكونه مقاتلاً. أريد أن أقول، إن الشاعر قد يكون مناضلاً وقد لا يكون. وقد يناضل لأسباب لا علاقة لها بالشعر. وقد يعكس الشعر نضاله وقد لا يعكس. أما الشاعر،

مجرداً من أي صفة أخرى، فلا أتوقع منه شيئاً سوى كتابة الشعر.

القصيدة.. وضجيج التكنولوجيا:

*** هل فقدت القصيدة الشعرية حرارتها تحت وقع ضجيج التكنولوجيا وتعقيدات الحياة؟**

محمد همام

❖ لا! لم تفقد حرارتها، ولا نبضها، ولا موسيقاها، أتدري ماذا فقدت؟ فقدت قدرتها على أن تؤثر في النفوس كما كانت تؤثر في العهود الأبسط، عهود احتفال القبيلة بمولد شاعر، عهود ما قبل الاذاعة والصحف والتليفزيون، عهود «أنف الناقة». لم يعد بالإمكان، اليوم، أن يخزي بيت قبيلة ويرفع قبيلة كما كان يصنع. ولم يعد أحد يحتفل بمولد شاعر (إلا الشاعر نفسه ربّما!). ولكن هذا لا يهم. لا يزال بوسعنا أن نقرأ القصيدة فنشعر بالنشوة الخالصة التي تجعل حياتنا أكثر موسيقى.. وربما أكثر عطاءً.. وأكثر حباً.. ألا يكفي هذا؟

بين الشعر.. والعلم:

*** ما حاجة المجتمعات إلى الشعر والأدب؟ وأين تضعها مقابل العلم والمعرفة؟**

إيمان علي

❖ إذا سلمنا أن الإنسان جسد وروح كان على كل مجتمع يدّعي الإنسانية أن يشبع حاجات الروح بالإضافة إلى حاجات الحسد. وإذا كانت حاجات الجسد تتمثل في المأوى والمأكل والمستشفى والمصنع، فان للروح حاجات من نوع مختلف تشمل الموسيقى والشعر والفنون الجميلة والمسرح. بدون الخبز لا يعيش الإنسان (كما نعرف جميعاً) ولكنه لا يعيش بالخبز وحده كما تقول العبارة الشهيرة المنسوبة إلى المسيح عليه السلام. وأنا لا أرى أي تناقض بين الشعر والعلم. العلم هو الإنسان «في حالة تأمل» - والشعر هو «الإنسان في حالة غناء». ولم أسمع أحداً يزعم أن الإنسان إما أن يقضي حياته كلها متأملاً.. أو يقضيها كلها مغنياً!

ملعقة من الطمأنينة!

*** في زمان الرصاص والبارود، هل هناك مجال لولادة شعر؟**

إيمان علي

❖ من قال إن الشعر يجب أن يولد وفي فمه ملعقة من الطمأنينة والراحة والسلام؟ الشعر رفيق الروح الإنسانية في فرحها وترحها، في أعراسها ومآتمها، من مهدها إلى لحدها. ولقد كانت الحروب والدمار لصيقة بالروح قبل اختراع الرصاص والبارود، منذ أن قتل ابن آدم أخاه.. (ولا يزال يفعل برتابة مضنية!).

الوضع العربي وطاقية الاخفاء!

*** ماهو انعكاس الوضع العربي على شعرك؟**

إيمان علي

❖ لا أدري! الوضع العربي كان، ومازال، البحر الذي أسبح فيه، والهواء الذي استنشقه. كيف، والحالة هذه أستطيع أن أحدد مدى تأثيره على ما أكتب؟ إنني لن أفاجأ إذا اكتشف أحد في يوم من الأيام أن الوضع العربي كان يلبس طاقية الإخفاء ويقبع وراء كل كلمة كتبتها!

الشعر.. في الظروف العصيبة:

*** تمرّ بالأمة العربية ظروف عصيبة ومعارك دامية - فماذا عن دور الشاعر في هذا كله؟**

نبيلة سليمان

❖ أقول - وأجري على الله - ما سبق أن قلته مراراً وتكراراً وأثار البعض مراراً وتكراراً. ليس للشاعر دور شبيه بدور الجندي أو الإطفائي أو الطبيب. دور الشاعر هو أن يكون شاعراً هذا هو كل شيء: بداية القصة ونهايتها. ودور الشاعر - بمعنى كونه شاعراً - لا يتغير ولا يختلف باختلاف الحروب والأزمان والظروف. منذ البداية كان الشعر شعراً فحسب؛ وفي النهاية، يبقى الشعر شعراً فحسب!

الشعر في عصر الفيديو!

*** الوضع الثقافي؟ مشقّة الطبع والنشر؟ التطور الاجتماعي؟ ماهي أهم العوامل التي تعرقل حركة الشعر العربي؟**

إيمان علي

❖ لا هذا، ولا تلك، ولا ذلك! كل يوم تصدر عَشرات الدواوين في مختلف العواصم

العربية. وتمتلأ الصفحات الثقافية في الدوريات «بيأجوج ومأجوج» شعري. المشكلة ليست مشكلة «حركة»؛ إنها مشكلة «تأثير». لم يعد الشعر يؤثر في المجتمع العربي المعاصر كما كان يؤثر في المجتمعات العربية الغابرة والسبب، باختصار شديد، هو ثورة الاتصالات التي زحزحت الكلمة المقروءة عن عرشها ووضعت مكانها الكلمة المرئية/ المسموعة. هذا عصر الالكترونيات - فإذا نجح الشعر في التسلل إلى داخل جهاز الفيديو نجح في الوصول إلى قلب العصر؛ أما إذا بقي محصوراً في ديوان على رفوف مكتبة مغبرة فسوف يبقى هناك - لا يصل إليه إلا القارئ المتعصّب.

الشعر في الزمن الرديء:

*** هل تعتقد أنه يمكن أن يكون هناك شعر في زمن اختفت فيه الأحلام؟ وهل لقسوة الواقع العربي ومشاكله الحالية أثر على أحلام الشعر؟**

محمد همام

❖ الشعر كان، ويظل، ويبقى، عبر المحن والكوارث والحروب وعصور الانحطاط ومستنقعات الهزيمة لأنه جزء حيّ من القلب البشري النابض لا يتوقف إلا إذا توقف هذا القلب عن الحركة. بل لعلنا في الأيام السوداء أحوج إلى الشعر منا في الأيام المشرقة. لعلنا في واقعنا المزري بحاجة إلى شعراء أكثر منا إلى مفكرين. الفكر يصف الحياة؛ أما الشعر فيتجاوزها.

قصائد

ليس ما يشجيك مني كلمات في فمي
إنها - والهف نفسي! - قطرات من دمي

الأخطل الصغير

جَزيرة اللؤلؤ

اليوم.. والأحلام ضائعةٌ مبددّة الشباب
والعمر أشلاءٌ ممزقةٌ بأنياب السرابِ
اليوم.. إذ حان الرحيل وهمت في دنيا اغترابي
ومضى شراعي واهن الخفقات يبحر في الضباب
اليوم تنكرني.. وتتركني وحيداً للعذاب

❖

ما ضرّ لو قبل الرحيل منحتني قبل الوداعِ؟
لو جئت عن بعد تطالعني.. تلوّح بالذراعِ؟
أو ما بدت في ناظريك عليّ بارقة التياعِ؟
أو ما رثيت لذلك الملاح في ليل الضياعِ؟
ذاك المسافر لا يسامره سوى خفق الشراعِ

❖

أنا ذلك الطفل الغريرُ رمته للدنيا الخطوبُ
تركته في صخب الجموع يكاد يخنقه النحيبُ
أبداً تمرّ به العيون تكاد تصرخ: ياغريبُ!
من ذا رماني ريشة في الليل تلفظها الدروبُ؟
لا هذه أرضي ولا أهلي لديّ.. ولا الحبيبُ

❖

❖

أرضي هناك مع الشواطئ والمزارع والسهول

في موطن الأصداف... والشمس المضيئة.. والنخيل

أمي هناك.. أبي.. رفاقي.. نشوة العيش الظليل

حيث الحياة تمر صافية معطرة الذيول

حلمٌ شهي الطيف.. تقنع منه عيني بالذهول

❖

أرضي هناك.. مع الشواطئ والبحار الأربعة

والأفق.. والشفق المخضب حين ينثر أدمعة

فتظلّ ترقبه المياه كأنها تبكي معه

حيث المساء يطل في صمت ويخطر في دعة

ويعانق الآفاق.. يمنح كل قلب أذرعه

❖

الضوء لاح... فديت ضوءك في السواحل يا (منامة)

فوق الخليج أراك زاهية الملامح... كابتسامة

المرفأ الغافي وهمسته يهنئ بالسلامة

ونداء مئذنة مضوأة ترفرف كالحمامة

ياموطني.. ذا زورقي أوفى عليك.. فخذ زمامة

أشعار من جزائر اللؤلؤ

البحرين

١٩٥٩م

١٣٧٩هـ

قافلة الضائعين

قبيل الغروب
جمعت ثيابي
وطفت بدور صحابي
وودعتهم بدموع الحنين
وعدت وكانت دماء الشفقْ
تغطي الأفقْ
حواني طريق الضياع الطويل
وجاء المساء
وأبصرت أشباحه الواجمة
تحملق في
وظلت تردّد في مسمعي
(إلى أين تمضي وهذا الطريق
بدون رجوع؟)
وضجَّ بأذني عويل الرياح
وروّعني من وراء الكهوف عواء الذئاب
وخلف انحناء الدروب رأيت عيون الوحوش
وكدت أعود
ولكن سداً رهيباً أطلّ
يسد عليّ طريق الرجوع

❖

وفي الفجر أقبل نحوي غريب
يردّد أهلاً بهذا الرفيق
وقلبت عيني فأبصرت فيه
هزال الخريف وذل المساء
وكان سؤالْ
وكان سعال طويل وقالْ
(أنا ياصديق من الضائعين
هجرت المدينةْ
وأقبلت أدفن بين الدروب

بقايا الليالي الحزينة
فقد كان لي في رحاب المدينة
حياةٌ وبيتٌ وطفلٌ صغيرْ
وذات مساء أتتنا الرياح
وسارت ببيتي وطفلي الصغير)
وطالعته في حنان الحبيب
وقلت: (يدي يا أخي في يديكْ
فقد كان لي خلف باب المدينة قلب وليد
كطفلك قد كان قلبي الوليد
وذات مساء طواه الردى
فأصبحت من غير قلب أسير
فهيا معي)

❖

وسرنا معاً
وحدّثني عن أماسي الحنينْ
وعن بيته وكروم العنبْ
وما في الحديقة من ياسمينْ
وكيف يطلّ عليها القمر
وحدّثته عن زمان الصغر
وعن إخوتي وليالي السمر
وكيف طوت كل هذا المدينة

❖

وعند الظهيرة
سمعنا خطى مقبلات كثيرة
وجمعاً غفيراً من الضائعين
يسبّون ليل المدينة
وسارت مع الدرب قافلة الضائعين

أشعار من جزائر اللؤلؤ

القاهرة ١٩٥٩م
١٣٧٩هـ

أغنية قبل الرحيل

قبل أن أرحل عن هذي الديار قبل أن أضرب في تيه البحارِ
قرّبي مني .. اسمعي أغنيةً لحنها ضمَّ هدوني وانفجاري
صغتها من لهفة الروح ومنْ رعشة الشوق ومن قسوة ناري
رجفت في القلب ثم انسكبت أحرفاً تكتب مأساة إندحاري
اسمعيها وارقبي أصداءها حين تأتيك على بعد المزار

❖

ما أمرّ اللحن يجتاح الضما موجعاً ينزف ناراً ودما
ترعش الذكرى على خفقته رعشة الطائر في الفخ ارتمى
ويثير الأمس جرحاً كلما ضج في الأضلع أحيا الألما
أنت مَنْ فجّر بركان الأسى فاسمعيه يتلظى حمما
لن أناجيك بأنغام المنى وصدى اللوعة يكسو النغما

❖

أأعيد الأمس قولي أأعيدُ وهو في وحشته طيف بعيدُ
آه كم كنت غريراً عندما خلت أن الحب ميلاد جديدُ
عندما أعطيته من خافقي دفقةً أججها الشوق العنيدُ
عندما صوّرته لي مرتعاً فسنيني فيه نجوى وشرودُ
أيها الطفل! تنبّه! فالهوى عالمٌ مرٌّ وشكوى وقيودُ

❖

كيف أسلمت قيادي للمنى وحسبت الحب فردوس الدنى؟
كيف أهرقت على محرابه صبوتي الأولى وشوقي الأرعنا؟
كيف ناجيتك مأخوذاً بما كنت أدعوه ينابيع السنى؟
لم تكوني في خيالي امرأةً كنت فجراً باسم النور دنا
آه لو أدركت في لحظتها أنت كالناس .. وكالناس أنا

❖

لست فجراً عبقري اللمحات أنتِ أنثى مثل باقي الأخريات
نام في أعماقك الطين وإن أو مضت في شفتيك البسمات
وزها في نفسك الكبر كما عربدت في جانبيك الشهوات
وأنا لا تكذبي لستِ سوى عابرٍ ضاق بأغلال الحياة

في دمي ألفُ صـــراعٍ خــالـدٍ وبأعمـاقـيَ تبـكي الظـلمات

❖

إنني أجـهـل حـتى مقصـدي أتمـنى أنـني لـم أولـد
أنا في قفر حـيـاتي ضـائـعٌ سـار في الركـب بخطوٍ مجهدِ
لفني الليـل فمـا أدري وقـد وئـد النـور بماذا أهتـدي
أين أمضي؟ ياسـؤالا لم يـزلْ ظـامئاً يقـرع سمـع الأبـدِ
هـذه الرحـلـة ما أغـربها أتـرى ندري مـداها في غـدِ؟

❖

يعجز العلم وتعيـا الفـلسـفةْ في جـواب نشـتهي أن نعرفهْ
ما الـذي نبغيه؟ ما بال الفـتى ضـائعاً ما عـاد يدري هدفهْ
هذه الأشـواق.. ما أسـرارها حين تجـتاح النفـوس المـرهفهْ
قلق كالمـوت يستضـعـفنا لم لا نقـدر أن نستـضعـفهْ
أيّ لغـزٍ ذلك الـحـب الـذي كلما لامـس قـلبـاً أتلفهْ؟

❖

أيّ لغـز ذلك الحب؟.. أجـيبي ولماذا تهمـس الـروح حبيبي؟
ولـماذا يخفـق القـلـب إذا باحت النظـرة بالوجـد المذيب؟
ولمـاذا يـذبـل الشـوق كما تذبل الأنـوار من بعد المغيب؟
ولماذا والأسى يحرقنا نسـتطيب العيـش فـي وادي اللهـيب؟
ولـمـاذا إن بسـمنا مـرةً غاضت البسـمة كالظل الغريب؟

❖

أيها الحـب! لقـد آن الفـراق لم يعد في قلبنا الدامـي اشتياق
عبـث اليأس بأشـواق الصـبا مثلما يعبـث بالبـدر المحـاق
كـل ما نـزعـمه عن حـبـنا كـذبٌ.. كـل أغانينا نفـاق
جفّت القـبلة في بسـمتـنا وذوى في بـرد قلبينا العـناق
فلنقـل إنّا انتهـينا وانتـهـت قصـة أسـطـرها عمـرٌ مـراق

❖

هكذا نسدل ياليلى السـتـارا هكـذا يحتـضـر الحب احتضارا
هكـذا تهـزمـنا قصـتـنا بعـد أن كنا حسـبناها انتصارا
هكذا شـاءت لنـا أقـدارنا جفّت الخمرة وانفضّ السكـارى

أذكريني في غــد إن خـفـقــت بين أضـلاعك أشـواق حيــارى

وإذا أحــــببـت بعـــدي فأعلمي أنــنــي بعـدك أحــــببت مرارا

قطرات من ظما

لوس انجلس ١٩٦٢م

١٣٨٢هـ

في شرقنا

في شرقنا.. لا تستحي الشمس من العيونْ
ولا ينام البدر في مهد من السحابْ
ولا يضيع الفجر في الضبابْ

❖

في شرقـــــنا.. مازالت الحياةْ
صبية لم تتقن الدهاءْ
عذراء ما مرّ على أجفانها خبث النساءْ

❖

في شرقنا.. مازالت الجموعْ
تؤمن بالدموعْ
بدمعة عند الرحيلْ
ودمعتين للقاءْ

❖

في شرقنا لا يكرم الحب ولا يهان
لا يمدح.. لا يذمْ
لكنه يعيش في الظلامْ
في نظرةٍ خلف النقابْ
في همسةٍ تلعثمتْ وراء فمْ
في ناهدين ارتشعا تحت الثيابْ
في شرقنا لا يعرف الحب الضياءْ
إلا إذا باركه دق الطبولْ

❖

في شرقنا ننام في سلامْ
ونمضغ الأحلام حين يعوز الطعامْ
وننثني للبدر حين نشتهي الكلامْ
وعندما نضيق بالحياة
نقول بابتسامْ،
عليكمْ السلامْ

البحرين ١٩٦٥م
١٣٨٥هـ

الهنود الحُمر

كانوا يحبون الطبولْ

ويزمجرون على الخيولْ

حتى إذا جاء المساء تحلّقوا

حول الزعيم يدخنونْ

ويثرثرونْ

ويهدّدون الأبيض الملعون بالموت الزؤامْ

والليل يزأر بالطبولْ

والتبغ يلعب بالرؤوسْ

والحقد يجتاح النفوسْ

❖

حتى إذا جاء الصباحْ

حملوا الفؤوسْ

ومضوا إلى البيض اللئامْ

لكنْ سيلاً من رصاصْ

سد الدروب فلا خلاصْ

وتساقطوا مثل الذبابْ

حتى الزعيمْ

صرعته امرأة.. فخرّ على الترابْ

❖

مرّت سنونْ

واليوم ماذا عن حضارتهم

نقوشْ

ملء المتاحف.. أو بقايا من سلالتهم

على السوّاح تُعرض ثم يبتسم الدليلْ

عاشوا كما تحيا الوحوش

كانوا يحبون الطبولْ

ويزمجرون على الخيولْ

ويلقّبون زعيمهم صقر الجبال

❖

قل يا أخي

- والنجمة المعقوفة الشوهاء

تلمع في المنائر

والمسجد الأقصى يرذد ما يرتله

اليهود من الشعائر -

هل يبصر السواح يوماً من

حضارتنا بقايا

ملء المتاحف.. أو سبايا

في حانة في تل أبيب؟

معركة بلا راية

لندن ١٩٦٧م

١٣٨٧هـ

رُباعيّات عاشقة

جميلة أنت؟ لست أدري ... الشمس تحبو على عيوني
فلا أرى منك غير برق ... كلمعة الحب في ظنوني
أفديكِ هل أنت من خيالي؟ ... أفكرةً صاغها جنوني
فقد جعلت الحياة دربا ... في كوكب دافئ حنون

❖

حملتَ إليك حرمان الصحاري ... فكيف أحلتهِ ريا وخصبا؟
وكيف صنعت من ظمأي نعيما ... وكيف جعلت جوع الروح حبا؟
وكيف نسجت دفئا من شتائي ... وكيف أعدت حتى الجرح عذبا؟
وكيف مشت عيونك في ضياعي ... ومدّت لي من المجهول دربا؟

❖

سأجعل من عينيك أنشودة الورى ... سأجعل من عينيك معجزة الفنِ
وأكتب في عينيك شعراً إذا شدا ... به سامرٌ هام المساء مع اللحن
وغارت صبايا الحيّ كل جميلة ... تسائل من هذي التي ملأت دنيّ
ستذكرنا الأيام منك صبابتي ... وما ينقل السمّار عن حبنا مني

❖

تمنيت لو نحن سرنا على ... الخليج إذا ما استدار القمرُ
نبلُل أقدامنا بالمياه ... ونصغي إلى ذكريات السحرُ
وتغتسلين بليل بلادي ... بليل القوافي.. بليل الصورْ
ونبحر في الفجر - حين تعود ... الزوارق - تحت شراع الخدرْ

❖

طفتِ في بالي فطافت قصة ... في خيالي من ليالي شهرزاد
ورأيت الأفق يدعوني إلى ... موعدٍ عبر بحار السندباد
يا بساط الريح جئناك فطرْ ... قبل أن يدركنا ليلُ البعاد
ألقنا في نجمة مسحورة ... ألقنا بين أساطير الرقاد

❖

شــــوقــــي إليــــك كأنـــــه | شوق الســــؤال إلى الجــــواب
شــــوق الحقيـقة أن تــــمـــزق | شـــمـــســـها ليـــل الســحـــــاب
شـــــوق الجنين إلى الحيـــاة | وراء دهـــــليـــز الضـــبـــاب
شـــوق الشـــباب إلى الهــــوى | شـــوق المـــشــــيب إلى الشباب

معركة بلا راية

لندن ١٩٦٨م

١٣٨٨هـ

وتبسم يارا

وتبسم يارا
فيرقص قوسا قزحْ
على مقلتيها
وينفلت الفجر من شفتيها
ويبسم حتى الجدارْ
وتضحك يارا
فيعلو هديل الحمام
وتصدح فيروز للمستهام
ويكمل عرس النهارْ
وتعبس يارا
فقف يانسيمُ
وغب يا ربيعُ
وضع يافرحْ!

الرياض ١٩٧١م
١٣٩١هـ

أبيات غزل

مغرورة

حبيبتي أميرةٌ في النساء — تومض في ناظرها الكبرياء

جاد لها الحسن بما تشتهي — وأعطيت من دهرها ما تشاء

يقول عنها الناس مغرورة — ويلي من الناس.. من الأغبياء

ما قيمة الحسن إذا لم يكن — فوق حدود الوهم.. فوق الرجاء؟

وهل عشقنا البدر لو أنه — خرّ إلى الأرض وعاف السماء؟

أبيات غزل

القاهرة ١٩٥٩م

١٣٧٩هـ

السكوت

ميتة حروفنا
مثل ضمائر الطغاة
ما اغتسلت في بركة الحياة
ولا درت ما رعشة المخاض
ما ألم الجراح
ما روعة السير على الرماح

❖

نحلم أن عالماً بلا قيود
ينبت من أقلامنا المشلولة
نحلم أن موسماً من الورود
يزهر في صدورنا المسلولة
نحلم بالمعجزة الجديدة
نابعةً من فوهةِ القصيدة

❖

تعبث إسرائيل في مساجدي
تنتف ذقن والدي
وأختفي
كالفأر في قصائدي

❖

حين يخاف الشاعر المقدام أن يموت
يصبح أحلى شعره السكوت

الرياض ١٩٧١م
١٣٩١هـ

حُبّكِ

وأسأل فيم أحبك؟

يقفز ألف جواب

فهذا يقول لأنك أحلى النساء

وهذا يقول لأنك وكريَ حين تجنّ العواصف

هذا يقول لأنك صوت ضميري المهدّد بالصمت

هذا يقول لأنك تدرين أني طفل صغير

أحنّ إلى من يحنّ عليّ

هذا يقول لأنك

أنت خلاصة ما في الوجود من الرفق والمكر والخجل

الحلو والرغبات

وأعرف وحدي الجواب

لأن الطيور تغني

لأن العبير يضوع

لأن النجوم تضيء

لأن الدموع تسيل

لأني لو لم أحبك

ما كنت أنت

ولا كنت نفسي

❖

وكالبحر حبّك

في البحر دنيا نرى بعضها وتغيب الجبال

تغيب المروج

وفي البحر دفء وبرد

وفيه صراع وريح

وفيه الموانئ ترقب صابرة سندباد

ومنذ الطفولة كنت أحب البحار

وأحمل في أضلعي غربتي وردة من دموع

وأقبل حبك ألقيت فيه القصائد

والقلب والذكريات

وأبحرت خلف الكنوز

تعلمت في غمرة الموج أن الحياة

تطيب إذا لامستها الشجاعة

إن المسافر في الحب ليس يموت

❖

وكالليل حبك

ينزل فوق الطيور الصغيرة

يدخل تحت الجفون

يمسّ الخلايا البعيدة في الروح

لا ينتهي الليل يولد كل مساء

وفي الليل شوق إلى كل ما لا يكون

وفي حبك الليل ألعب بين النجوم

وألقط بدراً هنا وهلالاً هناك

وحبك كالليل يفضح ما نمقته

أكف النهار من الزيف كالليل

يمشي وديعاً

ويعرف كل حزين غريب

ويبكي عليه

❖

وحبك قربة مائي

وقد أخذتني القفار إلى صدرها

المتفجر شوكاً ورملا

وحبك صدقي

وقد ضاع في الكلمات الرخيصة صوت الحقيقة

حبك عيناي تقتحمان دروع الضباب

أنت الرياض

جدة ١٩٧٦م/ ١٣٩٦هـ

الحُمَّى

أحسُّ بالرّعشةِ تَعتريني
والموتَ يَسترسلُ في وتيني
وَموجةُ الإغماءِ تَحتويني
فقرّبي مِنّي وَلامِسيني
مُرّي بكَفّيكِ عَلى جَبيني
وَقبلَ أنْ أرقدَ حَدّثيني

❖

قُصّي عليَّ قِصّةَ السنين
حِكايةَ المُشرّدِ المِسكين
طَوّفَ عَبرَ قَفرِهِ الضَّنين
يَشربُ مِنْ سَرابِهِ الخؤون
وَيَشتكي النُّجودَ لِلحُزون
وَجرّبَ الغُربةَ في السُّفُنِ
وَهامَ في مَرافئ الجُنون
كَسندبادِ أحمقٍ مأفون
وعادَ بالحُمّى وبالشجون
مُحمَّلاً بصَفقةِ المغبون
هاتي كِتابَ الشِّعرِ أنشِديني
قَصيدةً رائعةَ الرّنين
كَتبتُها في زَمنِ الفُتون
أيامَ كُنتِ سَاذَجَ العُيون
قَبلَ انتحارِ الوَهمِ في اليَقين
وغَضبةِ الكَهلِ عَلى الجَنين
وَصَحوتي في الواقعِ الحَزين
هَلْ تذكُرينَ الآن؟.. ذَكّريني

بَراءتي في سَالفِ القُرُون

قَبلَ قُدُومِ الزَمَنِ المَلعُون

يَبيعُني حيناً.. وَيَشتريني

يَمنحُني المَال.. ولا يُغنيني

يَسكُبُ لي المَاءَ.. ولا يُرويني

وَيَجعَلُ الأغلالَ في يَميني

وَيَزدري شِعري.. وَيَزدَريني

يَالِشقَاءِ البُلبُلِ السَجين

في القَفَصِ المُذهَبِ الثَمين

يُنشِدُ مَا يُنشِدُ مِنْ لُحُون

خَافِتَةٍ.. دَافِئَةِ الشُؤون

مِثلَ دَمٍ يَسِيلُ مِنْ طَعين

❖

تَعِبتُ مِنْ جِدّيَ وَمِنْ مُجُوني

مِنْ كُلِ مَا فِي عَالَمِي المَشحُون

مِنْ مَسرَحٍ مُختَلِطِ الفُنون

مَشَاهِدٌ بَاهِتَةُ التَلوين

أغنِيَةٌ رَدِيئَةُ التَلحين

إمرَأةٌ شَابَتْ فَمَا تُغريني

بَرِمتُ بِالمَسرَحِ.. أخرجِيني

مُرّي بِكَفّيكِ عَلىَ جَبِيني

وَقَبلَ أنْ أرقُدَ.. وَدِّعِيني

الحمى

الرياض: ١٩٧٩م

١٣٩٩هـ

يَا أعزَّ النِّساء!

يَـا أعـزَّ الـنّـسَـاء! هـمّـي ثـقِـيـلُ

هَـلْ بِـعَـيْـنَـيْـكِ مَـرْتَـعٌ وَمَـقِـيـلُ؟

هَــلْ بِــعَــيْــنَــيْــكِ - حِــيْنَ آوِي

لِعَيْنَيْكِ - مُرُوجٌ خضْرٌ وظِلٌ ظَلِيلُ؟

هَـلْ بِـعَـيْـنَـيْـكِ بَـعْـدَ زَمْـجـرَةِ

الـقَـفْـرِ غَـدِيـرٌ وخَـيْـمِـةٌ وَنَـخِـيـلُ؟

يَـا أعَـزَّ الـنّـسَـاء! جِـئْـتُكِ جَـوْعَـانَ

طَــعَــامِــي كَــآبَــةٌ وَذُهُــولُ

يَـا أعَـزَّ الـنّـسَـاء! جِـئْـتُـكِ حَـيْـرَانَ

فَـأيْـنَ الْـحَـادِي وَأيْـنَ الـدّلِـيـلُ؟

يَـا أعَـزَّ الـنّـسَـاء! جِـئْـتُـكِ ظَـمْـآنَ

فَـأيْـنَ الأكْـوَابُ وَالسَّـلْـسَـبِـيـلُ؟

يَـا أعَـزَّ الـنّـسَـاء! جِـئْـتُ حِـصَـانـاً

مُـثْـخَـنـاً هَـدَّهُ السِّـبَـاقُ الـطَّـوِيـلُ

كُــسِــرَتْ سَــاقُــهُ فَــجُــنَّ إبَــاءً

كَـيْـفَ يَـخْـبُـو هـذَا الْـجَـوادُ الأصِـيـلُ؟

❖

وَتَـسَـاءَلْـتِ مَـا دَهَـاكَ حَـبِـيـبِـي؟

وَطَـوانِـي الـشَّـذَا وَغَـنَّـى الْـهَـدِيـلُ

«إتْـرُكِ الْـجُـرْحَ لَـحْـظَـةً يَـتَـكَـلَّـمْ

رُبَّ جُـرْحٍ يَـطِـيـبُ حِـيْـنَ يَـقُـولُ»

يَـا أعَـزَّ الـنّـسَـاء! سِـفْـرُ شَـقَـائِـي

كُـلُّ سَـطْـرٍ فِـيـهِ حُـسَـامٌ صَـقِـيـلُ

أنَــا مِــنْ أمَّــةٍ تَــخُــوضُ وُحُــولاً

مِـنْ هَـوَانٍ وَتَـزْدَرِيـهَـا الْـوُحُـولُ

غَـسَـلُـوا الْـقُـدْسَ بِـالْـبُـكَـاءِ ويَـجْـرِي

بِـدُمُـوعِ الأسَـى الـصَّـبُـورِ الـنّـيـلُ

وَالْخنوعُ الذَّليلُ يَلْعَنُ تَاريخي

وَتَاريخُهُ الْخنوعُ الذَّلِيلُ

قَتَلُوهُ ومَا دَرَى فَتغَنَّى

بِسَجَايَا سفَاحِهِ الْمَقْتولُ

أمَّتي! أمَّتي! أمَّتي الشَّقِيَّةُ! مَلَّ الْعجزُ

مِنَّا.. وَضَجَّ صَبْرٌ جَمِيلُ

حَارَبَتْنا مِنَ التَّتار قرُودٌ

وَغَزانَا مِنَ الْجَرَادِ قَبِيلُ

وَفُلُولُ الْيَهُودِ تَلْهُو بَأرْضِي

عَجَبًا تَهْزِمُ الْجمُوعَ فُلُولُ

❖

يَا أعَزَّ النِّسَاءِ! مَا أرْخصَ

الألْفاظ يَجْتَرُها اللِّسانُ الْقَؤولُ!

فَعَلُوا كُلَّ مَا أرَادُوا بِشَعْبِي

وَسلاحِي الأفْعَالُ وَالتَّفْعِيلُ

وَيغيرُونَ بالْجيُوشِ وَأنْقَضُّ

بِشعْرٍ يُسَرُّ مِنْهُ الْخلِيلُ

يَا بِحَارَ الْقرِيضِ مَا عَزَّ بَحْرٌ

لَمْ يَصنْهُ مِنَ الْعِدَا أسْطُولُ

يَا قَوَافِيهِ لَيْتَ لِي بَدلاً مِنْكَنَّ

سَيْفًا أضُمُّهُ وَأصُولُ

لَيْتَنِي أعْرِفُ الشَّجَاعَةَ يَوْمًا

بَعْدَهُ يُشْتَهَي وَيُرْجَى الرَّحِيلُ

❖

يَا أعَزَّ النِّسَاءِ! أيْنَ مَضَى

الطِّفْلُ وَأيْنَ ابْتِسَامُهُ الْمَعْسُولُ؟

أيْنَ وَلَّتْ بَرَاءَتِي؟ أيْنَ طُهْرِي؟

أيْنَ غَابَ الْفَتَى الْعَفِيفُ الْخجُولُ

كَبِرَ الطِّفْلُ شَيَّبَتْهُ لَيَالِيهِ

وَعَـرَتْـهُ مِـنْ صِـبَـاهُ الْـفُـضُـولْ
قَـبْـضَـةُ الأَرْبَـعِـيـنَ تَـهْـصُـرُ رُوحِـي
فَـأَحَـاسِـيـسِـيَ الْـعَـذَارَى كُـهُـولْ
لَـمْ تَـعُـدْ ثَـمَّ شُـعْـلَـةٌ مِـنْ حَـمَـاسٍ
سُكِـبَ الـزَّيْـتُ وَاسْـتَـرَاحَ الْـفَـتِـيـلْ

❖

يَـا أَعَـزَّ الـنِّـسَـاءِ! أَخْـشَـى عَـلَـى قَـلْـبِـي
مِـنَ الْـمَـجْـدِ إِنَّـمَـا الْـمَـجْـدُ غُـولْ
تَـأْكُـلُ الـرِّفْـقَ وَالـسَّـمَـاحَـةَ وَالـطِّـيـبَـةَ
فَـالْـقَـلْـبُ وَحْـشَـةٌ وَطُـلُـولْ
وَالـطُّـمُـوحُ الَّـذِي يُـغَـنِّـي لَـهُ الـنَّـاسُ
سَـرَابٌ مَـا بُـلَّ مِـنْـهُ غَـلِـيـلْ
وَالْـمَـعَـالِـي الَّـتِـي يَـهِـيـمُ بِـهَـا الأَقْـوَامُ
وَهْـمٌ لَـهُ تُـدَقُّ الـطُّـبُـولْ

❖

يَـا أَعَـزَّ الـنِّـسَـاءِ! جِـئْـتُ هَـزَارًا
جَـدَّ فِـي إِثْـرِهِ عُـقَـابٌ أَكُـولْ
حَـارَبَـتْـهُ الـرِّيَـاحُ فَـهْـوَ جَـنَـاحٌ
رِيـشُـهُ فِـي دِمَـائِـهِ مَـبْـلُـولْ
يَـا أَعَـزَّ الـنِّـسَـاءِ! إِنْ قُـلْـتُ شِـعْـرًا
أَحْـرَقَ الـشِّـعْـرَ كَـاهِـنٌ مَـخْـبُـولْ
يَـا أَعَـزَّ الـنِّـسَـاءِ! إِنْ قُـلْـتُ نَـثْـرًا
سَـفَّـهَـتْـهُ فَـطَـاحِـلٌ وَفُـحُـولْ
وَإِذَا مَـا صَـمَـتُّ عَـذَّبَـنِـي الـصَّـمْـتُ
وَهَـلْ تَـهْـجُـرُ الْـبُـكَـاءَ ثَـكُـولْ؟
قَـدَرِي مَـا صَـنَـعْـتُـهُ بِـاخْـتِـيَـارِي
قَـدَرِي صَـاغَـهُ الْـعَـلِـيُّ الْـجَـلِـيـلْ

الرياض ١٩٨٠م
١٤٠٠هـ

الحمّى

العودة إلى الأماكن القديمة

عدتُ كهلاً تجرّه الأربعونْ

فأجيبي، أين الصِبا والفتونْ؟

مِلءُ رُوحي الظمَا... فأين «عذاري(١)»؟

وبقلبي الهوَى... فأين الجُفُونْ؟

ما تغيّرتِ.. أنت ليلى الّتي أعشقُ

... لكنْ تغيَّر المجنونْ

عُدتُ بحرينُ.. لا الفؤادُ فؤادٌ

مثلُ أمس.. ولا الحنينُ حنينْ

قدَري كان بالجِراح سخيًا

والذي يلثم الجراحَ ضنينْ

ألفُ شمس تفجّرت في جبيني

عجبًا كيف ما تلاشى الجبينْ

جرّعتني أوصابهنّ.. عصورٌ

وسقتني أوجاعهنّ.. قرونٌ

عدتُ والشيبُ بارقٌ عبر فودي

وعلى مُقلتيَّ غيمٌ هتونٌ..

وسميرايَ حُرقتي والقوافي

ونديمايَ غُربتي والشجونْ

ألبستني ثوبَ الغبارِ الصحَاري

فأنا فيه لا أكادُ أبينْ

أتذكّرتِ يا حبيبةُ وجهي..

أم ترى نكّرتهُ هذي الغضونْ؟

لا عتابٌ إذا نسيتِ عهودي

لكِ، شأنُ الحِسان، قلبٌ خؤونٌ

❖

كانَ يغفو في أذرعِ البحرِ بيتي

---

(١) «عذاري» ينبوع ماء شهير في البحرين.

حَـــوْلـــه المَاء رقصَـــةٌ ولحُوْنٌ

كُــنت أصــحُــو وَالجزرُ خِـلٌ وَفـيّ

كُـــنت أغــفُـــو والمدُّ جَـــارٌ أمينٌ

والأمَـاسِـي عَـلـى الضـفَـافِ نَـعـيـمٌ

والـهَـواري(١) لـهـوٌ وصَـيـدٌ سَـمِـينٌ

زرتُـه الـيـومَ.. فـانـثـنـيتُ وَقـلـبي

يــتـلَـوّى.. كـأنّـهُ المطـعُـونُ

ذهبَ البَحرُ! من ترى اغتال بحري

فـهـوَ صَـخـرٌ صَـلـدٌ وقـارٌ مَـهينٌ؟

عـنـدَ مـا تـقـتـلُ الحَضَارةُ بحْرًا..

يـعُـولُ الصّـمتَ وَالـفَـراغُ الحَزيـنُ

وتـلـفُّ الـبِـحَـارَ مَـوجَـةُ يَـأس

وَعَـلـى الماءِ يُـنـقَـشُ الـتـأبِـينُ

وَتـظـل الـتـوارسُ الـبـيضُ تـبـكِـي

ضَـائـعـاتٍ.. وَيُـجـهشُ الـدّلـفينُ

يَـاخَـلـيـجـي الـقَـديمُ! إنك مَـثـلـي

عَـاقـبـتـنـي وَعـاقـبـتك السُّـنـونُ

❖

رُحت في فـرضَـةِ(٢) المنَـامـةِ أمشِـي

فـطـوَتـنـي في ذِكـريَـاتِـي السـفـينُ

أيـنَ جَـالـبُـوتـنـا(٣)؟ شـرَاعٌ قـَديمٌ

يــتـحَـدّى الـهَــوَا وقـلـعٌ مـتـينٌ

أيـنَ مـنّـي الحدّاق(٤)؟ أيـنَ ميَاديـري(٥)

وأيـنَ الرّبـيَـانُ(٦).. أيـنَ العجينُ(٧)؟

والسّبيطي(٨)؟ ونتعة(٩) تخلع القلبَ

سـرورًا؟ والـقـبـقـبُ(١٠) الملـعُـون

---

(١) الهواري قوارب الصيد الصغيرة

(٢) الفرضة: الميناء.

(٣) الجالبوت: السفينة الشراعية.

(٤) الحداق: صيد السمك بواسطة السنارة.

(٥) المياديرِ: جمع ميدار وهو السنارة.

(٦) الربيان: الجمبري وعادة ما يستخدم كطعم في السنارة.

(٧) يستخدم العجين أحيانا كطعم في السنارة .

(٨) السبيطي: نوع من أنواع الأسماك المشهورة في الخليج.

(٩) النتعة: شدة السمكة للسنارة.

(١٠) القبقب: سرطان البحر.

أينَ مني الغرُوبُ ينزفُ شعرًا

فعلى الأفقِ مِن دمَاه فُتُونُ؟

ورُجُوعي والليلُ شيخٌ وقورٌ

طلعةٌ حلوةٌ وقلبٌ حَنُونُ

آه يَا بَحرُ أنتَ في قاعِ رُوحي

وأنا فيكَ سندبادٌ سجينٌ

❖

غبتَ في الحيّ أنبشُ الأمسَ نبشًا

وهو في عَالمِ الضبابِ رَهينٌ

أينَ ذاكَ البقّال(١) بسرٌ ولوزٌ(٢)

وحمَارٌ محتطٌ مِسكينٌ؟

أينَ ذاكَ الشقاءُ نَجري وَنشدُو

خلفَه وَالزقاقُ مَاءٌ وطينٌ؟

أينَ سَالمين(٣)؟ والعَصَا وبخورٌ

أرعبَ الحَيَّ كُلَّه سَالمينُ

أينَ ذاكَ الضجيجُ في لعبَة الصَرقيع(٤)

يَعلو؟ وَالقَبُ والقلّين(٥)

أينَ ناميلتنا(٦) يَطيش وَيغضَى

فهو كالدهرِ ثورةٌ وسكونُ

أينَ نبتٌ غضٌ على السيفِ يُلقَى

كلَ عيدٍ (٧) وَأينَ قرقاعُونُ(٨)؟

غَيّرت لَمسَةُ التطورِ حَيّي

فهوَ شكلٌ فَخمٌ وَلا مَضمُونُ

---

(١) البقال: بائع يتجول في الأحياء على حماره ويبيع الخضروات والفواكه. (٢) اللوز: ثمرة تنبت في الخليج.

(٣) سالمين: رجل أسود عجوز غريب الأطوار كان يرتدي بدلة عسكرية ويجوب الحي بعصاه وفي يده مبخرة.

(٤) الصرقيع: لعبة من ألعاب الصبية في البحرين.

(٥) القب والقلين قطعتان من الخشب إحداهما قصيرة والأخرى طويلة تستخدمان في لعبة الصرقيع.

(٦) الناميليت: نوع من المياه الغازية.

(٧) كان الأطفال في البحرين يلقون على شاطئ البحر في أمسية العيد نباتاً صغيراً سبق ان زرعوه في وعاء ويغنون وتسمى هذه المناسبة «الحيّة بيّة».

(٨) القرقاعون: طواف الصغار ليلاً خلال النصف الأخير من شهر رمضان المبارك وهم ينشدون ويتلقون من كل بيت أصناف النقل والحلوى.

أيُّهَا الحَيّ! إن عتبتَ فقل لي،
داسَ قلبي وَداسكَ التمدينُ
أيّها الحَيّ! لوّثتنا الليالي
فكِلانَا بَعدَ النقاء هجينٌ

❖

أينَ نجلاء؟! بيتها كان قربَ العَين
يا عَينَها! فدتكِ العُيُونُ
نظرة فابتسامة فمكاتيب
عليها تنفسَ اليَاسمينُ
فَاشتيَاق.. فصَبوةٌ.. فسُهَاد
فهُيامٌ.. فلَوعَةٌ.. فجنُونُ
فَقصيدٌ تشكو الدفاترُ مِنهُ
قلّ فيهِ الفصيحُ وَالموزونُ
خيرُ شِعرٍ مَا قيلَ وَالقلبُ طِفلٌ
خيرُ حُبٍ مَا مَاتَ وَهوَ جنينٌ
أينَ نَجلاء؟! مَرّ بي ألفُ وَجهٍ
إنمّا وَجهُهَا بِروحِي دَفينٌ
ألفُ حُبٍ.. لكن أوّل حُبٍ
هوَ في مُهجتي الأثيرُ المصُونُ

★

أيّها النَاسُ! هل رأيتم شبَابي؟
كَانَ أحلى ممّا تَظنُ الظنون

الرياض ١٩٨١م
١٤٠١هـ

العودة الى الأماكن القديمة

نفرٌّ.. فديتكِ!

نفِرُّ.. فَديتكِ!.. نحوَ الطفولَة
لو ساعتينْ
فنأكل في الشمس تفاحتينْ
وألقِي عليكِ بفرّورتينْ..
ونغرق.. نغرق في ضحكتين

❖

وهاتي منَ الرّف سَيّارتينْ
ستغلبُ سيّارتي في السبَاق
بطرفةِ عينْ
وهاتي الدمى.. سَوفَ نختارُ
من بَيتهَا طفلتَينْ
وَنبني من الرمل أرجوحتين
ونَغرق.. نَغرق في ضحكتَينْ

❖

نفرّ.. فديتكِ!.. من عبثِ الدهرِ بالوجنتَين
وَما يفعل الشيبُ بالمفرقينْ
ومن كلّ قلبٍ
يُمزقه الحقدُ بالمخلبيْنْ
ومن كُل روحٍ
تعيشُ من الكرهِ في مَأتَمين
نَفرّ فَديتكِ!.. نحوَ الطفّولةِ
نرضعُ من ثديها رضعتَينْ
ونغرق.. نغرق في ضحكتَينْ

❖

نفرُّ.. فديتك!.. نحوَ الطفولَة
ممّا يقولون عني

(لأنـي أغني
لأني إلى أن أموت أغني)
نفرّ على متن أرجوزتين
ألمّ حريرَ القوافي وأبني
لعينيك من بعضه خيمتين

❖

نفرُّ.. فديتك!.. نحوَ الطفولة
لو ساعتين
وإن ضاع منا طريقُ الرجوع
نهيمُ على وجهنا ليلتين
ونغرق.. نغرق في ضحكتين

العودة إلى الأماكن القديمة

الرياض ١٩٨٤م
١٤٠٤هـ

سيرة شعرية
الجزء الثاني

الفصل الأول

ورود على ضفائر سناء

الأربعونَ .. أقلَعَتْ

كزورقٍ منكسرِ

وهذه الخمسونَ تدنو ..

كالخريفِ الحَذِرِ

قولي لها : «تَمهَّلي !

ببابهِ .. وانتظري !»

قولي لها : «لديه - بعدُ -

كتبٌ .. لم تُنشَرِ

قصائدٌ .. ما نُظِمتْ

عن جُزرٍ .. لم تُعبَرِ

وقِصَصٌ .. ما كُتبتْ

عن الحيارى البشرِ

وموعدٌ .. لَمّا يَحنْ

مع الرياحِ .. الأخرِ»(١)

---

(١) أنظر غازي عبدالرحمن القصيبي «قطرة من مطر» ورود على ضفائر سناء. بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثانية ١٩٨٩ م.ص ٢١-٢٢ وانظر ما يلي ص ص ١٢١-١٢٦.

كانت الحياة في البحرين تسير على وتيرة هادئة مطمئنة. زالت تلك «الحمّى» التي كانت تواكب ساعات النهار والليل في العهد الوزاري. بعد العناء والإرهاق المستمرين عبر عقد من الزمان ، جاء العمل في السفارة وكأنه إجازة مدفوعة الثمن. كنت ولا أزال ، عندما يسألني أحد عن الفرق بين عمل الوزير وعمل السفير أجيب ، مازحاً شبه جاد ، إنه الفرق بين «فيلدمارشال» يقود جيشاً عرمرماً ، وبين «شاويش» لا تتجاوز حدود سلطته فردين أو ثلاثة. هذا ليس انتقاصاً من شأن الدبلوماسيين ، وهم جنود مجهولون يقومون بخدمات جليلة كثيرة ، لكنه تقييم واقعي للمنصبين ، الأول يتطلب اتخاذ الكثير من القرارات اليومية الصعبة . والثاني يندر فيه اتخاذ قرار صعب من أي نوع.

على أن طبيعة العمل في السفارة لم تجيء مفاجأة لي. كنت أعرف تمام المعرفة ، من الخبرة الشخصية ، أن الوظيفة الجديدة لا تحمل معها تحدياً يذكر. حقيقة الأمر ، أني واجهت من التحديات في تجربتي الوزارية ما يملأ حياة كاملة ، أو حياتين!، وكنت أتطلع ، بشغف ، إلى مرحلة طويلة من الراحة ، كان الموقع في البحرين من اختياري ، وكنت أعرف ، عندما اخترته ، أن العلاقات الحميمة بين المملكة والبحرين ، وأن العلاقات القوية المباشرة بين كبار المسئولين في البلدين ، سوف تستمر كما كانت دون كبير حاجة إلى خدمات سفير.

كنت أبدأ يومي العملي في التاسعة صباحاً وأنهيه في الثانية بعد الظهر ، مع استثناءات لا تكاد تذكر عندما تكون هناك ارتباطات في المساء أو عند انعقاد مؤتمر هام. أتاح لي هذا البرنامج فرصة للقراءة لم تتح لي قبل إقامتي في البحرين ، ولم تتح لي بعدها. بنيت في المنزل مكتبة كبيرة ، وكنت أقضي بين رفوفها قرابة خمس ساعات يومياً. بالإضافة إلى القراءة ، سمح لي برنامج العمل بممارسة هوايتي المفضلة ، صيد السمك . اقتنيت قارباً صغيراً كنت أقضي فيه ما يكاد يعادل الوقت الذي كنت أقضيه في المكتبة . بين صيد الخواطر وصيد الأسماك ، كانت الأيام تعبر بي مشبعة بالطمأنينة والسكينة.

في أحضان هذه البيئة الوادعة المريحة نشرت ديوانين صغيرين أولهما **(ورود على ضفائر سناء)** وقد كتبت معظم قصائده بين سنتي ١٩٨٥م و ١٩٨٧م. «استراحة المحارب» تكاد تظهر في كل قصيدة من قصائد الديوان. هناك، في كل مكان، ذلك الشعور أن المرأ أخذ نصيبه من المعارك، بأنواعها، وأنه لم يعد يحتاج إلى المزيد. قصيدة «الفرسان» تتحدث عن عبثية البطولة. وتستعرض حياة عدد من فرسان الشرق والغرب لقوا نهاية مأساوية وتسال التاريخ عن فارسه المفضل. إلا أن التاريخ يصمت، «يبسم ثم يضحك ثم يضحك ثم يضحك.. ثم يغلبه السعال»(١).

وقصيدة «السير في المستحيل» تعلن انتهاء النضال بكل أنواعه :

هزمتِ !

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠

وعاد الطموح كطيرٍ جريحٍ

على الفخ رفًا

كأنيَ ما كنتُ في صخب العمرِ..

أو من بالحرف حلواً مُقفّى

يحطم كوناً ..

ويقهر ظلماً

ويرتاد حتفا ..

وينجب قبل الشهادة حرفا(٢)

وفي قصيدة «يا ابنة العشرين» هناك هذه المقارنة بين طموح الحبيبة وطموح الشاعر:

أغركِ أنني أحيا غروبي

وأنكِ وردةُ الفجر الجموحِ ؟

وأن حِسانَ أيامي ورائي

وأنكِ طفلةُ الأفق الفسيحِ ؟

وأنكِ والطموح على وفاقٍ

وأني بتُّ يلعنني طموحي ؟(١)

كان الواقع العربي، أيامها، يسير من سيء إلى أسوأ. كانت إسرائيل تصول وتجول وتعربد. ولم يكن يومض في هذا الظلام الدامس سوى بطولات فردية هنا وهناك (ويالشقاء أمة تحتاج إلى أبطال، كما قال بيريخت). في جو الإحباط واليأس والهزيمة ظهرت «سناء محيدلي» في جنوب لبنان لتثبت ما يمكن أن تفعله فتاه واحدة شجاعة. وُلدتْ قصيدة تحي بطولة سناء، وهي القصيدة التي حمل الديوان اسمها :

سناءُ !

ماذا نقول يا سناءُ ؟

أقلامنا تعفنتْ من الرياءْ

لِساننا انشقَ من البكاءْ

عيوننا الخواء يمضغ الخواءْ

قلوبنا الحجارةُ الصمّاء

ماذا نقول يا سناءُ ؟

لم يبق ما بين الرجال فارسٌ

فأقبلي..

فارسة النساءْ(٢)

---

(١) المرجع السابق ص ٦٣ .

(٢) المرجع السابق. ص ص ٥٨.٥٧ .

رغم هذا الجو الخانق كنت أشعر أن هناك جنيناً يتململ في ضباب الاستسلام، أن هناك فارساً ما في مكان ما يستعد للإنطلاق. وجاءت قصيدة «حكاية مهر الرياح» التي أهديتها إلى صغار فلسطين بمثابة نبوءة سرعان ما تبعتها ثورة الحجارة. لا أودّ أن أحمّل الأشياء فوق ما تحتمل، خصوصاً وأنا أكرر في كل مناسبة أن الشاعر لا يمتاز عن غيره من البشر بشيء سوى موهبة الشعر، ولكنني أقول إن حدس الشاعر هذه المرة لم يكن سهماً طائشاً في الهواء. لهذا السبب، ربما، تحتلّ القصيدة مكانة خاصة في قلبي[1].

وفي الديوان ثلاث قصائد رثاء. واحدة عن الصديق العزيز والزميل المهندس يوسف عبدالله الحماد، رحمه الله. عرفت يوسف أول ما عرفته في مؤسسة الخطوط الحديدية، حيث لاحظت، على الفور، ما يتمتع به من كفاءة، ثم تمكنت، بعد جهد جهيد، من اقناعه أن يعمل معي في وزارة الصناعة والكهرباء وكيلاً مسؤولاً عن قطاع الكهرباء. كان رجلاً حازماً نزيهاً صريحاً متواضعاً، وكم كان ألمي شديداً وأنا أراه يتهاوى، بسرعة لا تصدق أمام السرطان الزاحف في رثائه :

رأيـتـك يـكسوك السقام ظـلالـه
شحوباً .. وإعيـاءً .. ولـحـظاً مُشردا
فهل أبصَرَت عيني صديقي أمـامها
أم النعيُ تـذروه الـجرائدُ اسـودا ؟
«تَجلّد» يقول الصحب من كل جـانبٍ
وكيف لضيفِ الموت أن يتجلّدا ؟(٢)

والقصيدة الثانية في رثاء الأخ فؤاد الزين. رحمه الله كان فؤاد صديقاً عزيزاً أثناء فترة الدراسة الثانوية، وكان، أيامها، فتى وسيماً مرحاً يضج بالحياة. بعد انتهاء المرحلة الثانوية فرقتنا الحياة فلم نعد نتلقى إلا فيما ندر. ثم تعذّر حتى هذا اللقاء واجتمعنا، بعد سنين طويلة، على حافة القبر :

وذارت دورةُ الأفـلاك حـتـى
تـلاقيـنـا على قـفـرٍ يبـابِ
أنـا بـين القبـور أُلـم عمـري
وأنت ذُبالـةُ خلـف الضبـابِ
فَرغت من العذاب .. وعـدت وحدي
أكـابـد ما تبقى من عـذابي(٣)

(١) انظر مابلي ص.ص ١٢٧-١٣٢
(٢) المرجع السابق ص ٧ .
(٣) المرجع السابق. ص ص ٧٣ .

والقصيدة الثالثة عن الأديب البحريني محمد الماجد، رحمه الله. كان الماجد موهبة واعدة، إلا أن موهبته لم يتح لها أن تعطي كلَّ ما عندها، ولا جلَّ ما عندها. أطبق الضياع على حياته فبعثرها، وتفرقّ عنه الكثير من معارفه عندما كان في أشد الحاجة إليهم. بعد وفاته المفاجئة، كفّر الجميع عن ذنوبهم، كما نفعل عادة في عالمنا العربي، بالإفراط في التمجيد. وكنت أتصور موقف الماجد من هؤلاء الذين أهملوه خلال حياته واكتشفوه بعد موته :

وتذكرنا أول يوم فيه رأيناك

وتذكرنا أول يوم فيه قرأناك

وتذكرنا كم كنا -حقاً- نهواك

لكأني بك ..

تضحك .. تضحك .. تضحك منا

يكفينا فخراً أنا

بعد جحيم الألم القاتل ..

بعد الغربة..

بعد الوحشة ..

أضحكناك(١).

في هذه الفترة زارت البحرين الشاعرة الأسترالية المعروفة «آن فيربيرن» وطلبت مقابلتي. أخبرتني أنها أخذت على عاتقها إعداد مجموعة من الشعر العربي المعاصر باللغة الإنجليزية لينشر في أستراليا، والتزمتْ، بالفعل، أمام الناشر. شدتني شجاعة هذه المرأة التي زجّت بنفسها في خضم تحدٍّ كهذا وهي لا تعرف العربية، ولا تكاد تعرف شيئاً عن الشعر العربي المعاصر. قلت لها : «لقد اتخذت قراراً جنونياً عندما قبلت المهمة. وسوف اتخذ قراراً أشد جنوناً. سوف أكون شريكك في المهمة. وسوف أختار القصائد وأساعد في ترجمتها». وهذا ما كان. حرصت على أن تضم المجموعة قصائد من كل قطر عربي، ولعل هذه المجموعة الأولى من الشعر العربي التي تضم شعراً عربياً» من المحيط إلى الخليج». كانت المهمة شاقة، وكان الحصول على نماذج من بعض الأقطار العربية أمراً بالغ الصعوبة. لقى الكتاب استحساناً كبيراً في أستراليا، وأعيد طبعه. أرجو أن يكون المشروع، كما قالت عنه الشاعرة الأسترالية في المقدمة «جسراً من الشعر، بُني قصيدة قصيدة[٢].»

---

(١) المرجع السابق ص ص ٦٠-٦١.

(٢) انظر
Anne Fairbairn and Ghazi Algosaibi, Feathers and The Horizon, Canberra, the Leros Press, Second Edition, 1989.

الفصل الثاني
عقد من الحجارة

خمسون .. تحمل جرح الناس يارجلاً

جراحه من عذاب الكون ترتضعُ

أعطيتهم من كروم الروح .. ما عجزت

عنه الكرام .. فهل ساغوا الذي كرعوا ؟

وهل تراهم وقد سامرتهم، طربوا ؟

وهل تراهم. وقد غنيتهم، سمعوا ؟(١)

(١) انظر غازي عبدالرحمن القصيبي ، «خمسون» عقد من حجارة، بيروت :المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، ص ٢٦ .

كان «عقد من الحجارة» الديوان الثاني الذي نشرته خلال فترة السفارة في البحرين، وقد كتبت معظم قصائده بين سنتي ١٩٨٧ و ١٩٩٠م. النبوءة التي تضمنتها قصيدة «حكاية مهر الرياح» سرعان ما تحققت، عندما وقف صغار فلسطين يواجهون الدبابات ولا سلاح في أيديهم سوى الحجارة. وقف العالم بأكمله مبهوراً، ودخلت كلمة «الإنتفاضة» قواميس اللغات الأجنبية تعبيراً عن الثورة الشعبية العارمة. في تحية الأبطال الصغار جاءت قصيدة «عقد من الحجارة» :

هكذا تصبح الحجارة سيفاً

عندما تصبح السيوف حجارة

وإذا العارُ صار عاراً مراراً

غسل العارَ في المنيّة عارة

وإذا ما غدا الكبار صغاراً

أرسل المجد في الطريق صِغَارة(١)

في هذا الديوان الصغير يكاد البحر يفيض من كل صفحة، وأوشك أن أقول من كل سطر. هناك عدة قصائد تتخذ من البحر محورها الأساسي، وعدة قصائد تتطرق إلى البحر على نحو أو آخر. في قصيدة «حديث مع البحر» يشكو البحر إلى الشاعر ما فعله به البشر، ويتعاطف معه الشاعر :

وضع البحر رأسه فوق صدري

وبكينا، في ألفة الأصدقاء(٢)

وفي قصيدة «يقول البحر» تتكرر شكوى البحر من العدوان البشري[٣]. وفي قصيدة «هي والبحر» يتحول البحر إلى رمز للرجل. رمز تضيق المرأة ذرعاً برتابته وصمته :

قالت له :

«هذا الوداع !

إنني

ضيعت عندك الصبا

بعثرت أيامي وأنت صامت مقطّبْ

ألا تملُّ الملا ؟

جبنت يا بحر ! فهل

أنا عشقت إمرأة أم رجلا ؟»(٤)

---

(١) المرجع السابق ص٨، انظر مايلي ص.ص ١٣٢ - ١٣٦ .
(٢) المرجع السابق، ص ٤٦ .
(٣) المرجع السابق ص ص ٥٥-٥٨ .
(٤) المرجع السابق، ص ٦١ .

وفي قصيدة «بحرية» ينعكس الرمز، فتصبح المرأه هي البحر، ويسافر الرجل في العينين المائيتين :

أجوب البحر ملأحاً

بأشرعةٍ من الذَهب

فمن قدَرٍ إلى قَدَرِ

ومن عجبٍ إلى عَجَبِ

ومن جُزرٍ من اللَّهبِ

إلى جُزرٍ من السُّحبِ(١)

ويطل البحر برأسه في عدد آخر من القصائد «في الفجر الأحمر» :

كانت تغني والمساء حولها

أرجوحة من الغزلْ

والبحرُ بدرٌ وقُبلْ(٢)

وفي «كلمة من ملحمة الوداع» :

وتجيئين كالسفين .. تراءت

ثم غابت خلف الضباب السفينْ(٣)

وفي «الحروف»

كان أن ركب البحر

في زورق من ونى

ضائعاً حائراً مثلنا

باحثا

عن مواني السنى(٤)

وهاجس العمر، وهو الهاجس الذي يعرف كل قرّائي أنه لم يفارقني قط، بلغ ذروته في هذا الديوان مع قصيدة «خمسون». مع انتهاء عقد الأربعين، ذهب ذلك الشعور الصاخب العنيف بتطاير الشباب، ليحل محله شعور أهدأ، أكثر تأقلماً مع الواقع، وإن لم يكن بالضرورة، أقل شجناً. «خمسون» تنعي الشباب الذاهب وتستعرض صفحاته المليئة بكل أنواع الإثارة :

(١) المرجع السابق ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق، ص١٢.

(٣) المرجع السابق ص ٢١ .

(٤) المرجع السابق، ص ٣٣ .

خـــــمســـون .. ما مرّ يومٌ دون معركةٍ
أما تــــولاّك في أحضانـــها الجـــــزع ؟

خمسون .. ما مرّ يومٌ دون جُـــرح هوىً
ألم يمزّق حشاك الوجد .. والوَلَـــــعُ

خمســون .. مـا مرّ يــومٌ دون أغنيـــة
أما سئمت القوافي وهي تصـــطرع ؟(1)

تطفو الهموم العربية على سطح الديوان قصائد حزينة تعكس ما شهده الواقع العربي في تلك الفترة من شعور باليأس. هناك قصيدة «ملء عين الزمن» التي تبكي عهد لبنان الجميل الذي كان :

ثم جاءت ليالي الشجَنْ
نعق الموت في الأرز ..
واصطبغ الكرم بالموت ..
والبحر أنْ
وارتمى
صوت فيروز في خودة ..
واستكنْ(2)

وقصيدة «يا فتى الحجارة !» تتمنّى :

لو أن هذا الحجر
المنساب من يديك كالحمامةْ
يحط فوق أضلعي
يشدّها، ضلعا فضلعا،
من مخالب السآمةْ(3).

وقصيدة «النبوءة» إنذار مبكر من مخاطر ما سُمّي، فيما بعد «التطبيع» :

---

(1) المرجع السابق ص ٢٦ .
(2) المرجع السابق، ص ص٥٠-٥١ .
(3) المرجع السابق ص .ص ٤٧-٤٨ .

أنا أبصرتها

عند منتصف الليل .. والنوم

يدفنكم جثثاً غافلة

سممت بئركمْ

حولّت ماءها

لعنة سائلة

رفعت يدها

فأتاها الجراد الذي

يأكل القمر الطفل .. والطفلة الناحلة

ذهبتْ .. والصباح

يدحرج أضواءه الذابلة

تركتكم ولا شيء في أرضكم

غير أشباحها الذاهلة

آه يا أمتيّ الجاهلة !

آه يا أمتيّ الجاهلة !(١)

على المستوى الشخصي فقدت في هذه الفترة صديقاً من أقرب أصدقائي إلى نفسي وهو عبدالعزيز المعيبد - رحمه الله. والذين عرفوا عبدالعزيز عرفوا فيه كرم الضيافة بمعناه الاسطوري القديم الذي يوشك أن ينقرض، كما عرفوا فيه تلك القدرة النادرة على حب الناس، كل الناس. لم تكن القصيدة التي كتبتها في وداعه تبالغ حين قالت :

حسَبت الموت لما جاءَ ضـــيفـاً

أتاك يؤمُ مضيافاً كـــــــريما

وقلت له «ألا أهلاً وســـهلاً !»

كأنّك حاضنٌ خِلاً قديما(٢).

وفي هذه الفترة كان هناك حدث سعيد ترك آثاره على حياتي وعلى شعري : عقد قران ابنتي «يارا» على ابن عمها «فواز فهد القصيبي». مع حفل القران تدافعت كل ذكرياتي مع الطفلة التي أصبحت الآن عروساً، وولدت قصيدة «أطفلة الأمس هذي؟!». حظيت القصيدة

(١) المرجع السابق ص ٤٢ .   (٢) المرجع السابق. ص ٣٩ .

بإعجاب الكثيرين، وكتب عنها بسخاء بالغ أكثر من أخ كريم، أذكر منهم الأستاذ الطيب صالح والشاعر محمد العلي والأستاذ سمير عطاالله. كما أخبرني أكثر من أب أنها صورت بدقة متناهية، كل أحاسيسه يوم تزوجت ابنته :

تسعٌ وعشر ! -رعاك الله!- كيف جرى

بنا الزمان .. يكاد البرق يلحقه ؟

أطفلة الأمس هذي ؟! أين لثغتها

تصيّرُ الحرف عيداً حين تنطقهُ ؟

وأين قفزتها إن عدت من سفرٍ

تهوى على عنقي عِقداً يطوّقه ؟

أهي العروس التي يختال موكبها ؟

شيءٌ أراه .. ولكن لا أصدّقه(١)

هذه الحياة الناعمة الرخيّة، هذه الساعات المتأملة بين الكتب، تلك الساعات اللاهية فوق البحر، هذه المرحلة السعيدة من مراحل العمر، كل هذا وصل إلى نهاية مباغتة عنيفة ذات يوم أسود من أيام أغسطس ١٩٩٠م.

(١) المرجع السابق ص.ص ٥٣-٥٤. أنظر ما يلي ص.ص ١٣٧ - ١٣٩

الفصل الثالث
ريشة فارس سابق

عجباً ! كيف اتخذناك صديقا ؟

وحسبناك أخا برّاً شقيقا ؟

وأخذناك إلى أضلاعنا

وسقيناك من الحُبّ رحيقا ؟

واقتسمنا كسرة الخبز معا

وكتبنا بالدما عهداً وثيقاً ؟

وزرعناكَ على أجفاننا

ونشرنا فوقك الهُدْبَ الوريقا ؟

وزعمناك -ولم تبرق- سنىً

وكسوناك -ولم تلمع- بريقا ؟(١)

(١) غازي عبدالرحمن القصيبي ،«مرثية فارس سابق» جدة ،تهامة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م،ص.ص ١١-١٢ .

في أوائل يوليو ١٩٩٠م، كنت أتحدّث هاتفياً مع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز في شأن من شؤون العمل عندما فاجأني بالقول :«أخشى ما أخشاه أن هذه السنة لن تنتهي على خير». قلت مستغرباً : «ولماذا؟» قال :«ألا ترى تصرفات الرئيس صدام حسين؟ مشكلته مع إيران لم تنته، وهو يخلق مشكلة جديدة كل يوم. استثار بريطانيا واستثار أمريكا، وهدد بحرق إسرائيل. لماذا يجمع من حوله الأعداء؟ ثم إنه يعمل ضجة لا مبرر لها حول حصص الإنتاج. قلت لإخواني قادة مجلس التعاون «الرجل خارج من حرب. ويحتاج إلى دخل إضافي. وهو منفعل ويجب علينا أن نتعاون للوصول إلى حل يقبله الجميع لحصص الإنتاج»، ووافق القادة. وسوف يحل هذا الخلاف. الحقيقة أني لم أعد أفهم تصرفات هذا الرجل، وأخشى أن يزج بالعراق في كارثة جديدة». قلت للملك :«أنت تعرفه جيداً وتعرف أنه لا يقبل نصحاً من أحد. ربما كنت أنت الوحيد الذي يستطيع أن يتحدث معه بصراحة». ورد الملك :«أنا على استعداد للذهاب إلى بغداد لو وجدت أذنا صاغية. سأنصحه ألا يدخل أكثر من معركة في وقت واحد».

كنتُ أيامها عميد السلك الدبلوماسي في البحرين وكنت، حين المحادثة، أقيم حفل غداء في منزلي توديعاً لزميل مسافر، وقد تركت المدعوين في غرفة الإستقبال وذهبت إلى غرفة المكتب لتلقي مكالمة خادم الحرمين الشريفين. خلال المحادثة دخل السفير العراقي الصديق طه القسي غرفة المكتب وسمعني أذكر اسم الرئيس العراقي. كان حب الإستطلاع لديه على أشدّه، بطبيعة الحال. في ضوء العلاقة الوطيدة التي كانت تربط المملكة بالعراق، وتربط ملكها بالرئيس العراقي، لم أر ضيراً في أن أبلغ السفير العراقي فحوى المكالمة. قلت له، «بصراحة، إن الملك قلق جداً على العراق». وأبرق السفير بذلك إلى بغداد.

في اليوم التالي زارني السفير يحمل رسالة من بغداد، من الرئيس مباشرة، تتضمن شكر الملك على مشاعره نحو العراق، وتطمئنه إلى أن القيادة في العراق متنبهة إلى كل المخاطر، ومتحسبّة لكل الإحتمالات، وتضيف الرسالة أن الخطر الحقيقي الوحيد الذي يهدد العراق في الوقت الحاضر هو السياسة البترولية لكل من الكويت والإمارات العربية المتحدة. لم أصدق أذنيَّ! كان الملك فهد خائفاً على العراق، وكان مستعداً للذهاب بنفسه لينصح الرئيس العراقي في الوقت الذي كان الرئيس العراقي لا يرى خطراً يتهدده سوى الكويت والإمارات العربية المتحدة!.

سافرت في إجازتي السنوية، وتلاحقت الأحداث وتتابعت. قال الرئيس العراقي في

خطاب عام «قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق»، هذه الجملة التي ينسبها الموروث الشعبي، عادة إلى قطاع الطرق. جاءت المذكرة العراقية الشهيرة. ثم جاء الحشد العراقي على حدود الكويت ونشطت الجهود والمساعي الخيرة. الحقيقة أني عبر هذا كله، لم أصدق لحظة واحدة أن العراق يمكن أن يحتل الكويت. كان رأيي هو الرأي السائد في كل مكان وهو أن التهديدات والحشود ليست سوى وسيلة للضغط والإبتزاز. كنت موقنا أن الرئيس العراقي لن يجرأ على احتلال دولة مستقلة ذات أهمية إقتصادية واستراتيجية كبيرة في منطقة حساسة يعتمد رخاء العالم بأكمله على تدفق النفط منها.

كان فواز ويارا قد قررا قبلها بأسابيع، أن يكون حفل الزفاف في جنوب فرنسا وأن يقتصر على العائلة. شددنا الرحال إلى الشاطيء اللازوردي وفي مطار نيس استقبلني صديق عزيز قديم في المطار وأخبرني أن مباحثات جدة بين ولي العهد الكويتي ونائب الرئيس العراقي انتهت، بغتة، بفشل أكده الجانبان. قلت : «إذن راحت الكويت!» لم يكن هذا حكماً سياسياً مدروساً، ولا كان توقعاً سياسياً ذكياً كان رد فعل عفوي لم آخذه أنا، ولا أخذه المستمعون بجدية. حتى في تلك الساعة، لم يكن يخطر ببالي أن صدام حسين يمكن أن يتخذ خطوة جنونية مثل احتلال الكويت. كانت دهشتي بالغة عندما أيقظني صديق عزيز آخر، في الصباح الباكر، وطلب مني، بإيجاز شديد أن استمع إلى الـ CNN . على الشاشة كانت أخبار الغزو تتوالى.

خرجت من الفندق أجول في الشاطيء، وأنا في حالة من التفكير العميق. كنت أشعر أن احتلال الكويت، لو قُدّر له أن ينجح، يعني نهاية الخليج كما نعرفه. كنت، ولا أزال أعجب من سذاجة أولئك الذين يجادلون في نوايا صدام حسين وهل كان ينوي الوقوف على حدود المملكة أم الزحف عليها واجتياحها؟ حقيقة الأمر، أن صدام حسين لم يكن في حاجة إلى التحرك من الكويت. نجاحه في احتلال الكويت يعني أنه أصبح للخليج سيد واحد يتحكم في كل شؤونه، من صلالة إلى جدة، ولا يحتاج إلى أكثر من رفع إصبعه. لم يكن في ذهني، منذ الساعات الأولى للغزو، أدنى شك أن الإحتلال يجب أن ينتهي، وأنه لن ينتهي إلا بقوة عسكرية ضاربة، وأن هذه القوة الضاربة ليس لها من مصدر سوى الولايات المتحدة. عندما تكون حياة الدول في الميزان لا يعود هناك مجال للشعارات خاصة وأن أصحابها إما من الأعداء سيئي النيّة، أو من الأصدقاء المفرطين في المثالية.

على الشاطيء سمعت تعليقات كثيرة من الفرنسيين والسواح جميعها تدين الإحتلال.

أخذت سيارة أجرة من نيس إلى كان، وكان السائق منفعلاً، على الطريقة الفرنسية. قال لي إنه يشعر بالغثيان. وأضاف أن تصرف الرئيس العراقي يذكره بفتوة الحيّ الذي لا يختار ضحاياه إلا من أضعف الأطفال. كثيراً ما يستمد الزملاء الصحفيون مادة مقالاتهم، وكتبهم أحياناً، من التعليقات العابرة (ومن سائقي سيارات الأجرة على الخصوص) كان شأني ذلك الصباح شأن الصحفيين، أتسقّط كل عبارة أسمعها. هذه -بالتأكيد- ليست طريقة علمية يوثق بها، ولكنها طمأنتني إلى أن هناك إجماعاً بدأ يولد ضد العدوان.

في الفندق الذي كنت أسكنه في نيس كان يقيم الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة، رئيس وزراء البحرين. التقينا في ردهة الفندق، وكانت على وجهه آثار الصدمة العنيفة. قال لي: «سمعت بما حدث؟» قلت له :«سمعت. ماذا تظن؟» قال لي :«ماذا تظن أنت؟». قلت :«أعتقد أنه سيخرج من الكويت بالقوة. وأعتقد أننا سندخل حقبة جديدة مجهولة المعالم». صمت الشيخ خليفة متأملا، ثم قال :«نعم. هذا ما سوف يحدث».

انتهى حفل الزفاف، ولا أزال أداعب فواز ويارا لأنهما اختارا لزفافهما موعدا لن ينساه أحد، وكان من الضروري العودة إلى مقر عملي في البحرين. كان قد انقضى على احتلال الكويت قرابة أسبوع. كان بقربي، في الطائرة، مواطن كويتي يتابع الأخبار عبر راديو صغير وكانت الاخبار في غاية السوء. بمجرد وصولي إلى المنزل في البحرين هرعت إلى التليفزيون اتنقل من محطة إلى محطة. ليلتها، أعلن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز أن المملكة قررت الإستعانة بقوات من الدول الشقيقة والصديقة. تنفست، لحظتها، الصعداء ولم يعد يراودني أي شك في عودة الكويت.

في الأسبوع الأول، ولدت قصيدة «مرثية فارس سابق». كانت القصيدة الطلقة الأولى في معركة شخصية، شعرية ونثريةن لم تنته إلا بعد تحرير الكويت. كتبت مقالا لجريدة الشرق الأوسط سميته «في عين العاصفة» ثم تبعه مقال ثان وثالث. دون قرار مني، أو من الشرق الأوسط، ولدت زاوية «في عين العاصفة» كانت الزاوية عنيفة وحادّة وساخرة وأثارت من الزوابع والأعاصير ما لم تثره أي زاوية صحفية في تاريخ العرب الحديث. أسارع فأضيف أن هذا ليس رأياً شخصياً مبنياً على الإعتداد بالنفس، بل حقيقة أكدتّها عشرات الرسائل التي كنت أتلقاها يومياً، وأكدتّها ردود الفعل المتشنجة تأييداً أو معارضة، وأكدتها أرقام توزيع الشرق الأوسط التي ارتفعت، بشكل ملحوظ بعد الزاوية(١).

---

(١) اخبرني الصديق داود الشريان أن المؤسسة الإعلامية التي يملكها أجرت دراسة ميدانية عن أكثر الكتاب شعبية بين القراء السعوديين وكانت النتيجة أني فزت بالمرتبة الأولى . كنت ولا أزال ، أعزو هذه النتيجة إلى ظروف الأزمة لا إلى مستوى الكتابة .

حسناً! سجلت آرائي اليومية في الأحداث في تلك الزاوية، وبوسع الراغبين في الإطلاع على تلك الآراء العودة إليها (وقد أخبرني الكثيرون أنهم يحتفظون بحلقات الزاوية كاملة). وكتبت بعد تحرير الكويت دراسة عن الأزمة حاولت فيها أن أكون موضوعياً ومنصفاً، وبوسع القراء الراغبين في التحليل الهادىء أن يعودوا إلى تلك الدراسة[1].أثارت بعض كتاباتي ردوداً ساخنة تتعلق ببعض قضايا الشريعة والمجتمع رددت عليها، بدوري، في رسائل ضمّها كتاب «حتى لا تكون فتنة»[2]، وبوسع المهتمين بتلك المسائل العودة إلى الكتاب. أما هنا، في السيرة الشعرية، فسوف أبقى مع حديث الشعر، والشعر وحده.

كانت القصائد تتوالى مع توالي الأحداث. عندما أعلن الرئيس العراقي عن تحول الكويت إلى محافظة وُلدت قصيدة «ياكويت!»[3] تقسم بعودة الكويت وتتحدى القرار. عندما نقلت الأنباء إستشهاد الصديق الشيخ فهد الأحمد الصباح، يرحمه الله، جاءت قصيدة «المباراة»[4]. عندما بدأت وسائل الإعلام العراقية تسمي المملكة ديار نجد والحجاز، جاءت قصيدة «ونحن فهدٌ!»[5]. عندما تدافع الشباب، عبر الخليج كله إلى مراكز التطوع جاءت قصيدة «حيّ الشباب»[6].عندما توالت أخبار الفظائع التي كان جيش الإحتلال يرتكبها في الكويت جاءت قصيدة «بنت الخليج»[7]. في تلك الفترة توفي شاعر العرب الكبير عمر أبو ريشة، وكتبت قصيدة «يا عمر»[8] في رثائه،ورثاء المجد الذي طالما تغنى بهز عندما أقرا ديوان «مرثية فارس سابق» أحس أنني أقرأ سجلاً تاريخياً شعرياً للأزمة منذ لحظة الغزو إلى لحظة التحرير.

لقد وقفتُ أثناء الأزمة موقفاً لقيت بسببه من المحبة والتكريم ما لم يكن يداعب أحلامي (كانت هناك ردود فعل مختلفة جعلتني أعرف الحراسة لأول مرة في حياتي، ولكن تلك قصة أخرى). إلا أنه من الضروري أن أؤكّد هنا ما سبق أن قلته أو كررته، وهو أن الأزمات لا تنتج، بالضرورة، أدباً عظيماً. لا أدري هل سيبقى شيء من الشعر الذي كتبته أيام الأزمة بعد أن تزول كل تداعيات الأزمة وذيولها، ولكنني أعرف أن الشعبية، في حد ذاتها، لم تكن، قط، ولن تكون أبداً، معيار الأدب الحقيقي.

قلت في أكثر من موضع إني لا أحب إحياء الأمسيات الشعرية، وقلت إن أمسياتي

---

(١) انظر-غازي عبدالرحمن القصيبي «أزمة الخليج محاولة للفهم» ، لندن-دار الساقي ، الطبعة الثانية-١٩٩٢م.

(٢) غازي القصيبي،«حتى لا تكون فتنة»، مجموعة رسائل .لندن دار الساقي ، الطبعة الثانية١٤١١هـ-١٩٩١م.

(٣)«مرثية فارس سابق». مرجع سابق ص.ص ١٥-١٧ .

(٤) المرجع السابق ،ص.ص ١٩-٢٣ انظر مايلي ص.ص ١٤٠ -١٤٢

(٥) المرجع السابق ص.ص ٥١-٥٦.

(٦) المرجع السابق ص.ص ٦٩-٧٣ .

(٧) المرجع السابق ص.ص ٧٥-٨٣ .

(٨) المرجع السابق ص.ص ٦٣-٦٨. وانظر ما يلي ص.ص ١٤٣ - ١٤٦

الشعريةن عبر حياتي كلها، لا يكاد عددها يصل إلى عدد أصابع اليدين. غير أنني لا بُد أن أتحدث هنا عن أمسية شعرية تركت في أعماقي أثراً لا يمحى. بعد تحرير الكويت، تلقيت دعوة كريمة لزيارتها، ولقيت التكريم الحار على كل المستويات، بدءاً بالأمير وولي العهد وانتهاءً برجل الشارع الذي لم أعرفه من قبل. دعت وزارة الإعلام إلى أمسية شعرية أُعدّتْ على عجل. قلت لوزير الإعلام، وقتها، الصديق الدكتور بدر اليعقوب إنني أخشى ألا يحضر الأمسية عدد كاف حيث أنه لم يعلن عنها إلاّ في آخر لحظة، واكتفى بالإبتسام عندما سمع تعليقي. أدركت، فيما بعد، سبب الإبتسام كان موعد الأمسية السابعة مساءً. قبل الموعد بساعات امتلأت القاعة الكبيرة. عندما لم تعد هناك مقاعد، احتل الجمهور كل المساحات الخالية، جلوساً ووقوفاً. اضطر رجال الأمن إلى قفل الأبواب وإعادة الناس. عندما دخلت القاعة كانت هناك عاصفة من التصفيق -والزغاريد النسائية!- استغرقت بضع دقائق. لم يكن بوسعي أن أكمل بيتاً واحداً دون أن يقاطعني التصفيق. اضطررت إلى أن أرجو الإخوة والأخوات أن يكفوا عن التصفيق، وقوبل الرجاء بالمزيد من التصفيق. ألقيت أثناء الأمسية ما كتبته من شعر الأزمة، واختتمته بقصيدة «أغنية العودة» التي كتبتها يوم تحرير الكويت:

إذن .. فاشهدي
أنني لم أخنكِ مع الخائنينْ
ولم أتبرأ من العشق حين تبرأ
حشدٌ من الزائــفينْ
إذن فاشـــهدي
كنت في الشمس أجري
ولم اتبع الظلَّ كالخائفينْ
وما بيننا .. كان جيشٌ يموج
من الشامتينْ
يقولون غبْتِ .. ولا ترجعينْ
واقسمت لحظتها : ترجعينْ!
تعودين ما بقيت كلمتانْ
وما سكنت قلمي لفظتانْ
إذن فاشهدي كنت أحمل شعري
سلاحا .. وأبرز للأفعوانْ
إذن .. فاشهدي قد كسبتِ الرهانْ(١).

---

(١) المرجع السابق ص.ص ٩٢-٩٦.

إذن فاشهدي كنت أحمل شعري

سلاحاً .. وأبرز للأفعوانْ

إذن .. فاشهدي قد كسبت الرهانْ(١).

لم يكن الجمهور يريد للأمسية أن تنتهي، وكان لا بد أن تنتهي . وجاء الوداع حاراً صاخباً كاللقاء. كانت حقاً، «أم أمسياتي الشعرية».

الفصل الرابع
واللون عن الأوراد

تـــأمّـــليـــه انـــهـــمـــــــــــرا

فنفضْ الصيفَ عن الشبّاك ..

واللون عن الأوراقْ

هو الخريف سيدُ الفصولْ

يحمل أسرار البقاء والنفاذْ

والمــــــوت والمعـــــــاذْ(١)

(١) انظر Ghazi Algosaibi, "Dusting the Colour From Roses" , A Bilingual Collection of Arabic Poetry, London, Echose, 1995, P. 16.

رأى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز أن انتقل من البحرين إلى بريطانيا، ولم يكن لي بعد رأيه قول. انتهى الحلم البحريني، قرابة ثماني سنوات من الدعة والطمأنينة، لتبدأ مرحلة جديدة، أبعد ما تكون عن الدعة والطمأنينة. وكان وداع البحرين يقطر بالوفاء. خرج الأمير الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة على كل قواعد البروتوكول التي تنظم علاقة رئيس الدولة بالسفراء. امتلأت الصحف برسائل موجهة إليّ تقطر بالمحبة. وكان هناك صديقي الأثير، رجل الشارع الذي لا يعرفني شخصياً، ومع ذلك يبادلني الكثير من الوداد. وعكست قصيدة «وداعية للصيف» كل هذه المشاعر :

أتذكرين إذا ما غبتُ في سفري

أني خلعتُ على عينيكِ سحرهما ؟

وأنني قلتُ في عينيكِ قافيةً

ما استوطنتْ ورقاً لولاي أو قلما ؟

وأنني كنتُ في العشاق .. أعشقهم ؟

وكنتُ في الشعراء المفْرد العَلما ؟

وكنتِ بين حبيباتي الأعفّ هوىً

الأجمل .. الأنبل .. الأصفى .. الأرقّ فما ؟

شعري كحسنك .. لا يخبو شبابهما

لم تشكُ ليلى .. ولا مجنونها هرما(١).

وصلت لندن في ربيع ١٩٩٢م. وكان من مفارقات القدر -وما أكثرها!- أن الدار الفخمة المخصصة لسكن السفير السعودي في لندن لا تبعد سوى أمتار قليلة عن الشقة المتواضعة التي سكنتها فترة من الزمن أثناء تحضير الدكتوراة في نهاية الستينات الميلادية. أيامها، كثيراً ما كنت أمشي من الشقة المتواضعة إلى الدار الفخمة ضيفاً على الصديق عبدالرحمن الحليسي، السفير وقتها، في مأدبة من مآدبه العديدة. هذه المرة، انعكست الآية. مشيت من الدار الفخمة إلى الأماكن القديمة، لأزور الشقة المتواضعة وما حولها، ووجدت أن المكان لم يتغير كثيراً. من هذه التجربة ولدت قصيدة «في الشارع القديم» :

على الباب ..

أوشك أن ألمس الزّر ..

ثم يعود الزمانْ

ويهوى على كتفي ربعُ قرنِ

(١) المرجع السابق، ص ٨٨ .

فاهمس «كانْ

وما عاد منزلنا ...»

كلُّ شيء تغيّرَ إلا المكانْ

وإلا عيونك ..

نفس الطفولة ..

نفس البراءة ..

نفس الحنانْ ..

زمانٌ عجيبٌ !

أأكبر وحدي

وتبقى عيونك ..

تبقى الشوارع ..

ليست تشيب؟(١).

انتهت مرحلة الراحة، وبدأ برنامج مزدحم يكاد يكون شبيهاً ببرنامج العمل في الأيام الوزارية الغابرة. يبدأ البرنامج في الصباح الباكر بقراءة قرابة عشرين صحيفة إنجليزية وعربية، ولا ينتهي، في معظم الأيام، إلا مع ساعات المساء. لا أود أن يفهم أحد أن طبيعة عمل السفير تغيرت. ما تغيّر هو المناخ. في البحرين كان هناك أقل من عشرين سفارة، أما في لندن فهناك سفارة لكل دولة في العالم تقريباً، والمجاملات المتبادلة مع هذا العدد الهائل من الزملاء تبدأ ولا تنتهي. مشاكل المواطنين في بلد بعيدة غريبة تختلفُ اختلافاً جذرياً عن مشاكل المواطنين في بلد عربية شقيقة على مرمى‌حجر من وطنهم. ثم تجيىء هموم التعامل مع الصحافة المقيمة، الرصينة والمبتذلة، والصحافة العربية المهاجرة بكل أنواعها. المملكة هي الشريك التجاري الأول لبريطانيا في المنطقة ومعنى ذلك، فيما يخص السفير، أنه لا يمر يوم واحد دون أن يتلقى عشرات الإستفسارات والمكالمات وطلبات الزيارة. حتى مع تقنين الوقت تقنيناً صارماً، لا يمكن للسفير السعودي في لندن، أي سفير سعودي، أن يفلت من قبضة الإرتباطات التي تستغرق اليوم كله وجزءاً من الليلة.

كتبت معظم قصائد «واللون عن الأوراد» بين سنتي ١٩٩٢ و ١٩٩٥م. رأيت أن الوقت حان لصدور مجموعة مترجمة ثانية من شعري، وكان أن جاءت المجموعة باللغتين العربية والإنجليزية. ترجم القصائد مترجم قدير، وراجعت الترجمة شاعرة بريطانية معروفة،

(١) المرجع السابق، ص.ص ٣٥-٣٦.

ومع ذلك ففي نفسي شيء من الترجمة. وحديث الترجمة حديث ذو شجون. لقد قيل إن كل ترجمة خيانة للأصل، وهذا القول لا يخلو من صحة. ولكن الأدق أن نقول إن كل ترجمة حل وسط، ومتى أرضت الحلول الوسط أحداً؟ فيما يخص الشعر، أعتقد أن هناك أشياء تقبل الترجمة بسهولة، وأشياء تقبل الترجمة بصعوبة، وأشياء تستعصي على الترجمة كليّة. والذي يراجع النصين العربي والإنجليزي في المجموعة سوف يكتشف صحة الملاحظة، كما اكتشفها كل من عانى تحدي الترجمة، في مجال الشعر على وجه الخصوص.

الهاجس الخمسيني ينبض في قصائد المجموعة، غير أن هناك محاولة لإعادة صياغة الخريف بحيث يصبح بداية الحياة لا نهايتها. قد تكون المحاولة صادقة، وقد تكون من قبيل «إذا لم يكن ما تريد .. فأرد ما كان»، ولكنها على أية حال، تضفي على الخريف ألواناً جديدة من القدرة والحيوية :

الشبَقَ الخريفيُ يمس الشجرا

ويُحبلُ الآفاق بالريح .. وبالسرعة .. وبالسوادْ

ويتمادى .. فيذوق البشرا

وترعش القلوبُ بالخوف من الموت ..

وبالشوق إلى الميلاد(١).

على أن كل ذنوب الخمسين مغفورة إزاء تلك التجربة الخمسينية المذهلة المدهشة : تحول المرأ إلى جدّ. علاقة الجد بحفيده، والعكس، علاقة من نوع خاص تحدث عنها الكثيرون، وأبرزتها الأمثال العامية، علاقة ذات مذاق خاص يصعب على من لم يعشها أن يحيط بكافة أبعادها. مع ميلاد الحفيد فهد، الأبن البكر لفواز ويارا، جاءت قصيدة «أتجعلني جداً؟».

رأيتك في المهد المعطـــر دُميةً

يكاد من التحنان يلثمهـا المَهدُ

ففامت جفوني بالرؤى .. وتراقصت

أمامي طيوف الأمس .. تبدو ولا تبدو

أأمك هذى؟! تلك يارا صغيرتي

(١) المرجع السابق ، ص ٨ انظر ما يلي ص.ص. ١٤٧ - ١٥٠ .

على كتفي تحبو .. وفي أضلعي تعدو

أكاد أراها بين قلبي .. وأمّها

يهش لها ثغرٌ .. ويحرسها زندُ

سجدت لربي حين أبصرت طفلها

له الحمد .. كم أغنى واقنى .. له الحمد(١).

على أن الطبع يغلب التطبع. لي أن أعلن أن الخريف سيّد الفصول، ولي أن أفرح بالحفيد الصغير، إلا أن الحنين إلى الشباب يقطر من كل صفحة من الديوان الصغير. في «مهرجان الأسئلة» هناك هذه المقارنة الحزينة :

وحولك كلُّ ما تهب الأماني

جمالك ..والشبابُ .. وما يريدُ

وحولي كلُّ ما تلد المــآسي

خريفُ العمر .. والقلب الشهيدُ

وقافية .. كما يجري وتينٌ

وأغنية .. كما فُتحَ الوريدُ(٢)

وفي «وداعية للصيف» تجهش هذه الأمنية المستحيلة :

ليت الشباب كهذا البحر .. شيبتهُ

تنداح في زَبَدٍ .. والقاع ما علمــا

ليت الشباب كهذا البدر .. مفرقةُ

يزدان إن ضجّ فيه الشيب .. واحتدما

ليت الشباب بعمر الحبّ .. يا امرأةُ

ما زال حبّي لها طفلاً .. وما فطما(٣)

---

(١) المرجع السابق ، ص.ص ٢٦-٢٨ على إثر نشر قصيدة «أتجعلني جداً؟!» وجه الصديق القديم الشاعر عبدالرحمن رفيع إلى «مواساة» شعرية جميلة جاء فيها:

سوف تبقى ذلك الشبل .. وإن أصبحت جداً
ساحر الشعر الذي ينثر أزهاراً وورداً
المليحات على العهد .. وإن أظهرن صدا
لم تزل تبهر ليلى .. بقوافيك وسعدى
لم تزل تمتلك الحفل ، تحيل القول شهدا
فتصير النار بردا .. ويعود الثلج وقدا

أرجو أن أرد لأبي الملوك - نسبه لأبناء عبدالرحمن فهد وفيصل وخالد - التحية بأحسن منها حين يجيء دورها

(٢) المرجع السابق ص ٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٠ .

يبدو أن هوس العمر سيبقى معي ما حييت، ولابدّ مما ليس منه بُدا

ومن غرائب العقل الباطن -وما أكثرها!- أنه مع البعد الجغرافي عن الوطن، تتغلغل صور الوطن ومشاهده في قصائد الغربة بشكل بالغ الحدّة. في «مهرجان الأسئلة» نجد هذه اللوحة الصحراوية :

أتيتك من تباريح الصحــــارى

أساريري الشواهق .. والنجــوذ

وفي «واللون عن الأوراد» نجد هذه الصورة البريّة/البحرية :

رأيت في عــينيكِ ......

يا لروعة الأضــداد

رأيت بدراً مبحراً

رأيت بحراً مقمراً

سمعت كلّ أغنيات الغوص

والرعاة .. والحصاد(١).

وفي «فاكس» نرى هذا المشهد «البدوي» :

أنت لا تدركين جنون الربيع ..

إذا كنت لا تعشقين الخــطــرْ

أو غرام الفراشات .. إن كنت

تحتقرين السَفرْ

أو هيام الخيامِ .. إذا كنت

من ساكنات الحضرْ(٢)

في هذه المرحلة نشرت محاولتي الروائية الأولى «شقة الحرية»[٣] وكم كانت دهشتي بالغة وأنا أجد الرواية تملأ الدنيا وتشغل الناس. أعيدت طباعتها ثلاث مرات في أقل من

(١) المرجع السابق ، ص ١٠ . (٢) المرجع السابق ، ص.ص ٢٠-٢٢ .
(٣) انظر غازي عبدالرحمن القصيبي ،شقة الحرية،لندن،مطبوعات رياض الريس، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٥م.

سنتين، وحوُلّت إلى مسلسل تليفزيوني، وأتعبت النقاد، مدحاً وقدحا. الحق أقول لكم، إن الشاعر الذي يسكنني شعر بغيرة عنيفة وهو يرى أول محاولة للروائي الغشيم المتطفّل على سكنه تثير من الإهتمام المدوي ما لم يثره أي ديوان من دواوين الشاعر. على أن حديث **«شقة الحرية»** يطول، والسيرة الشعرية ليست مكانه الطبيعي، فلنؤجله إلى حين.

الفصل الخامس
عن مدن الشعر ..
القديمة والجديدة

وكل امرىء يولي الجميلَ مُحبّبُ

وكلّ مكان يُنبتُ العزَّ طيّبُ

المتنبي

■ المكان الذي وُلدت فيه، ذكرياتك عنه، والبصمة التي تركها في حياتك؟[1].

❖❖ وُلدت في الهفوف، بالأحساء، ذات يوم من أيام سنة ١٣٥٩هـ (وإن كنتُ أفضلُ الآن حساب عمري بالسنين الميلادية لاسباب لا تخفى على فطنة الفلكيين). دعني أعترف من البداية، أني أشعر بتأنيب ضمير هائل نحو الهفوف، لذنبٍ لا يد لي فيه. هذا الذنب هو أنني لا أكاد أذكر من طفولتي فيها شيئاً. خرجت منها في سن الخامسة، أيْ أنني قضيتُ فيها خمس سنوات، أو تزيد قليلاً، ومع ذلك لا أذكر تلك الفترة. وحتى الذي أذكره، لا يمكنني أن أقطع هل التقطته من خلال ذاكرتي، أو من ذاكرة الآخرين، أو من ذاكرة الصور. يقال لي -صدّق أو لا تصدّق!- إني كنتُ طفلا وديعاً مسالماً يقضي معظم أوقاته في اللعب مع الحمام، أو بعدّة نجارة. لا أذكر الحمام، ولا أذكر عدّة النجارة (وإن كنتُ استغرب عجزي، حتى هذه اللحظة، عن تثبيت مسمار في خشبة رغم هذا التدريب المُبكّر). أريد أن اقول : يكاد كلّ ما أذكره عن الهفوف -بساتينها الجميلة، دروازتها العتيدة، «أم السعف والليف» الأسطورية التي تطير بعد أن يخيم الظلام، التمر والليمون والتين والخوخ -يكاد كل هذا يرجع إلى مكان خارج الذاكرة. كنت ولا أزال استجدي الهفوف المغفرة لعقوق الذاكرة.

■ متى خرجت منه أول مرّة وإلى أين؟ ما هو انطباعك عن أول مكان تراه بعد مكان مولدك؟ في أي سن زرته؟ ولماذا؟ وكيف تتذكرَه الآن؟

❖❖ لم يكن الأمر مجرّد زيارة. اقتضت ظروف العائلة أن ننتقل إلى البحرين للإقامة هناك. كانت المدينة الثانية التي وقع بصري عليها بعد الهفوف هي المنامة. كنت اقترب من السادسة عندما حدث اللقاء. وبقيتُ في المنامة أكثر من عشر سنوات، ثم تركتها لإكمال الدراسة في القاهرة. أول مفاجأة أسعدتني، وأدهشتني، في المنامة كانت الكهرباء. لأول مرة ألتقي بالمصباح الكهربائي بعد سنين لم يضوأ الليل فيها سوى «الفنر» أو «الإتريك» ربُما كانت فرحتي الغامرة بلقائي الأول مع الكهرباء وراء حرصي، الذي يكاد يبدو الآن غير طبيعي، على ادخال الكهرباء إلى كل قريّة لم تعرفها عندما أصبحت مسؤولاً عن الكهرباء بعد سنتين طويلة من ذلك التاريخ، إلا أن هذه قضية أخرى، معقدة بعض الشيء. كانت المفاجأة الثانية في المنامة هي دخولي المدرسة. في الهفوف كنتُ لأسباب تتعلق بخوف سيدي الوالد، رحمهُ الله، من تأثير الشارع السلبي على أصغر أبنائه -حبيس المنزل. قيل لي إنه

(١) أسئلة هذا الفصل من إعداد الأستاذ / عبدالله باخشوين ونشرت المقالة في صحيفة استجواب.

ضربني مرّة، ولم يكن قاسياً بطبعه، لأنه ضبطني متلبساً بالخروج إلى الشارع، وكنت في الرابعة أو نحوها. مع المدرسة تفتحتْ عوالم جديدة كثيرة كانت مغلقة أمامي. عالم الشارع، وعالم «البراحة» التي يفضي إليها الشارع، وعالم «الزرانيق» التي تتفرّع من الشارع، كل هذا بالإضافة إلى عالم المدرسة الأكبر، وما يعّج ويضج فيه من مخلوقات طلابية وأستاذية، وعجائب وغرائب من كل نوع وصنف.

في المنامة، تعرفّت على أوّل صديق. وفيها، تعلمت القراءة والكتابة. وفيها، عرفت لسعة المراهقة. وفيها، عانقت جنون الصبا الأولّ. وفيها، بدأتُ كتابة الشعر. وتشاء إرادة الله أن أعود إليها، المرة بعد المرة، في زيارات عمل واستجمام وفي زيارات بلا سبب، حتى رجعت إليها سفيراً أقام هناك قرابة ثماني سنوات. وفي المنامة، قضى أولادي فترة طفولتهم وصباهم الأول كما حدث لي، ولله في خلقه شؤون.

■ **المدن التي زرتها أو عشت فيها داخل نطاق بلدك، ذكرياتك عنها، بصماتها على حياتك . كيف تراها الآن؟**

❖❖ زرتُ كل مدينة كبيرة في المملكة، وعدداً لا يستهان به من المدن الصغيرة والقرى والهجر، وكان ذلك بسبب العمل، غالباً. لا أستطيع أن أتحدثّ عن كل المدن في بلادي، ولكني استطيع أن أتحدثّ عن بعضها، ولأبدأ بالرياض، العاصمة. ما مرَّ بالرياض من تطورات يلخصّ ما مرّ بمدن المملكة كلها، كبيرها وصغيرها. قضيتُ في الرياض قرابة عشرين سنة، أمضيت نصفها الأول في الجامعة، ونصفها الثاني في العمل الحكومي. عندما سكنتُ الرياض لأول مرّة، وكنت قد زرتها قبل ذلك زورات متفرقة قصيرة، في منتصف الثمانينات الهجرية (الستينات الميلادية) كانت مدينة تتألفّ من أحياء معدودةن وشوارع رئيسية تُعدّ على أصابع اليد الواحدة. لم يكن هناك سوى الديرة (بمعناها الواسع). و«شارع المطار» و«الملز» و«الناصرية» و«المربع» و«عليشة» و«المعذر». الأحياء الكبرى الشهيرة اليوم من «العليا» إلى «السليمانية» إلى «الروضة» إلى «النسيم» إلى «التخصصي» كانت وقتها، في عالم الغيب.أما الشوارع فكان أكبرها وأشهرها، شارع «الستين» وقد استحق هذه الشهرة لأن عرضه بلغ ستين متراً بالتمام والكمال. لم يكن الهاتف الآلي قد وصل إلى الرياض، ولم يكن يحرص على اقتناء الهاتف اليدوي القديم سوى المهمّين جداً، وهواة تعذيب الذات (والسنترال!). ولم يكن في الرياض كلها، سوى مطعم واحد «نظيف» يلتقي فيه كل ظهر للغداء كلّ عزاب الرياض من دائمين ومؤقتين. ولم يكن فيها سوى فندقين

يشهدان كل احتفالات الرياض وكل مناسباتها، الرسمية والشعبية. أيامها ، كنت تنطلق دقائق بالسيارة على طريق «خريص» فتجد نفسك في منتصف الصحراء. وكم كانت الصحراء حول الرياض جميلة. كُنّا - شلّة من الأصدقاء فرقتّها الأيام الآن - نلتقي كل مساء في مقهى من مقاهي خريص «البدائية». التي أودي بها التطور ضمن ضحايا كثيرة لا يتسع المجال للتطرق إليها، لتناول وجبة العشاء. كان العشاء يتكون من «المطبّق المالح» يتبعه «المطبّق الحلو»، تتلوه «برادات» لا تعد ولا تحصى من «الشاهي المنعنش». عندما أتذكر الرياض، الآن أتذكرّ يومي الأول في الوظيفة، أتذكر حياتي العملية بكلّ ما فيها من عواصف وزوابع، وقمم وسفوح وانتصارات وانكسارات، أتذكر صراع الطموح، والصراع مع الطموح. ولكنني أتذكرّ قبل هذا كلّه، أن الرياض كانت مدينة صغيرة يعرف الجار فيها جاره. الآن؟! الآن لو قدت السيارة بنفسي في الرياض لقضيت اليوم بأكمله حائراً بين الطرق الدائرية. الآن ؟!. يضحك عليّ الأصدقاء -من تبقّى منهم!- عندما أسأل عن كيفية العثور على «المطبّق». شارع الستين، الآن، يتوارى خجلاً كزقاق صغير أمام الشوراع العملاقةو مع ذلك. تبقى الرياض القديمة في ذاكرتي، تبقى إلى أن أموت. أشعر في كل مرة أعود فيها إلى الرياض، أني رجعت شاباً طموحاً نشطاً يستقبل يومه الأول في الوظيفة، ويتطلع إلى نهاية الشهر كي يستلم الراتب (١٤٨٠ ريالاً) ويعيش في سكن متواضع لا يعرف أيّ نوع من أنواع التكييف في الصيف ولا التدفئة في الشتاء، وينتظر المساء بلهفة كي يتمكن من ملامسة النجوم بأصابعه في «خريص»

بعد الرياض، أوّد أن أقول كلمة أو كلمتين عن جدّة والطائف، بالمناسبة، يعاتبني الكثير من سكان هاتين المدينتين لأني لم أكتب عنهما شعراً (وإن كنت كتبت فيهما الكثير من الشعر). وأنا استحق العتاب والعقاب، وسوف يجيء الشعر، ربمّا، ذات يوم. في جدة الكثير من الملامح البحرية التي تستهويني، وفي مقدمة هذه الملامح التسامح. المدن/الموانيء تتلقّى مختلف أنواع البشر الذين يحملون معهم مختلف العادات والأفكار والتقاليد والأمزجة. سرعان ما تطوّر المدن/الموانيء مناعة وحصانة، مناعة ضد الإنصهار، وحصانة ضد التطرف. هذا أكثر ما يشدني إلى جدة، هذه الروح البحرية المنفتحة على الأشرعة والنوارس والأصدقاء.

أما الطائف فقد قضيت فيها مواسم صيف رائعة. أجمل ذكرياتي هناك هي ذكرياتي في فندق «العزيزية» التاريخي وصاحبة التاريخي العم عبدالقادر إدريس رحمه الله.هذا رجل غريب! يتقاضى منك يومياً مائة ريال أو نحوها أجرة الغرفة، ثم يقدّم لك، يومياً، من

أنواع الهدايا ما تتجاوز قيمته هذا المبلغ بكثير، ويتحفك بذكرياته الشائقة التي لا تنتهي.كنت أذهب كل يوم في جولات بالسيارة، إلى الجبال المجاورة للطائف. وكانت هذه النزهة فرصة لتأملات عميقة (وغريبة) لا أدري حتى هذه اللحظة لماذا يتيح جو الطائف مجالا للتأمل على نحو لم أعهده في أيّ مكان آخر. منذ سنين لم أزر الطائف كل ما أتمنّاه ألا تكون قد فقدت ورودها، وجوّها الهادئ الذي يوحي بأغرب الأفكار.

■ ما هي أول مدينة زرتها خارج بلدك؟ أسباب زيارتك لها؟ ذكرياتك عنها؟ وعن الناس الذين رافقوك لها؟ والناس الذين عرفتهم فيها؟

❖❖ أول مدينة رأيتها بعد الهفوف والمنامة كانت بيروت. كنت وقتها في الثانية عشرة، وذهبت مع عائلتي إلى لبنان للإصطياف. كانت التجربة مغامرة هائلة، ولم تكن تتيسّر إلاّ لقلّة من المحظوظين. اقلعت الطائرة -داكوتا- من مطار المحرّق وحطّت بعد ثلاث ساعات في مطار الكويت، ثم استراحت وأقلعت لتحط بعد خمس ساعات في مطار بيروت، وكنت عبر هذه الساعات في حالة ذهول منتشية،(أو نشوة ذاهلة!).كنت أحس أني على وشك الدخول في مغامرة علاء الدين. والنزول على جزيرة من جزر الواق واق. ولم تخيّب التجربة ظني. بدا مطار بيروت أنيقاً وسيماً يختلف كليّة عن مطارات الخليج البدائية. من بيروت انطلقنا إلى «الجبل» عالية بالتحديد، وأنا لا أستخدم كلمة «انطلقنا» هنا مجازاً!. كل الذين يعرفون لبنان، في الماضي أو الحاضر، يعرفون أن السيارات تنطلق بسرعة الرصاصات، أو أسرع قليلاً (خصوصاً في الأكواع حيث «التفحيط» الذي يجعل «تفحيط» هذا الجيل الخليجي لعب أطفال حقاً). ما بين بيروت وعالية، حيث كنت أتنقل ذلك الصيف، انفتحت أمامي عوالم مثيرة جديدة. رأيت الترام لأول مرة في حياتي في بيروت (كما رأيت القطار لأول مرّة، وسيارات السرفيس). أكلت «الشاورمة» و «الفلافل» و «الشوكولامو». بعد الغزو الغذائي اللبناني للأمّة العربية تفشّت «الشاورمة» و «الفلافل» في كل مكان، أما «الشوكالامو» فاحسبة لا يزال احتكاراً على المدن اللبنانية. أتأمل الآن في الصورة القديمة التي التقطت أثناء تلك «الصيفية» التاريخية. كم كان الفتى مبهوراً بالشلالات وبالعرائش في زحلة (عفواً .. وبالكبة المشوية!). بمدينة الملاهي التي اكتشفها في بيروت واكتشف سياراتها الكهربائية الصغيرة وأدمنها. كنا نسكن في حي صغير من أحياء عالية اسمه «عين العدس». كانت متعة أن ينهض الصبي في الصباح الباكر، مرتعشاً من البرد (في يوليو!) ويتجوّل في الحارة الجبلية ملتقطاً تينة من هنا، وحبّة عنب من هناك. حيثما ذهب، كانت هناك صرخات الترحيب الحقيقي والضيافة الصادقة. «أهلين!» «تكرم!» «تكرم عينك!». وذلك الدعاء

الرقيق الذي تسمعه عندما تشتري أرخص الاشياء «يعوض عليك!». كم أتمنى أن أعود لأرى ما فعل الدهر بعين العدس .. وبأهلها.

■ **المدينة التي درست فيها خارج بلدك؟ بصماتها على حياتك الشخصية؟ دورها في انضاج رؤيتك المستقبلية لحياتك؟ ماذا عن مساوئها؟ وحسناتها؟**

❖❖ درستُ في المنامة، وقد حدثتُك عنها. ثم في القاهرة ثم في لوس انجليس ثم لندن. أعني الدراسة الأكاديمية، أما الدراسة الحقيقية في مدرسة الحياة فقد بدأت مع أول يوم من حياتي، ولا تنتهي إلاّ مع آخر يوم منها.

القاهرة؟! «ماذا أحدّث عن صنعاء يا أبتي؟!»، كما يقول البردوني - كيف أتحدّث عن القاهرة من غير أن أكتب رواية ثانية؟ في القاهرة تفتحت عيناي على كلّ الآفاق، وأبصرت كل المشاهد، وامتلأت بكلّ التجارب. في القاهرة، درست القانون، والتقطت من سور الأزبكية العظيم كل كتاب مستعمل كان ثمنه في متناول يدي. في القاهرة كنت أرى طه حسين يدخل كليّة الآداب، وكنت أرى بيرم التونسي ينظم أشعاره في مقاهي سليمان باشا، وكنت أجادل العقاد حول طبيعة الشعر الحرّ، وكنت أكتب قصيدة كل يوم. القاهرة، وقتها كانت «أم الدنيا» فعلاً : تعطس القاهرة فيصاب العالم بالأنفلونزا. في القاهرة، خفق القلب مع أول قصة حب، وخفق العقل مع أول نظرية. حديث القاهرة يا صديقي، يطول .. يطول .. يطول!.

بعد القاهرة، جاءت لوس أنجليس. وصلت إليها وأنا على أبواب الثانية والعشرين، للتحضير للماجستير. الحقّ أقول لك، كان في التجربة الكثير من الرهبة. الحق أقول لك، كان في التجربة قدر لا يستهان به من الذعر. هذه المدينة الممتدة إلى مالا نهاية -كانت أيامها أوسع المدن مساحة وأحسبها لا تزال- تلقي الرعب في أشجع القلوب. الطالب العربي الذي لم يُصب بالقرحة، أو ما يعادلها، عند لقائه الأول بلوس أنجليس كان ظاهرة صحية نادرة. كنّا نطلب منه أن يشرح لنا السبب في عدم انضمامه إلى «نادي المقروحين». أما أنا فقد انضممت إلى هذا النادي بعد وصولي بأسابيع قليلة، أذكر أن طبيبي أعطاني «بسكويتا» مضاداً للحموضة صرعة من الصرعات الأمريكية التي لا تنتهي. تناولت قطعة من «البسكويت» في الفصل، وبادرت أشرح لجاري الأمريكي أني لا آكل في الفصل من باب الشراهة، ولكني استعمل دواءً للقرحة. قال لي أنه بدوره يعاني من القرحة، فأعطيته قطعة من العلبة. في لحظات تبين أن الغالبية العظمى من الطلاّب، والطالبات كانوا يعانون من القرحة، واختفت علبة «البسكويت» . حسناً! اللقاء الأول يفزع ويخيف. تدريجياً، أو تدريجاً كما يقول سادتنا خبراء اللغة! يبدأ المرأ في التأقلم مع المدينة العملاقة. تكتشف أن الحلاق

اللوس أنجليسي لا يقل ظرفاً ومرحاً عن الحلاّق القاهري. تبدأ العاملة العجوز في المتجر تحييّك وكأنك ابنها : «هالو يونج مان!» تربطك صداقات جديدة بأناس جدد. «شارع هوليود» لا يعود أسطورة من الأساطير بل مجرّد مكان تذهب إليه لشراء بدلتك.«بيفرلي هيلز» تفقد ألقها كمدينة سحرية تؤوي النجوم وتصبح منطقة جميلة عادية، تمتاز بالمطاعم الجيّدة. وفي الجامعة تتعلّم لأول مرة، قواعد البحث العلمي بعد سنين «الصم» تلتقي بأساتذة يسمحون لك بالإختلاف معهم في الرأي (إلى حد ما، على أية حال!). ترى اللعبة السياسية الأمريكية بمختلف وجوهها. تستغرب كيف يشتم الناس رئيس الجمهورية نهاراً جهاراً ولا يذهبون إلى السجن. وتكتشف كم هي عميقة وقويّة وطاغية وضاربة رابطة العروبة عندما تكون بعيداً عن الوطن (لماذا لا تكون كذلك في الوطن؟! لا تسأل أسئلة غبية) لوس أنجليس التي دخلتها برعشة الرهبة فارقتها بدمع الحنين. ماذا عنها الآن؟ تغيّر كل شيء. قبل فترة وجيزة استلمت رسالة من أحد أساتذتي القدامى يخبرني فيها أنّه تقاعد وشدَّ الرحال إلى قرية صغيرة هارباً من لوس أنجليس. قال إن لوس أنجليس اختلفت واختلفت إلى الأقبح والأسوأ. استحيت أن أقول في ردي : «ونحن ايضاً اختلفنا، إلى الأقبح والأسوأ».

ثم لندن، وما أدراك ما لندن؟! لندن التي قال عنها أحد سكانها ذات يوم :«عندما يسأم الإنسان لندن فإنه يسأم الحياة نفسها لأنّ في لندن كلَّ ما في الحياة. حسناً كان صاحبنا يبالغ، ولكنه لم يبالغ كثيراً. لندن هي عاصمة العالم بأكمله. تجد في لندن كل البشر، وكل الثوار، وكل المحافظين، وكل التيارات (وكل الأطعمة والبهارات) يعشق لندن أكثر الناس التزاماً، كما يحبها أكثرهم إنحلالاً. يجد كل إنسان في لندن بغيته. ولو كان لي أن أضع للندن شعاراً لكان «لكل ذوق ما يشتهي!». ولندن لا تتغير، بخلاف باقي المدن.هناك بطبيعة الحال، ارتفاع في الأسعار، أو هبوط في عدد الزوار، أوتبديل في هذا الحيّ أو ذاك، أو تتغير لهذا القانون أو ذاك، ولكن روح لندن نفسها لا تتغير. روح لندن يمثلها أصدق تمثيل «هايد بارك كورنر» حيث يقول الخطباء ما يشاؤون. هل تتصوّر مدينة أخرى على هذا الكوكب أو في أي كوكب آخرن تسمح لكل من هبّ ودبَّ بشتمها من فوق المنابر، ولا تلاقي الشتم إلا بضحكات الإستمتاع؟ تستطيع أن تقول إنه التسامح،أما أنا فارجح أنه التعالي، التعالي الإمبراطوري القديم الذي لن يزول من النفوس. التعالي الذي يعتقد: «ما دمت أنا أحسن الجميع فليقل الجميع ما شاءوا». التعالي الذي يقول: «أنا لا يغيّرني شيء فتعالوا وحاولوا!» وأنا أحبّ لندن. وأخافها، أحبّ انفتاحها، وأكره تعاليها. درست فيها، ثم عدت إليها مرّة بعد مرة. ثم شاءت إرادة الله أن أستقرَّ فيها للعمل. والذين يعملون في المدن لا

يستطيعون أن يتعرفوا على دخائلها كما يتعرّف عليها الطلبة والصعاليك والمشرّدون والمنفيّون. مع ذلك أنا أشعر، رغم أني أعيش الآن ضمن سجن رهيب من الإلتزامات العملية والإجتماعية أني أعرف لندن جيداً، لأنها لا تتغيّر.

■ **أول مدينة زرتها سائحا بعد أن تكامل استقلالك الماديّ والفكري؟ أسباب زيارتك لها؟ انطباعك عنها؟**

❖❖ تكامل الإستقلال المادي أمر مفهوم (إلى حدّ ما) أما تكامل الإستقلال الفكري فمطلب عويص، ولكن دعنا من هذا الآن. لا بُد أن أوضح أني بطبعي لا أحبّ السياحة، ولا اكتشاف المدن، ولا الضرب في الآفاق. معظم المدن التي رأيتها زرتها بحكم الضرورة، الدراسة أو العمل أو خط السير أو إصرار الآخرين. حقيقة الأمر أني مخلوق تحكمه العادة إلى حد كبير: أحبّ أن أرجع إلى الأماكن الأليفة وانفر من كل ما هو غير مألوف. ومع مرور السنين أصبح السفر مجرّد ضرورة، أصبح إزعاجاً إذا أردت الدّقة. لم تعد رحلة الطائرة ممتعة. لم يعد الشاطيء الجديد مفاجأة. لم تعد المدينة الجديدة بهجة. حتى أكثر الفنادق فخامة لم يعد مبعث سرور. لا أستطيع النوم ما لم يكن السرير بمواصفات معيّنه، والغرفة حالكة الظلام، والهدوء ضارباً بأطنابه على المكان. كل هذه الاشياء، في العادة، من أعراض الكهولة ولكنها بدأت معي قبل الكهولة.

بعد هذه المقدمة الضرورية أعود إلى سؤالك. أوّل مدينة زرتها سائحاً كانت كوبنهاجن، ولم أزرها سائحاً إلاّ لأن الضرورة، خط السير على الطائرة الإسكندنافية، اقتضت أن أمرَّ بها في طريق العودة إلى الوطن. عرفتها أول ما عرفتها طالباً ثم عدت إليها بعد فترة قصيرة سائحاً. كان الذي جذبني في كوبنهاجن شعوري أنها مدينة «صديقة» لا تشعرك أنك أجنبي، أو أنك ضيف، بل تعاملك كأحد أبنائها.أذكر أنني طلبت من سائق سيارة الأجرة أن يأخذني من فندقي إلى مطعم معّين فقال لي ببساطة: «خذ هذا المترو وسوف يأخذك إلى هناك مباشرة. ووفر ثمن الأجرة».

أحسب أن هذا موقفٌ نادر، لم يحدث لي مع سائق أجرة قبله أو بعده، ولم يحدث لإنسان أعرفه. لسبب ما، كنت أشعر أن كوبنهاجن مدينة سعيدة، مليئة بالسعداء من البشر. كنت أقضي معظم وقتي، نهاراً وليلاً في حدائق «التيفولي» الشهيرة، حيث تتحوّل الحياة إحتفالاً شعبياً كبيراً بالحياة. أبادر فأقول إن هذه الإنطباعات تعود إلى ثلث قرن مضى لم أزر كوبنهاجن منذ تلك الأيام الغابرة، ولا أدري ما حدث لها، ولحدائقها،

ولحوريّتها الصغيرة المطلة على البحر. كل ما أرجوه هو ألاّ تكون قد فقدت شيئاً من روحها التي كنت أيامها، كروحي نابضة بالسعادة، بالفرح بالحياة.

■ المدينة التي تفضّل قضاء إجازتك فيها وحيداً؟ والأسباب التي دفعتك إلى اختيارها؟

❖ منذ تزوجت، قبل أكثر من ربع قرن، والإجازة في ذهني مرتبطة بالعائلة : مع الزوجة في البداية ثم مع الزوجة والأولاد. كل إجازاتي السنوية عائلية. قد يحدث أن أسافر بضعة أيام بدون العائلة، وفي هذه الحالة لا بُد من وجود أصدقاء معي.

الإجازة الإنفرادية الوحيدة التي أعرفها هذه الأيام هي الإفلات من لندن بين الحين والحين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في فندق من الفنادق الجميلة الصغيرة المنتشرة في الريف الإنجليزي (إذا سمّيت مثل هذا الهرب من زوار «الويك إند» الثقلاء ومهاتفاتهم إجازة!).

■ المدينة التي تفضل قضاء الإجازة فيها بصحبة العائلة؟ والأسباب التي دفعتك لاختيارها؟

❖ من الأدق أن تسمّي هذا المكان قرية كبيرة، لأن سكانه لا يتجاوزون عشرة آلاف نسمة. هذه القرية تقع على ضفاف نهر الماين في ألمانيا ويعود تاريخها لى أيام شارلمان. تزعم الأسطورة أن الإمبراطور اختلف مع ابنة له فهربت، وقضى زمناً طويلاً في البحث عنها، ثم عثر عليها في موقع القرية فقال: «لتكن سعيدة هذه البقعة التي عثرت فيها على ابنتي!». منذ ذلك الحين، والقرية تعرف باسم «مدينة السعادة» بصرف النظر عن الأسطورة، ما يجذبني إلى هذا المكان هو الهدوء. لا توجد في القرية فنادق فخمة ولا ملاهي ليلية، ولا مطاعم شهيرة، ولا يكاد يتوفّر فيها شيء من مستلزمات السياحة المعروفة. ما يتوفّر فيها هو الكثير من السكينة. لا تتلقّى مكالمة هاتفية من إنسان «عاقل» يوقظك من نومك بعد منتصف الليل ليسألك عن تأشيرة. ولا «يطب» عليك إنسان بلا موعد. ولا يتعلّق أحد برقبتك في منتصف الطريق مصراً على أن تعطية موعداً للغداء والعشاء. في منزلي الصغير هناك مكتبة صغيرة أقضي فيها معظم وقتي أقرأ أو أكتب. في هذه المكتبة كتبت عدداً من مؤلفاتي. بقيّة الوقت أمضيه مع الطبيعة، على ضفاف النهر أو بين حقول الذرة. منذ قرابة عقدين وأنا أعود إلى هذه القرية في كل إجازة سنوية. يحدث أحيانا أن أغيّر المكان، وسرعان ما أندم على القرار وأعود إلى قواعدي لا تسألني عن اسم المكان، فأنا أوّد

أن يبقى مجهولا!.

■ **المدينة التي زرتها أكثر من سواها؟ وأسباب ذلك؟ انطباعك عنها؟ بصماتها عليك؟**

❖ أستطيع أن أذكر في هذا السياق تونس (أعني تونس العاصمة). رأيتها، أول ما رأيتها في رحلة عمل عندما كانت تضم الجامعة العربية. ثم عدت إليها طائعاً مختاراً، ثم عدت إليها مراراً، بحكم الألفة.تونس، في تصوري «حل وسط» جميل، حل وسط بين الجبال والسهول، وبين الصحراء والبحر، وبين الغرب والشرق. كما في الحلول الوسط كلها، لا يوجد في تونس التشنج الذي يلازم، عادة الإنحياز نحو نقيض أوآخر.وأهل تونس أبعد الناس عن التشنج. بشيء من المرونة الإقتصادية التشريعية، أتوقع لتونس أن تصبح بيروت المستقبل (بلا مشاكل بيروت!).

■ **هناك مدينة زرتها لأول مرّة ولكنك شعرت أنك تعرفها من قبل أو أن وقعها في نفسك كوقع وجه السيف لا تذكر أين ومتى رأيته من قبل. ما هي هذه المدينة؟ وماذا فجرت في أعماقك من انفعالات وانطباعات؟**

❖ بمجرّد أن رأيت ريو دي جنيرو، وأنا لم أرها سوى مّرة واحدة، شعرت بألفة فورية معها ومع سكانها. وجاء هذا الشعور رغم إلمامي التام بالإحصائيات التي تثبت أن الوجه البراق يستر الكثير من المعاناة. لا أدري لماذا يجيء شعور الألفة أو شعور النفور.وعلماء النفس لا يزالون حائرين في تفسير هذه الظاهرة عند تعاملنا مع أشخاص نراهم لأول مرّة. وتتراوح هذه التفسيرات بين المغرق في الفرويدية والموغل في الميتافيزيقية. وأحسب أن تفسير الألفة والنفور في التعامل مع المدن لا يقل صعوبة. فلنأخذ الظاهرة على علاتها. أحببت ريو دي جنيرو من «النظرة الأولى»، كما يقولون في الأفلام، والأيام المعدودة التي قضيتها فيها كانت من أسعد أيام حياتي.

■ **هناك مدن تشعر أنها كالزئبق، كلما حاولت أن تمسك بها هربت منك. كيف يتم ذلك إزاء مدينة؟ وما هي المدن الزئبقية التي تسربت من بين أصابعك؟ وما هو موقعك منها؟ ومشاعرك تجاهها؟**

❖ نيويورك، يا صديقي، هي مدينتي الزئبقية. أصدقائي الذين يقيمون في نيويورك، بصفة دائمة، يهيمون بها حُباً وغراماً. الصورة الشائعة عنها في الأذهان مخيفة

ومرعبة.أما السواح فمنقسمون: منهم من يعشق ومنهم من يبغض. زرت نيويورك عدّة مرات. زرتها في المرة الأولى، طالباً في طريقي إلى لوس انجيلس. كدت اشعر بالإختناق بين ناطحات السحاب، والمارة المستعجلين الذين لا يردون على استفساراتك عن عنوان ما، وسائقي سيارات الأجرة الوقحين. بعد ذلك بسنين طويلة جئتها، مرتين أو ثلاث، في مهمّات رسمية لم أر خلالها سوى صالات الفنادق وأعماق المكاتب. ثم زرتها زيارة سياحية طويلة بعض الشيء في ضيافة صديق عزيز مقيم أخذ على عاتقه مهمة «تحبيب» نيويورك إليَّ (أو تلميعها كما يقول التعبير السخيف الشائع). في هذه الزيارة اكتشفت الزئبق النيويوركي. كلما عثرت على ملمح حسن هرب منك ليضعك بين براثن ملمح بشع. بين مظاهر الثراء البذيء ومظاهر الفقر الأكثر بذاءة لا تعرف اين أنت: في قلب التقدم أو في أعماق التخلّف. لا أزال عاجزاً عن فهم نيويورك، وأحسبني سأظل عاجزاً.

■ هناك مدن ترحل عنها وفي القلب غصّة. كيف ولماذا يكون ذلك إزاء مدن أو مدينة؟

❖❖ التفسير عند المجنون/العاقل: «ولكن حبّ من سكن الديارا».عندما غادرت الهفوف كنت طفلاً لا يعرف معنى الغُصّة. ولكن عندما غادرت المنامة شعرت بسهم يتغلغل في الروح. بعدها، بسنوات خمس، عندما ودّعت القاهرة شعرت أني أترك خلفي أشياء ذهبية، أياماً لا تعود وذكريات لا تنسى. حتى لوس انجليس التي استقبلتني بالقرحة ودّعتها بالكثير من الأسى. كان هناك «طقس» معين للوداع. في منحنى مظلم مجهول في هوليود عثر عليه أحد الأصدقاء ذات مساء بالصدفة، يقع طريق جبلي ضيّق يفضي إلى قمة ترى منها لوس انجليس بكل كرنفالات الضوء واللون التي تصطخب في سمائها مطروحة تحت قدميك. منذ أن تمّ هذا الإكتشاف تعودنا،أعضاء الشلّة، أن نودع كل من يسافر باصطحابه لإلقاء نظرة أخيرة على لوس انجليس من تلك البقعة. وكثيراً ما تكون تلك النظرة مصطبغة بالدموع.

■ هناك مدن تتمنى زيارتها وعندما تزورها تصاب بخيبة أمل. أي المدن هذه؟ وكيف يتم ذلك؟ ولماذا؟

❖❖ سمعت الكثير عن هونج كونج. قرأت عنها. رأيتها في عدد كبير من الأفلام السينمائية. كنت أتطلع إلى زيارتها. وعندما رأيتها، أول مرّة، شعرت على الفور بما يسمّيه أبناء الخليج «وقفة النفس». عدت إليها، مرة ثانية، مضطراً بسبب خط السير، وتعمق شعور الإستثقال، ولا أود أن أقول الكراهية. رغم الألوان الصارخة في كل مكان، والمناظر الجميلة،

والبضائع الراقصة في واجهات المحلات، رغم الإستعدادات السياحية، كان هناك شيء ما ينفرني من المكان. لا تسالني عن هذا الشيء. هل هو الطبيعة التجارية التي تصبغ كل شبر، وكل وجه، بلونها الفاقع؟ رُبّما. ولكن كل الأماكن السياحية ترتدي، على نحو أو آخر، وجهاً تجارياً دون أن تصبح، بالضرورة، منفّرة، هل هي الطبيعة المؤقتة للمدينة؟ ربما. ولكن الكثير من الأشياء المؤقتة تغري وتثير. هل هو الزحام الخانق (وأنا أكره الزحام الخانق إلى درجة تقارب الفوبيا؟) رُبّما. الحق أنني لا أدري. كل ما أدريه هو أني لن أعود إلى هونج كونج طائعاً. ولا يراودني أدنى شك أن هونج كونج لم تفرح اذ كنت ولم تجزع اذ بنت!.

■ هناك مدن لا تريد زيارتها بسبب من الأسباب ثم عندما تزورها تكتشف أنك أحببتها رغماً عنك .. ما هي هذه المدينة؟ وأسباب عدم رغبتك في زيارتها؟ وانطباعك الجديد عنها! وكيف يكون؟

❖❖ تطلبت ظروف العمل ذات يوم، أن أزور نيودلهي. لم أكن أتطلع إلى الزيارة. الحق أقول، كنت أتهيّبها. والسبب؟ لم أكن حريصاً على أن أرى بعينيَّ مظاهر البؤس البشري المتفشي في عواصم العالم الثالث، إلا أن المدينة كانت أجمل بكثير مما توقعت، أجمل وأنظف وأرقى. حتى مظاهر البؤس كانت أهون مما توقعّت. ولم يكن هناك الزحام الخانق الذي يخيفني. من هناك أخذت الطائرة إلى تاج محل (رغم أنني، بطبعي، عزوف عن زيارة الأماكن التاريخية والمعالم والمتاحف على النقيض من زوجتي التي تستطيع أن تقضي سنين في هذه الأماكن)، هناك وجدت أن كل ما سمعته عن تاج محل يتضاءل أمام الواقع. كدت أرى بعينيَّ شاه جهان، والحبيبة التي أنشأ هذا المكان/ الحلم من أجل عينيها. هذه هي المرة الوحيدة التي أرى فيها حقيقة تفوق الأسطورة جمالاً. بكثير من الحسرة أقرأ، هذه الايام، أن التلوث بدأ يقتل هذا الإبداع البشري العظيم.

■ هناك مدن تقرأها في كتاب تاريخ لكنك عندما تزورها تجدها حاضرة كحكاية قديمة. ما هي هذه المدن؟

❖❖ لا يحدث إلاّ نادراً. ذات يوم، تغلغلت بمفردي في أحشاء فاس عبر الجامع الكبير وبعده. فجأة، نقلتني الأصوات والمشاهد والروائح إلى أعماق «ألف ليلة وليلة». إلى شوارع بغداد أيام هارون الرشيد. كنتُ أتصور كل حمّال يمر بي الحمّال المشهور (الذي لا تسمح رقابة هذه الأيام برواية حكايته الموجودة في «ألف ليلة وليلة»!). كنت واثقاً أن كل باب يفضي إلى غرفة تجلس فيها حسناء ذات شعر طويل اسمها بدور. كنت أتوقع أن تقلع كل سجادة

معروضة للبيع بغتة في الهواء. تصورت كل مصباح يخفي الجنيّ سيء الذكر. عبرت بي لحظات سحرية أحسست فيها بكل هذا، بضع دقائق على الأكثر ثم عدت إلى القرن العشرين.

■ هناك مدن تعيش في أحلامك وكأنها لم تكن أصلاً ولكنها تبقى في وجدانك حاضرة أبداً. حدثنا عنها.

❖❖ هذا سؤال يثير مكامن الشجن. دمشق هشام، وبغداد النواسي، وقرطبة ولاّدة، ونيسابور الخيّام. هل تعرف شركة سياحية تستطيع أن تأخذني إلى هذه المحلات؟!.

■ هناك مدن كالناس يمكن أن تحبهم ويمكن أن تنفر منهم. هل صادفتك هذه المدن؟ متى وكيف؟ حدثنا عنها.

❖❖ أنا لا أحبّ مَنْ (أو ما) أنفر منه، ولا أنفر مِن مَنْ (أو ما) أحبّ!.

الفصل السادس
أسئلة الشعر التي لا تنتهي

وكثيرٌ من السؤال اشتياقٌ
وكثيرٌ من ردّه تعليلُ

المتنبّي

يصنّفك بعض النقاد في تيار الرومانسية الجديدة، ويبدو شعرك وكأنه يقفز أو يتجاوز مرحلة الحداثة التي طبعت الستينات والسبعينات، ليتواصل مع رومانسيين سبقوا هذه المرحلة مثل الياس أبو شبكة، وإبراهيم ناجي، وحتى خليل مطران .. ما رأيك؟

بيار أبي صعب

❖❖ يجب أن نعرف أن هذه مجرد تصنيفات من صنع النقاد والأكادميين والمنظّرين. عندما تجتمع حصيلة معينة من نتاج أدبي تعقبها التنظيرات. ألفت نظرك، أولا، إلى أن كلَّ هذه التصنيفات غير واضحة المعالم. وهي أبعد ما تكون عمّا يسميه المناطقة التعريف «الجامع المانع» وألفت نظرك ثانياً إلى أن هذه التصنيفات تتغير طيلة الوقت. وألفت ناظرك، ثالثاً، إلى أن المعايير التي تستند إليها التصنيفات نسبية. ما تقصده أنت بالرومانسية يختلف عما يقصده شخص ثان. علينا أن نتعامل مع هذه المصطلحات بكثير من الحذر ولا ننسى أنها مجرد أدوات أكاديمية تسهِّل مهمّة البحث.

لا بد أن ننظر إلى هذه التصنيفات ضمن السياق التاريخي الذي ولدت فيه، ذلك أنها كثيراً ما تسلخ من هذا السياق وتطبّق بشيء من التسرع، على الإطار العربي. جميع هذه التصنيفات ظهرات في التراث الأوروبي في واقع تاريخي محدّد. وعندما نقلت، أحياناً، لما تستدعيه من خلفيات. الرومانسية، مثلاً عندما ظهرت كانت ثورة حقيقية. تمردت الرومانسية على الأساليب القديمة في الحياة وفي الأدب وأعلنت فردية الإنسان وقدرته على مواجهة قدره. كانت ثورة الفرد في وجه المجتمع، تلك الآلة الهائلة التي تطحنه طحناً. هذا الإطار التاريخي ينساه بعض نقادنا الذين يطلقون صفة الرومانسية على أي إنتاج أدبي فيه خيال واسع وقمر وبحيرة.

وردت في سؤالك كلمة الحداثة. الكلّ يتكلم عن الحداثة إلا أنني لا أعتقد أن هناك أكثر من بضعة أشخاص يعنون الشيء نفسه عندما يتكلمون عن الحداثة في العالم العربي. من تجربتي الشخصية لاحظت أن تسعين في المائة من الذين يتكلمون عن الحداثة يقصدون التحديث أو التجديد. الكثير من الشعراء الشباب لا يعرفون الفرق بين التحديث Modernisation وبين الحداثة Modernity. الحداثة، في المجال الغربي، لها جذور قديمة في عصر النهضة، ولها جذور أقرب في القرن التاسع عشر عندما بدأ بعض الباحثين

يعيدون النظر في النصوص الدينية ويخضعونها لشتى معايير النقد. هذه النظرة الرافضة للقديم انتقلت من النصوص الدينية إلى شتّى مظاهر الحياة. أغلب الذين يتطرقون إلى الحداثة من العرب لا يعرفون شيئاً عن هذه الخلفية ولا يعنون بالحداثة شيئاً يتجاوز محاولات التجديد.

نرجع إلى التصنيفات. إذا كان لابُدّ منها فأنا أعتقد أن أي شاعر حقيقي يجب أن يكون كلاسيكياً ورومانسياً وواقعياً في الوقت نفسه. من دون الأسس الكلاسيكية، يصبح الشاعر مبتوت الصلة بتراثه. وفي جامعات الغرب مهما كان موضوع دراستك يجب أن تبدأ من الإغريق. هل يمكن أن نتصور شاعراً عربياً مبدعاً لم يقرأ المعلقات؟ هل يمكن أن نتصور شاعراً عربياً مبدعاً يفتقر إلى الخلفية الكلاسيكية؟ نأتي إلى الرومانسية. قلت قبل قليل إن الرومانسية كانت ثورة الفرد في وجه الحضارة الماديّة. والشاعر، تحديداً، يبدأ حين يعلن تميزّه في مواجهة القطيع. لا يمكن للرومانسية، بهذا المعنى، أن تغيب عن أي عمل شعري خالد. نجيء الآن إلى الواقعية. من أين نستقي وحينا نحن الشعراء؟ لا توجد في رأيي من مادة خام للشعر سوى البشر. حتى شعر الوصف لا بُد أن يحيلنا إلى النفس البشرية .. من هنا أقول إن كل شعر حقيقي لا بُد أن تتوافر فيه الروافد الثلاثة، الكلاسيكية والرومانسية والواقعية. وإذا اختل جانب من هذه المعادلة فسينعكس الإختلال على النص بحيث لا يتمكن من مقاربة الإبداع الخالد.

عودة إلى الرومانسية

■ ولكن رومانسيتك قد تتجلّى في الخيار الشعري الذي يتجرأ على كتابة الحبّ والمشاعر وسط واقع قاتم مقيّد ومحدود الأفق.

بيار أبي صعب

❖❖ أنا لا أتعامل مع شعري بمنظار الناقد. لكنني أعتقد أنك لو حدّقت بالمجهر فستجد أن شعري يشتمل على المكونات الثلاث. إذا كنت تقصد الذاتية، فكل شعري ذاتي وإذا كانت الذاتية ذنباً فإني «أشهد الله أن ذنبي عظيم». لكن شعري، في الوقت نفسه، واقعي. لا تجد قصيدة واحدة غير نابعة من تفاعلي مع الواقع وناسه. كل شعري محوره البشر، وهذا في رأيي الخاص، تعريف الواقعية. أما النظرة الماركسية التي قنّنت الأدب وفرضت عليه أن يعبر عن معاناة الطبقة الكادحة فحسب فإنها تنطوي على تحجيم للواقعية وتضييق لمفهومها دون مُبرّر، هذه النظرية ماتت ولا يوجد ما يبرر الحديث عنها.

قبل عشرين سنة كان الرأي الذي أقوله لك ثورياً. أما اليوم فلم يعد أحد يقول بالنظرية القديمة حتى بقايا الماركسيين. الواقعية، بمعنى وصف البؤس الإجتماعي فقط، مفهوم تجاوزه الزمن.

وماذا عن الشعر في القرن العشرين ؟

■ هل للشعر مكان في القرن العشرين؟ هذا السؤال طرحته في إحدى محاضراتك وكان تعميقاً لحوار بنفس الموضوع مع الأستاذ محمد العلي على صفحات جريدة اليوم في عام ١٩٧٤م، والآن ونحن نوشك أن نفرغ من القرن العشرين وأدبياته، فهل يا ترى سيقبل القرن الحادي والعشرون مثل هذا السؤال أم أنه سيقبل موت الشاعر وانقراض زمن الشعر؟

-النص الجديد-

❖ انتهيت في محاضرتي التي أشرت إليها، أن للشعر بلا أدنى شك، مكاناً في القرن العشرين ولكنه يختلف عن المكان الذي كان له في عصور ازدهار الشعر، وأعظم عصور إزدهاره، في رأيي المتواضع هو العصر الجاهلي. كانت تلك هي الأيام التي استطاع فيها الشعر تزويج العوانس، ورفع القبيلة المغمورة، وإذكاء نار الحرب، ومكافأة صانعي السلام. لم تكن القضية، في حقيقة الأمر، الشعر، كانت دور الشعر. كان الشعر معنا منذ بدأت الحضارة وسيبقى معنا ما دامت الحضارة. ولا خوف من انقراض الشعر، أو موت الشعراء، في القرن المقبل، أو ما يليه من قرون. ليس هذا هو السؤال. السؤال هو الحيّز الذي يشغله الشعر في العقول والقلوب. هذا الحيّز يتعرّض لهجوم ضار من منافسين شرسين لهم أنياب أطول وأضراس أقوى. وهؤلاء المنافسين معروفون: كرة القدم، والصحافة، والسينما، والتليفزيون الأرضي والقمري والكمبيوتر بكل ما يفتحه من مجالات مذهلة.

لقد عاش الشعر أزهى أيامه في زمان الكلمة المسموعة واستطاع أن يحافظ على بقائه وحيويته أيام الكلمة المقروءة. ونحن نعيش زمان الكلمة المرئية / المسموعة. إلا أن الشعر لا يزال مرتبطاً بحبل سري بالحقبتين السابقتين: ما من وسيلة للحصول على الشعر سوى شراء الدواوين أو حضور الأمسيات الشعرية. أرى أن على الشعر، أعني على الشعراء أن يساعدوا عاشق الشعر على الإحتفاظ بعشقه في هذا العصر الإلكتروني. ولا سبيل إلى ذلك سوى أن يتحرّر الشعر من أسر الدواوين والأمسيات الشعرية ويتسلل إلى منافذ الحقبة

الإلكترونية: الشريط بكل أنواعه، الإذاعي والسينمائي والتليفزيوني، وبرامج الكومبيوتر، وبقية الوسائل التي أصبحت في متناول أيدينا. لقد تمكنت أغان رديئة، كلمات وصوتاً ولحناً، من الإنتشار عن طريق «الفيديو كلِبْ». لماذا لا يكون للشعر «فيديو كلِبْ».

إنني أفكر، جدياً، أن يكون ديواني القادم على هيئة شريط مسموع/مرئي، لا يصورني وحدي كما هو الشأن في الأمسيات الشعرية المتلفزة، ولكنه ينقل الصوت مصحوباً بالمناظر المناسبة، والموسيقى الملائمة. لا أزال في انتظار ناشر شجاع!.

عفواً ! متى ستتفرغ للأدب ؟!

■ لديَ انطباع قديم ما زال يتعزز ويتجدد باستمرار مفاده أنك تملك طاقة ابداعية لم تستثمر بعد، بشكل حقيقي أو كما ينبغي، فهل راودك حلم التفرَغ للكتابة الأدبية، أم أنك لا ترتاح إلا وأنت في عيون العواصف والعواصم؟

الدكتور معجب الزهراني

❖❖ كثيراً ما تُحّمل مسالة التفرغ أكثر ما تحتمل. والموهبة الأدبية ليست «دواماً» من الثامنة إلى الثانية يمكن أن يتعارض مع الدوام الرسمي. كثير من الذين تفرغوا للعمل الأدبي لم ينتجوا شيئاً يذكر بعد تفرغهم. وكثير من الانتاج الأدبي الرائع كان من صنع أدباء غير متفرغين. يكفي أن نأخذ من تاريخنا العربي الحديث طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ، الذين لم يتفرغ أحد منهم للأدب، حسب علمي المحدود.

بقي أن أستدرك فأضيف أن هناك أعمالاً فكرية من نوع معيّن تحتاج إلى جهد طويل مثابر يصعب تحقيقة، والمرأ مرتبط بعمل يتطلب بدروه الكثير من الجهد. لا أتصور عملاً يحتاج إعداده إلى الرجوع إلى آلاف المصادر يكتب وصاحبه مرتبط بساعات عمل طويلة في الليل والنهار. على أن هذه الأعمال لا تكاد توجد في أدبنا العربي، للأسف الشديد.

على أية حال، حلم التقاعد -ولا أقول التفرغّ- يحوم دوما أمام جفوني. أنا الآن في منتصف الخمسينات وقد دنت ساعة التقاعد الطبيعي. سنرى إذ ذاك، إن كانت في العمر بقيّة، هل ستدور العجلة بسرعة أكبر، أم أنها ستصاب بالإعياء والفتور.

والمتنبي ! حدثنا عن المتنبي ؟!

■ ما الذي يمثّله المتنبّي بالنسبة إليك؟ وما هي الأدبيات التي تخطر على بالك سريعاً حين يرد اسمه ؟

بيار أبي صعب

❖❖ لم يقل المتنبي في الغزل سوى أبيات قليلة لا تكاد تذكر. وأعتقد أن سر عظمته هو أنه استطاع أن ينقل التجربة النفسية الشخصية بحيث تصبح سبراً لأغوار السلوك البشري، واستطاع أن يفعل هذا بطريقة فنية فذة. هذه القدرة على تحويل التجربة الشخصية إلى تجربة إنسانية شاملة هو ما نجح المتنبي في تحقيقه على نحو استعصى على أكثر الشعراء. كثير من الشعراء حاولوا التعبير عن مأسوية الحب ولكن من الذي توصل إلى مثل هذا البيت:

نصيبك في حياتكِ من حـــبيبٍ
نصيبك في منامك من خـــيـــالِ

اعتيادنا على الحياة يجعلنا نتخوّف من الموت، هذا موقف يعرفه الكثيرون ولكن أنظر كيف صوره المتنبي :

إلفُ هذا الهواءَ أوقع في الأنفس
أن الحِمامَ مرُّ المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجزٌ
والأسى لا يكون بعد الفراق

شعر المتنبي مليء بهذه الومضات التي تنقلنا من التجربة الذاتية إلى قانون عام للسلوك البشري. وأتصور أن مرور الزمن سيجعلنا نعي أهمية شعره أكثر فأكثر. سيجدنا نكتشف فيه ما يتمشّى مع آخر النظريات في علم النفس. يقول المتنبي :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدّق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته
وأصبح في ليلٍ من الشكِ مظلم

لا أدري كيف فهم معاصروه هذين البيتين. الآن أعرضها على أي طبيب وسوف يقول

لك إنهما تحتويان على تشخيص دقيق للبارانويا!

كما أن المتنبي أيضاً، عبّر، بشجاعة، عن الضعف البشري. ما أكثر الشعراء الذين عبروا عن القوة أما شاعرنا فتحدث عن مختلف مظاهر الضعف الإنساني. عبّر عن الطمع. اعترف أنه طماع:

أبا المسك ! هل في الكأس فضل أناله

فإني أغني منذ حين وتشرب ؟!

عبر عن كل التناقضات الإنسانية. عندما غضب قال شعراً غاضباً. عندما مدح كان يمدح صادقاً. وعندما هجا كان يهجو صادقاً.

والمتنبي كان أيضاً عاشقاً للسلطة ؟!

بيار أبي صعب

❖❖ نعم. وعبّر بصراحة عن هذا العشق. المتنبي تحلّى بكثير من الشجاعة في التعبير عن نوازع النفس البشرية. لو كان أمامنا شاعر من الدرجة الثانية لخجل من المجاهرة بكل تلك الأهواء. أما المتنبي فكشف عن مواطن ضعفه بدون حرج. والمتنبي في النهاية لم يعشق سوى نفسه.شعر المتنبي، في نهاية المطاف، ينطوي على عشق واحد هو عشق الذات. وهذا العشق هو الذي أعطانا شعراً كهذا :

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه

حريصاً عليها. مستهاماً بها .. صبًا

فحبُّ الجبان النفس أورده التقى

وحب الشجاع النفس أورده الحربا

وماذا عن الحب ؟!

■ ما هو تعريفك للحب ؟

هدى الرشيد

❖❖ الحبّ، في صورته المثلى هو أن تحبّ لإنسان آخر ما تحبه لنفسك، أو أكثر. وبالقدر الذي يقترب فيه الحب من هذه الصورة المثلى بقدر ما يكون صادقاً. لو وجدتُ مع

أربعة أشخاص في قارب وجاء من يخبرنا أنه لا بُدّ لواحد منا أن يلقي بنفسه في البحر لينجو الباقون وألقيت بنفسي كان معنى هذا أني أحب الآخرين في القارب.

■ **هل بالإمكان حدوث هذا الأمر ؟**

هدى الرشيد

❖❖ يمكن أن يحدث هذا، خصوصاً مع الأولاد. أما إذا بدأت برميهم في البحر فمن الصعب أن أقول إنى أحبهم. لاحظي أني أتحدث عن الحب لا عن الشهوة. الشهوة لها وضع آخر. وقد تكون لعبت دوراً في التاريخ يفوق دور الحب، ولكنها لا تعني الحب.

والتجدد ماذا عن التجديد ؟!

■ **المتابع لتجربتك الشعرية يلمس بدون عناء ملامح البدايات التي يطغى عليها طابع المباشرة والتقريرية وارتفاع رنين الخطاب ووعظيته وارتباط كل ذلك بالصبوات الأولى وحماس الشباب في علاقته العضوية بالهم العربي الشامل ثم يأتي ديوان «معركة بلا راية» لتدخل معه مرحلة أخرى برز فيها الهم الوطني والذاتي فيما خفت صوت المباشرة وخفت حضور الهم العربي واستمر هذا الخط واضحاً مروراً بـ «أنت الرياض» و «الحمى» وسواها من أشعار. وكما نعرف فإنك إلى جانب حسن القرشي ومحمد العلي تشكلون كوكبة رموز التجديد في مسار شعر التفعيلة - في بلادنا- ولكننا لا نلاحظ نقلات كبيرة في مسيرتك الشعرية سواء على صعيد اللغة أو الصورة الشعرية منذ «معركة بلا راية» وحتى اليوم، فهل أخذتك الهموم الوظيفية العملية من وظيفتك كشاعر يعني بتطوير حرفة الشعر والدخول بالقصيدة إلى أبواب المغامرة وأفق المجهول مثلما فعل رواد التفعيلة في البلدان العربية الأخرى الذين أصبحت صياغة الشعر لديهم هماً جمالياً إلى جانب اشتغالهم فيه على رسالته المعرفية ؟**

النص الجديد

❖❖ يقول سومرست موم، صادقاً، إن كل إنسان يعطي أفضل ما لديه طيلة الوقت، ولو كان لديه شيء أحسن لأعطاه. تنطبق هذه الملاحظة على الشعراء كما تنطبق على بقية البشر. أنا لا أؤمن بالتبريرات «ابني ذكي جداً ولو ذاكر قليلاً لكان الأول في فصله». «أنا تاجر عبقري ولكن الحظ يشاكسني كل مرّة». «لو تفرغت للشعر لأبكيت العجوز على شبابها». لقد أعطيت ما عندي، أفضل ما عندي. فاقد الشيء لا يعطيه، وإذا كنت أفتقد

القدرة على تجديد يتجاوز التجديد المحدود الذي تراه فيما نشرت من دواوين، فمن أين آتى بالمزيد؟ ليس للمشاغل دخل في الموضوع، القضية هي الموهبة. كنت ولا أزال أصنّف نفسي ضمن الشعراء الوسط. لا أقول هذا الكلام تواضعاً كاذباً أو صادقاً، ولكني أقوله لأني اراه حقيقة واضحة وضوح الشمس.

أضيف أني لا أعتبر نفسي مُحمّلاً بأعباء «رسالة» شعرية تتطلب مني هذا أو ذاك. ولا أعتقد أني «رائد» تفرض عليه الريادة ما تفرض من أعباء. أنا لم أختر أن أكون شاعراً، لقد ولدت بهذا «الفيروس». ولم يكن في حسابي قط، أن أكون مُجدداً أو مقلداً. لم يكن لدي في الماضي وليس لدي الآن أي «مشروع» شعري. تستطيع أن تعتبرني في هذه الناحية رجعياً إلى أبعد الحدود. كان الشاعر الجاهلي يلقي زمامه لشيطان الشعر، وأنا أترك عناني بأكمله لفيروس الشعر. تأتي القصيدة بالشكل التقليدي أو بشكل التفعيلة، على نحو عفوي يكاد يتركني في مقعد المتفرج.

أما ماذا عن المستقبل ؟

علم هذا عند ربي. قد أنضب بهدوء (وانا لا أنوي أن أنضب بضجّة كما يفعل البعض). وقد استمرّ في كتابة أشعار وسط يتجاذبها أكثر من شكل. وقد يولّد الفيروس بغتة، حمّى يدخلني بحرانها في مغامرات جديدة. لا أدري. ليس بيديّ سوى الإنتظار.

ناقد ومنقود

■ **إلى أي مدى تتأثر بالنقد الذي يتناول نتاجك ؟**

بيار أبي صعب

❖❖ هذه الحساسيّة تتناقص مع مرور السنين. عندما كنت في الخامسة عشرة كنت إذا سمعت نقداً لا أنام الليل. بمضيّ الوقت أصبح المدح يزعجني أكثر من القدح. عندما تصل إليَّ مقاله مليئة بالمدح أرميها وأفضل أن أقرأ النقد.

■ **وهل يأتيك النقد بشيء جديد ؟**

بيار أبي صعب

❖❖ لا أعتقد أن شاعراً تعلّم شيئاً من ناقد عبر التاريخ !

■ درج الشعراء على نوع من التقليل من قيمة النقّاد. إلى أي مدى نجد عندك هذا الميل؟ هل لديك انطباع أن الناقد ليس إلا شاعراً فاشلاً مثلاً ؟

بيار أبي صعب

❖❖ لا. ولكني أقول للنقاد : «لكم دينكم ولي دين». الناقد له مهمّة تختلف، تماماً، عن مهمة الشاعر. أنا وظيفتي أن أكتب شعراً. الناقد وظيفته أن يحلل هذا الشعر وأن يصنّفه، وأن يكتب عنه الدراسات والإطروحات الأكاديمية، وأن يدرسّه في الجامعة. أنا لا أنظر إلى الناقد نظرة فوقية ولا نظرة دونية. لا أحبّه ولا أكرهه. لا أحتقره ولا أمجّده. له مهمته ولي مهمتي. قلت قبل قليل إني لا أعتقد أن شاعراً تعلم شيئاً من ناقد والسبب أن الشعر عملية إبداعية معقدة. عندما تأتي وتقول لي هذه الكلمة وضعت في موضع غير مناسب فأنت تقوم بعملية نقدية عقلية لا علاقة لها بالعملية الإبداعية. عندما أخترت أنا الكلمة قمت بذلك لأسباب نفسية وشعورية لوجاء ألف ناقد وطالبوا بتغيير الكلمة لما أقنعوني !.

الوزير السفير.. ومناصب أخرى؟

■ تلعب أكثر من دور، فأنت الدبلوماسي / الشاعر / الأستاذ الجامعي / الوزير / والآن الروائي. أي الأدوار أقرب إلى نفسك، أو على الأقل تجد نفسك فيه أكثر ارتياحاً؟

د. أبو بكر أحمد باقادر

❖❖ لكل «دور» والكلمة لك، مذاق خاص. التدريس مهنة نبيلة ولعلها أنبل المهن على الإطلاق. والتدريس الجامعي وما يتيحه من مواجهة عقول شابة متعطشة إلى المعرفة، تجربة تحتلّ جزءا كبيراً من قلبي، كما احتلتّه من حياتي. اتيح لي من خلال العمل الوزاري أن أخدم الوطن كما لا يتاح لأي مواطن إلا من هذا الموقع. كانت تلك الفترة مليئة بالتحديات والإنجازات، وقدر لا يستهان به من العرق والدموع. الدبلوماسية مهنة هادئة مريحة بطبيعتها، وتترك المجال واسعاً أمام مخلوق مثلي يدمن القراءة والكتابة. تصعب المقارنة بين الأدوار فقد كان لكل دور مرحلة من حياتي لا يمكن أن تعود. يصعب عليّ، الآن أن أتصور نفسي أستاذاً جامعياً بقدر ما يصعب عليَّ أن أتصور نفسي وزيراً. بقيت الكتابة،

بأنواعها. هذه ليست دوراً، إنها قدري!.

هل تحدق في الفضاء؟!

■ **يغبطك -ولا نقول يحسدك- كثير من الناس على حدة نشاطك وفعاليتك، فهناك قصائد ومقالات ومناظرات وندوات ومقابلات إذاعية وتليفزيونية وصحفية إلى جانب عملك السياسي المشحون بالأعباء والإلتزامات. فهل للترتيب والتنظيم دخل في ذلك؟ أم أنها القدرة والموهبة؟**

الثقافية

❖❖ من الأقوال الشائعة، والصحيحة في علم الإدارة : «إذا اردت أن تنجز شيئاً فكلف به رجلاً مشغولاً!» خلال ساعة واحدة من الزمن، تستطيع أن تكتب عشرين رسالة، أو أن تقرأ خمسين صفحة، أو أن ترد على عشر مكالمات هاتفية،أو أن تستقبل أربعة زوارّ. وتستطيع أن تجلس محدّقاً في الفضاء تشكو عسر الهضم أو قلة النوم أو أنخفاض أسعار العملة. أريد أن أقول إني لا أقضي ساعة واحدة من ساعات الصحو أحدّق في الفضاء أو أشكو. هذه مجرد عادة وسمّها ما شئت!.

وما أدراك ما صيد السمك ؟!

■ **يقال إن صيد السمك يعلّم الصبر.**

هدى الرشيد

❖❖ هذه أسطورة. الكثير من الصيادين، وأنا منهم، إن لم يجدوا سمكة في موقع معين انتقلوا إلى غيره. إلا أن هواية صيد السمك كباقي الهوايات، تعيد الإنسان إلى الرؤية السويّة. الإنسان عندما يكون في منصب له مسؤوليات ضخمة قد يبدأ في الشعور بأهميته ولكنه عندما يذهب لاصطياد السمك يرى أن هذا المنصب لا يهم : ما يهم الآن هو أن تصطاد سمكة واحدة! ليت صدام حسين كانت له هواية. هتلر وستالين، وبقية طغاة التاريخ الذين دمروا البشرية، لم تكن لهم هواية غير السلطة. لو أن الواحد منهم ذهب وقضى خمس أو ست ساعات محاولاً أن يصطاد السمك وفشل في اصطياد سمكة واحدة لقال: «يارب! على أهميتي لم استطع أن اصطاد سمكة»، ولأخذ صورة أكثر واقعية عن نفسه وحدودها. هذا دور الهوايات : عندما تلعب تنس الطاولة، مثلاً، ويغلبك ابنك الصغير

تضعك الهواية في حجمك الطبيعي.وصيد السمك كباقي الهوايات، له ميزة وهي أنه يأخذك إلى عالم أكثر براءة وطفولة بحيث تأخذ الحياة بعداً أكثر إنسانية.

يبدأونني .. ولا أسكت !

■ يقال إنك لا تهادن وتنزل ساحة المصادمة بلا تردد فما تعليقك ؟ وهل مرجع ذلك الحساسية النقدية أم الدفاع عن المبدأ ؟

الثقافية

❖❖ لا أذكر أنني دخلت معركة شخصية واحدة في حياتي لا باليد ولا باللسان ولا بالقلم. وكل «المصادمات» كما تقول، كانت تتم ضمن إطار أكبر، ضمن قضية ما. فيما يخصّ الحساسية النقدية،أعتقد أن نصيبي منها أقلّ من المعدل بكثير. باستثناء مداعبتي الشهيرة لأبي عبدالرحمن الظاهري لم أرّد قطّ على نقد مُوجّه إلى إنتاجي.

من حديث الشعر والنثر !

■ «الهارب من الشعر» هذه صفة أطلقها عليك الدكتور عبدالله الغذامي بمناسبة صدور «شقة الحرية» هل ترى نفسك مُلاحقاً من القصيدة، وهل ترى أن الرواية والخطاب السردي هي بالنسبة لك محاولة للخلاص من الذات أولا، ومن الشعر ثانياً؟ وهل لجأت إلى الخطاب السردي لإحساسك يعجز الخطاب الشعري عن نقل ذاتك ورسائلك ؟

النص الجديد

❖❖ «الهارب من الشعر» تعبير جميل ولكنه لا يخلو من مبالغة نقدية أغفرها للدكتور عبدالله الغذامي كما يغفر النقاد للشعراء شطحاتهم الغرائبية. لا أعتقد أنني أحاول الهروب من الشعر، وإن تم هذا بالفعل فقد تمَّ بمعزل عن العقل الواعي (ومن الذي يستطيع أن يخمّن ما يدور في أحراش اللاشعور؟).سبق أن قلت إني ولدت بفيروس الشعر، ومسكن هذا المحترم شأنه شأن بقية الفيروسات في الدماء. و «أين يمضي هارب من دمه؟» كما يقول شاعر «الأطلال» لقد تقبلّت حقيقة كوني شاعراً بكل بساطة، كما تقبلّت حقيقة كوني ولدت بعيون من لون مُعيّن تحتاج إلى نظارة طبيّة سميكة. لم يكن هناك فرح عارم، ولم تكن هناك حرقة مضنية. قدري هو أن أكون شاعراً، وهذا كل ما هناك !.

إلا أنه لا يوجد قانون يمنع الشاعر من كتابة النثر. ولعي بالنثر بدأ قبل أن أكتب

الشعر. ولم أكن قط مستعداً أن ألجم نوازع الكتابة النثرية تفرغاً للشعر. حقيقة الأمر أني لا أدري كيف يمكن أن «يتفرّغ» إنسان للشعر. أستطيع أن أستقيل من كل الوظائف، وأقسم ألا أكتب حرفاً واحداً من النثر، وأركز كل طاقاتي على الشعر، ولكن هل سينتج هذا «التفرغ» شيئاً جديراً بالقراءة، فضلاً عن البقاء؟.

يستطيع الشاعر أن يكتب نثراً، ولكني أشك أنه يستطيع التحرّر من الشعر. والأمر نفسه يصدق على الذات. لا يمكن للشاعر -ولا لغير الشاعر- أن يهرب من الذات. حتى في أوج المدّ الواقعي الإشتراكي كنت دوماً أصر على أن الأدب الحقيقي لا بُد أن يكون أدباً ذاتياً، وأن تعبير «الفن للحياة» حق أريد به باطل،لم يكن هذا الموقف يروق لكهنوت الثقافة وقتها، ولقيت بسببه من العنت ما لقيت. أما الآن فقد أصبح الجميع ذاتيين! ذاتي موجودة في كل ما أكتب شعراً ومقالاً ورواية (ومقابلة أدبية!).

لم تكن المسألة «عجز» الشعر عن تقل رسائلي. صدّق أو لا تصدّق، أنا لا أتحدث مع زوجتي وأولادي وأصدقائي وزملائي في المكتب شعراً. لدي وسائل اتصال أخرى عديدة ليس الشعر سوى واحد منها.

التجربة التي حاولت معالجتها في «شقة الحرية» هي تجربة جيل كامل من الشباب العربي في مرحلة تاريخية عاصفة، ولا يمكن لتجربة كهذه أن تعالج شعرياً (إلا بموهبة شكسبيرية لا تتوفر لدى شخصي الضعيف) باختصار كانت طبيعة الموضوع تتطلب فناً آخر غير الشعر.

بين القصة .. والرواية .. والقصيدة

■ وفي رأيك ما الذي يجعل الخطاب الروائي أقدر على العتبير بين الشروط والوضعيات التاريخية الجديدة في العالم العربي، والمملكة والخليج تحديداً؟

النص الجديد

❖❖ من حيث المبدأ، أنا لا أؤمن أن هناك ما يجعل أي نوع من أنواع التعبير الفنّي أفضل من سواه، لا الشعر، ولا الرواية، ولا القصة القصيرة، ولا أيّ «نص» آخر، والكلام الذي يدور حالياً، عن بداية «حقبة الرواية» كلام لا أفهمه، كانت الرواية موجودة قبل هذه الحقبة وستبقى بعدها. أنني أرى أن الأدب العربي عرف الرواية قبل أن تعرفها معظم

الآداب الأخرى -وبالتأكيد قبل الأدب الإنجليزي والفرنسي والألماني في أعمال مثل «**سيف بن ذي يزن**» و «**مغامرات عنتر**» و «**تغريبة بني هلال**» كما عرف أول مجموعة قصصية رائعة في التاريخ مع «ألف ليلة وليلة».

بعد ذلك أقول إنني لا أرى أن الرواية أقدر على التعبير عن «الشروط والوضعيات التاريخية الجديدة» من غيرها. الأمر يعتمد على زاوية المعالجة. فلنتصوّر «هذه الشروط والوضعيات» مشهداً طبيعياً بانورامياً يحاول الرسام أن ينقله على الورق. باستطاعته أن يختار فرشاة كبيرة ويختار من المشهد ملامحه الرئيسية وحدها (كما يفعل الشاعر). وباستطاعته أن يختار ركنا صغيراً من المشهد يركزّ على بعض تفاصيله، وفي هذه الحالة سيختار فرشاة متوسطة (كما يفعل كاتب القصة القصيرة). ولا بُدّ له إذا اراد أن ينقل المشهد بأكمله وبتفاصيله الجزئية الدقيقة من أن يستعين بفرشاة صغيرة (كما يفعل الروائي).

إذا كنا نريد للفن أن يعكس لنا الحياة بكل صخبها وعنفوانها وحيويتها، فلن نستغني عن أيّ من الأدوات الفنية المتاحة، الآن أو مستقبلاً.

تأثر فهو متأثر !

■ ما هو أكثر شيء ترك أثراً في حياتك ؟

حسن لقيس

❖❖ لا يوجد «شيء» مُحدّد ترك أثراً واضحاً في حياتي. هناك المئات من الأشياء التي تركت بصماتها على حياتي. خذ بعض الأمثلة : كوني ولدت في فترة مُعينة في بيئة مُعيّنة، كوني كنت أصغر اخواني وأخواتي، كون أمي توفيت قبل أن أبلغ السنة الأولى من عمري، كوني قضيت السنوات الأولى من حياتي في حالة انطواء ومن دون أتراب أو أصحاب، كوني حصلت على فرص تعليمية ووظيفية لم تتوفر، وقتها، لمعظم الناس، كوني استطعت أن أتعرف وجهاً لوجه، على عدة حضارات وأن أحتك بعدد من الشعوب، كوني لقيتُ من مشاعر المحبّة فيضاناً لا يعادله إلا طوفان المشاعر «الأخرى» التي لقيتها، كوني أحببت وبقيت مع بعض من أحببت، وفارقت بعض من أحببت، كوني حظيت بقدر من النجاح كما حظيت بقدر من الفشل، كوني شهدت ميلاد الحب كما شهدت وفاة الأحباء، كوني شهقت مع روعة الشروق وتنهدت مع دموع الشفق، كوني عرفت الإنسان عن كثب ضاحكاً كما عرفته باكياً،

عرفته يائساً كما عرفته سعيداً. لاأظن أن صفحات «الحياة» الجريدة ستتسّع لكل مؤثرات الحياة التي عشتها.

ضرب زيد عمرا !

■ هل أنتم راضون عن وضع اللغةالعربية؟ هناك شكوى مستمرة من قواعد اللغة العربية، وهناك ضعف شامل في هذا المجال.

المسلمون

❖❖ عندما أقرأ كتاباً مثل «**فقه اللغة**» للثعالبي وأرى عشرات المصطلحات الدقيقة في كل موضوع تحدثّ عنه أسلافنا وأرى فقر لغتنا اليوم أكاد أشرق بالدموع. عندما قرّر الصهاينة إنشاء دولةٍ لهم كانت اللغة العبرية لغة ميّتة فبعثوها بعثاً من المعاجم واستخدموا مفرداتها حتى أصبحت لغة حيّة، أما نحن فقد ورثنا أعظم اللغات حياة فبذلنا أعظم الجهد لقتلها. هل من المعقول أن يتخرج طالب من الجامعة دون أن يفتح المعجم مرة واحدة؟ أنا أعرف أناساً حصلوا على درجة الدكتوراة في الآداب دون أن يكون في بيوتهمَ معجم واحد. الخطوة الأولى نحو الإصلاح هي أن نضع في يد كل طالب قاموساً يبدأ صغيراً مع المرحلة الإبتدائية ويتدرج مع تقدّم الطالب، وأن نخصص ضمن مواد اللغة العربية مادة للمعجم حتى يكتشف كل طالب غنى لغته المذهل.

الخطوة الثانية هي طريقة تدريس القواعد لا أقول القواعد نفسها. نحن ندرس المهمّ مع غير المهم فتشتبه الأمور ويختلط الحابل بالنابل. لقد وجدت من تجربتي الشخصية أن بوسع المرأ أن يكتب بلغة صحيحة إذا أتقن عدداً محدوداً من قواعد اللغة العربية. الفاعل والمفعول، المبتدأ والخبر، إن وكان وأخواتهما، الجار والمجرور. هذه القواعد تكفي لأن أكتب كتابة صحيحة ٩٠٪. ماذا نفعل الآن في تدريس القواعد؟ ندرس المفعول معه والمفعول من أجله و«حتى» التي مات جدنا اللغوي العظيم وفي نفسه شيء منها، فيضيع الطالب بين الأصول والفروع. لو كنت المسؤول عن تدريس القواعد لأكتفيت بالأبواب الرئيسية وخصصت سنة كاملة للمبتدأ والخبر، وسنة أخرى للجار والمجرور، وسنة ثالثة للفاعل والمفعول. وهكذا. إفعلْ ذلك وأنا أضمن لك أنك لن تجد من خريجي الجامعة -كما تجد اليوم- من يكتب «انقسم الناس إلى فئتان» أو «جاء الرجال المسلحين». حبذا لو جربّتَ

مدرسة واحدة، مدرسة واحدة فقط، هذه الطريقة، أنا على يقين أن النتائج سوف تكون رائعة. هذا لا يعني بطبيعة الحال إهمال بقية القواعد. كل ما يعنيه هو تحويل دراستها من «فرض عين» واجب على الجميع إلى «فرض كفاية» للمتخصصين في اللغة العربية.

معالي الوزير .. وسعادة السفير !

■ ما هو الفارق بين الوزارة والسفارة ؟

حسن لقيس

❖❖ الوزارة تعني وجود الشخص على قمة هرم إداري يضم الآلاف من البشر وتتطلب من شاغلها في الدرجة الأولى، موهبة القيادة الإدارية التي تستطيع التخطيط والتنظيم والتنفيذ على النحو الذي يخدم أهداف الجهاز. أما السفارة فالمهارة المطلوبة فيها ليس القيادة الإدارية (لا يوجد في أي سفارة آلاف البشر الذين يحتاجون إلى قائد إداري محنك) بقدر ما هي فن التعامل مع الآخرين بهدف شرح سياسة الدولة التي يمثلها السفير بطريقة لبقة وهادئة ونقل وجهات نظر الدولة المضيفة بالطريقة نفسها. والواضح في ضوء ما تقدّم أن الوزير الناجح لن يكون بالضرورة سفيراً ناجحاً، والعكس بالعكس. وإن وُفقّ شخص في الموقعين كان ذلك مصادفة من مصادفات القدر السارة.

المناخ .. وسلطة المناخ !

■ أنت في مركز الضوء لفترة طويلة كأكاديمي وشاعر وسياسي. فهل لهذه الوظائف سلطة عليك وأنت تكتب القصيدة؟ وكيف تريد من الناس أن يقرأوك (بمعنى هل يستحضرون أحد هذه الوظائف لتتم قراءة نصك في ضوئها؟).

النص الجديد

❖❖ عندما سُئل الشاعر الأفريقي الكبير سنجور هل تغيرت طريقته في كتابة الشعر بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية أجاب: «اصبحت أكثر حذراً». وأحسب أن هذه النزعة تسري على كل أديب يتولى وظيفة عامة. ولكن السلطة الأكبر التي تقيّد الأديب ليست سلطة الوظيفة. ففقدان الوظيفة ليس نهاية العالم، ولا حتى نهاية التاريخ. السلطة الأكبر هي سلطة المناخ الذي يتلّقى الإنتاج. هذا المناخ يتغيّر من بلد إلى بلد، ومن منطقة إلى منطقة في نفس البلد، ومن حقبة زمنية إلى حقبة زمنية، وقد يتغير من سنة إلى سنة. لا أعتقد أن كاتباً

يستطيع أن يكتب دون أن يحسب حساب المناخ. ولا يقتصر الأمر على الأديب أو الفنان. هل يستطيع الأميّ الذي لا يقرأ ولا يكتب أن يلبس أو يتكلّم أو يمارس الرياضة دون أن يحسب حساب المناخ، ورد فعله المحتمل؟ عندما كنت عميداً لكلية في الزمن السحيق كان الطلاب يشتكون من تأخير الحافلة واقترحت عليهم أن يأتوا إلى الكلية على دراجات. أحسب أن عدداً منهم، وقتها، شكوا في سلامة القوى العقلية لعميدهم. كيف ينظر المناخ إلى طلبة جامعيين على دراجات؟!

والإعتراف بوجود مناخ لا يعني الخضوع له. كل ما يعنيه هو أن يكون المرء مستعداً لدفع ثمن الخروج عليه،إذا عنَّ له الخروج. وهذا الثمن قد يكون رخيصاً، مجرد استنكار بذيء أو وشايات هزيلة، وقد يكون الحياة نفسها في المجتمعات الشمولية التي بدأت، بحمد الله تتناقص،ولا أقول تتلاشى.

بالنسبة لي، لا أذكر أنني كتبت بيتاً واحداً من الشعر، وإن كنت كتبتُ الكثير من النثر غير الأدبي، بحكم الوظيفة أو لاعتبارات تتعلق بالمنصب. ولا أود للقاريء عندما يقرأ شعري أن يستحضر أي صورة سوى صورة الإنسان الذي يشبهه تماماً. إن الإحساس بالجوع لا يفرق بين كبار الموظفين وصغارهم، ولا الإحساس بالظمأ أو الخوف أو الوحدة أو الحبّ.

وماذا عن العمر الضائع ؟

■ تخاف من العمر ؟

بيار أبي صعب

❖❖ أشعر بوطأته بشكل غريب ومَرضي. والأصدقاء الذين في سني من غير الشعراء يتضايقون من ذلك. يذكرونني أنني مثلهم ولكنهم يكبرون من غير شكوى. لماذا لا أسكت وأريحهم. شعوري بمرور الوقت يتجاوز شعور الإنسان العادي.

عفواً ! ماذا فعلت بحياتك ؟ كشف الحساب ؟

■ ما الذي تعتقد أنه أفضل شيء عملته حتى الآن ؟

حسن لقيس

❖❖ بالمعيار التعليمي، أفضل ما عملته هو التدريس في الجامعة قرابة عشر سنوات،

الأمر الذي مكنني أن أرى الآن من بين تلامذتي أساتذة في الجامعة ومسؤولين يخدمون الوطن من مواقع مختلفة.

وبالمعيار التنموي، أفضل ما عملته هو أنني ساهمت في العملية التنموية الشاملة التي شهدتها المملكة خلال العقدين الماضيين، وهي مساهمة لا تختلف كثيراً عن مساهمة أبناء جيلي الذين وجدوا في الموقع نفسه في الفترة ذاتها.

وبالمعيار الإجتماعي أفضل ما عملته هو المساهمة في عدد من النشاطات الخيرية.

وبالمعيار السياسي، أفضل ما عملته هو أنني كنت بعض الوقت، على مقربة من صنع القرار السياسي، ثم ساهمت في تنفيذه على النحو الذي يخدم مصلحة الوطن.

وأحسب أن التاريخ إن تذكرني فسوف يذكرني شاعراً فحسب !

على أن أفضل شيء يمكن للإنسان أن يعمله هو ما يراد به وجه الله وحده، الباقيات الصالحات، وبهذا المعيار وهو وحده المعيار الحقيقي، رصيدي الوحيد هو الأمل في رحمة الرحمن الرحيم.

«أزل حسد الحسّاد !»

■ **رواج الشاعر يخلق دائماً عداوات. هل لديك عداوات ؟**

بيار أبي صعب

❖❖ طيلة حياتي لم أحي أكثر من عشر أمسيات شعرية. ولم أشارك في منتدى أدبي أو شعري واحد، ولا أنوي المشاركة مستقبلاً. يكاد يكون أصدقائي من الشعراء معدومين. عندما كنت طالباً وكان الرفاق يقولون : «أنظر هذا الشاعر الكبير فلان» أقول : «حسناً! وماذا تريدون أن أفعل؟». ليس عندي، إذن، في الوسط الشعري عداوات ولا صداقات. ولم ألاحظ أن هناك أحقاداً جلبها رواج شعري. هناك عداوات تأتي من مواقف معينة يقفها الإنسان، ويعبر عنها نثراً أو شعراً، ولكن هذا موضوع آخر لا علاقة له بالغيرة. هل هناك أشخاص يغيرون مني وأنا لا أعرفهم؟ المؤكد هو أنني لا أغار. من أصل خمسة بليون إنسان، لماذا لا يكون هناك عشرة آلاف شاعر؟ أو ضعف هذا العدد؟

أنا أقيّم نفسي بكل موضوعية. لستُ شاعراً كبيراً، ولا شاعراً من الدرجة الأولى. وإدراكي هذا أراحني كثيراً. عندما يحاول البعض مقارنتي بنزار قباني أنتفض وأرفض رفضاً قاطعاً. نزار أشعر مني بكثير. لا توجد عندي مشكلة مع نزار ولا أجد داعياً للمقارنة.

عندما يأتي أحد ويقول : «أنت والسياب» أوقفه عند حدّه، فالمقارنة حرام. السياب أشعر مني بكثير. أنا إنسان يدرك أن لديه موهبة شعرية متواضعة. لا أعتبر نفسي مثل عمر أبو ريشة ولا مثل السياب ولا مثل الجواهري ولا مثل نزار قباني ولا مثل أمل دنقل. أعتبر نفسي في مستوى يقل عنهم كثيراً. لا أرى ما يبرّر الغيرة أو الحسد. ربّما لو كنت اعتبر نفسي نداً لحصل شيء من هذا. صدقّني! أنا أتكلم بصدق، بعيداً عن التظاهر بالتواضع. الذين يتمتعون بموهبة من الدرجة الثالثة قد ينظرون نحوي بشيء من الغيرة. هذا جائز. أما أنا فأقف خارج هذه الدائرة. عندما أقع على شاعر لديه نفس موهبتي، أقول له «أهلاً وسهلاً» وإذا كانت موهبته تفوق موهبتي، فليس عندي أي مشكلة في الإعتراف بهذه الحقيقة.

قصائد

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة

فلا أشتكي فيها ... ولا أتعتب ؟

المتنبي

قطرة من مطر

كقطرةٍ من مطرِ
تحدّري .. تحدّري

استرسلي ناعمةً
شهيّةً كالخَدَرِ

وأشعريني أنني
الطفل الذي لم يكبُرِ

يغفو على صدرك ..
نوْمَ اللحن فوق المزهرِ

وضمدّي الجرح الذي
عدت به من سَفَري

كقطرةٍ من مطرِ
تغلغلي في ضجري

في قلقي .. في حُرَقي
في كدري .. في سَهَري

في قلبيَ الذي استحال
قطعةً من حجرِ

تغلغلي .. تغلغلي
وغسلّي .. وطهّري

رديّ إليّ نفحة
من الشباب العَطِرِ

من الطموح .. والجموح ..
والجنوح الخَطِرِ

* *

كقطرةٍ من مطرٍ
إنهمري .. إنهمري

وفي الدماء سافري
وفي العيون أبحري

وفي الضمير خيّمي
ومرتقي .. وفجري

علّ الضمير يستفيق
في الشذا المُدمرِ

* *

يا أنتِ ! يا غزالةً
مصنوعةً مِن خَفرِ

فاتنةً .. كوردةٍ
حاضرةً .. كعنبرِ

أمرةً .. كهمسةٍ
ناهيةً .. كخنجرِ

مثيرةً كموعدٍ
مُغريةً كسُكَّرِ

يا أنت ! من ألقاك في

الدرب وألقى عمري

صبية مشغوفة

بكحلها المُندثر

* *

كقطرة من مطر

تسلقي .. تسوّري

وطالعي تمزّقي

وشاهدي تحيُّري

تأملي العذاب

كالضباب في تفكرّي

ومزّقي القناع عن

زيفي .. وعن تنكرّي

أضحكُ للناس وفي

روحي دموع الأعصُر

وأدعيْ الفرحة .. والحزنُ

سميرُ سمري

تصوّري .. هذا الخداع

كله .. تصوّري

* *

الأربعونَ أقلعت

كزورق مُنكسرِ

وهـذه الخمسـون تـدنـو
كـــالخريـــف الحَذرِ

قـولي لـهـا : «تَـمـهّـلـي !
بـبـابـهِ .. وانـتـظري !»

قـولي لـهـا : «لـديـه
-بـعـدُ- كُـتبٌ لم تـنشـرِ

قصـائـدٌ مـا نُـظـمـتْ
عـن جُـزرٍ لَـم تُـعبرِ

وقـصـصٌ مـا كُـتـبـتْ
عـن الحيـارى الـبشـرِ

ومـوعـدٌ .. لَـمـا يَـحـنْ
مـع الـريـاح الأخــرِ»

من ديوان
ورود على ضفائر سناء
١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

حكاية مهر الرياح

-كتبت لصغار فلسطين-

كان اسمه مُهرَ الرياحْ

كان وسيما أبيضاً

ومشرباً بزرقةٍ

كأولِ الصباحْ

وكان شعر عُرفهِ

غاباً من الرماحْ

وكان في صهيله

تمردٌ .. ونشوةٌ شهيّةْ

تثير في الصدور شهوة الكفاحْ

وكان يجري .. لا تكاد العينُ أن تراهْ

الله ! ما أحلاه !

الله ! ما احلاه !

* *

من أين جاءَ ؟

هل ولدته ذات فجرٍ ..

غيمةٌ بيضاءْ

أم أنجبته في الربيع نخلةٌ خضراءْ

أم أن أقصى القمم الشمّاءْ

في ليلةٍ ..رائعةٍ .. قمراءْ

تمخضت عنه .. فجاء .. ذاب

كالضياء في الضياءْ

وسَحَر العيون .. والظنون .. والأهواءْ ؟

* *

كان اسمه مهر الرياحْ

كان عنيفاً جامح الجماحْ

ويعشق الحريّة

كأنه براءةُ الوحشيّةْ

كم حاول الفرسانْ

أن يجعلوه تحتهم مطيّةْ

لكنه

في موجةٍ عارمةٍ من الصهيلْ

كان يفرُّ مثل إعصارٍ جميلْ

ويترك الأحجار .. والتراب .. والغبارْ

في أوجهِ الفرسانْ

ويضحكُ الصغارْ

* *

كان اسمه مهر الرياحْ

كان الشيوخ يعشقون وجهه النبيلْ

كان الصغار يطربون

حين يزأر الصهيلْ

وكانت النساء واقعات -كلّهنّ !-

في هواهْ

الله ! ما أحلاه !

الله ! ما احلاه !

* *

لكنما الفرسان في القبيلةْ

تجمعوا في ليلةٍ سوداءْ

كلٌّ لديه قصةٌ ذليلةْ

«ما اهتم بي !

تركني .. وراح !»

«صفعني بقبضة الغُبارْ !

أفزعني ! اسقطني !

أما رأيتم هذه الجراحْ ؟»

ثم تمطّى فارسُ الفرسان

وقال: «يا بني فُلانْ!

لا بُدَّ من تدجينِه

لا بُدّ من حماية النساء من جنونه

لا بُدَّ أن يُذبَح .. كي نرتاح».

* *

وفي الظلام حفروا الأخدودْ

ونثروا من فوقه الأعشاب .. والورودْ

وضحكوا

حين أتى منحدراً

صهيله يقصف كالرعُودْ

وضحكوا .. وضحكوا

إذ غاصتِ الأرضُ به

وضمّه الأخدودْ

صهيله يقصف كالرعودْ

* *

وفي الصباح .. أقبل الفُرسانْ

كلّ يجرُّ سيفه الصقيلْ

«آن الأوان .. أيها المغرورْ!»

في لحظة .. سوف تكون كالحمارِ ..

أو أذلّ يا ذليلْ!»

وضحك الفرسانْ

وناحتِ النساءْ

وانفجر الصغار في البكاءْ

* *

كان اسمه مهر الرياحْ

وكان في غيابة الأخدودْ

صهيله يقصف كالرعودْ

وفجأة ...

تطاير الشرارْ

وانقلب النهارْ

وارتفعت من باطن الأخدود غينتانْ

عليهما .. مهر الرياحْ

ونفض الفرسان عن وجوههم

ذلَّ الغبارْ

زغردت النساءْ

وضحك الصغارْ

وانفجر الفرسان في البكاءْ

*** ***

كان اسمه مهر الرياحْ

وكان في صهيله

تمردٌ .. ونشوةٌ شهيّةْ

تثير في الصدور شهوة الكفاحْ

من ديوان
ورود على ضفائر سناء
١٤٠٦ / ١٩٨٦م

عقد من الحجارة

خبرونا -بالله!- من أين جئتم
أمن الورد ؟ أم من الصبّره ؟
من شموخ النخيل ؟ أم من هديل
القمح ؟ أم من هواجس المحّارة ؟
من شذى البرتقال ؟ أم من كروم
الفجر ؟ أم من عنادل البيّارة ؟
هكذا تصبح الحجارة سيفا
عندما تصبح السيوف .. حجارة
وإذا العار صار عارا مرارا
غسل العار في المنيّة عارة
وإذا ما غدا الكبار صغاراً
أرسل المجد في الطريق صغارة

* *

أصغار ؟! من قال أنتم صغار ؟!
في يديكم رأى العدوّ صغارة
والعماليق حين لحتم بقايا
من بقايا أسطورة منهارة
أصغار ؟! من قال أنتم صغار
وحصاكم يهزّ قلب الحضارة

* *

مرحبا ! مرحبا ! تعالوا ! تعالوا !
قد فرشنا ضلوعنا للزيارة
إمرحوا في جفوننا كالأماني
وارتعوا في دمائنا كالطهارة
مرحبا ! مرحبا ! تعالوا ! تعالوا !
واهطلوا في هوائنا .. كالبكارة
علمونا الفداء .. إنا نسينا

روعة الفجر في ظلام المغارة

علمونا الفداء .. إنا نسينا

رعشة الكبر وهو يلبس غارة

* *

لا تقولوا : «وأين يا قومُ أنتم ؟!»

فلقد تقنع اللبيبَ .. الإشارة

نحن عشرون جارةً .. قد علمتم

أعلمتم همومَ عشرين جارة ؟

جارةٌ تغلق الحدود من العشق ..

وأخرى بالعشق تعلنُ غارة

جارةٌ شفّها الحنينُ .. فأضحتْ

تشتهي ضمّ اختها .. بحرارة !

قد تلونا كتاب ربّي .. ولكنْ

هل فهمنا من الكتاب عبارة ؟

قال ربي «توحّدوا!» فافترقنا

وأردنا إفتراقنا .. بمهارة

قال ربي «تجمّعوا» .. فاقتتلنا

وسألنا : «لمن تكون الصدارة ؟»

* *

قتلوه .. «أبا الجهاد» .. ظلاما

كلُّ ما يفعل الحقير .. حقارة

تركوه منضّرا بدماه

مثلما يغسل الندى نوارة

خسئوا ! لا يموت منا شهيدٌ

عشق الموت صاحباً .. فاستزارة

خسئوا ! لا يموت منا شهيدٌ

في صميم الرماد تحيا الشرارة

* *

مرحباً ! مرحباً ! تعالوا ! تعالوا !

واسطعوا كالكواكب السيّارهْ

أنتم الشعرُ! يصبح الدهر شيخاً

وقوافيه في المدى هدارهْ

من ديوان
عقد من الحجارة
١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

أطفلة الأمس هذي ؟!

العمرُ أنتِ .. وريّاه .. ورونقهُ
وأنتِ أطهر ما فيه .. وأصدقهُ
يارا ؟ أم الحلمُ في روحي يهدهدها ؟
يارا ؟ أم اللحن في قلبي يموسقهُ ؟
أمِنْ عيونك هذا الفجرُ مشرقهُ ؟
أفديه فجراً يظلّ الفجر يعشقهُ
أطفلة الأمس هذي ؟! أين دُميتها ؟
وأين مَهدٌ أبات الليل أرمقهُ ؟
أين الحصانُ الذي كان تُلقّبه
«بابا» .. تكبّلُه حيناً وتُعتِقهُ ؟
وأين كومة أشيائي .. تبعثرها ؟
وأين دفتر أشعاري .. تمزّقه ؟
وأين في الرمل بيت كنت أصنعهُ
لها فتسكنُ فيه .. ثم تسحقهُ ؟
وأين راحت أساطيرُ ألفّقها
في عالم من خيالاتٍ أنمّقهُ ؟
تُصغي إليها قُبيلَ النوم في زمن
تتلو على أمّها سحراً .. وتسرقهُ
تِسعٌ وعشرٌ -رعالك الله !- كيف جرى
بنا الزمان .. يكاد البرق يلحقهُ ؟
أطفلة الأمس هذي ؟! أين لثغتها
تصيرُ الحرف عيداً حين تنطقهُ ؟
وأين قفزتها إن عدت من سَفَرِ
تهوى على عنقي .. عقداً يطوّقهُ ؟
ياوردة القلب ! حيّتك الورودُ .. وما
للورد نفخُ عبيرٍ منك أنشقهُ
تمازج الورد في دمعي .. فيا الأبِ
يلقاك بالدمع .. والأفراح تخنقهُ

من ديوان
عقد من الحجارة
١٤١٠هـ / ١٩٩٠م

المباراة

في ذكرى الشهيد فهد الأحمد الصباح

لم تكنْ تلك المباراةَ ..

مباراةَ شرفْ

لم يكنْ فيها فريقان .. وجمهورْ ..

وحبٌ .. وحكَمْ

كانت اللعبةُ سكّيناً

وجزّاراً من العار ارتشفْ

وتهادى مثل طاووسٍ

على طفلٍ نَزَفْ

كانت اللعبةُ يا فهدُ ..

اغتصاباً للقيَمْ

لعبةٌ يا فهدُ لم يسمعْ بها

عربٌ .. من قبل هذا .. أو عَجَمْ

لم يصفّرْ أحدٌ قبل ابتداء اللعب ..

لم يعزفْ نشيدٌ للعَلَمْ

كانت اللعبةُ يا فهدُ ..

انتهاكا للذِمَمْ

* *

سكن الشاطيءُ .. والليلُ انتصفْ

وكويتُ الحبِّ .. حلمُ

نام في حضنِ نَغَمْ

حين هزّ الأفقَ طوفانُ حِمَمْ

بكتِ الطفلةُ .. والطفلُ ارتجفْ

كانت اللعبة يا فهد .. رصاصاتٍ ..

وتقتيلاً .. ودَمْ

وسعيراً .. وألمْ

إنما كُنتَ شجاعاً لم تَخفْ

لم تكن مثل الذي

في جحره الارضيّ كالفأر زحفْ

وهو خلف الجند والعسكر ..

قبشٌ .. وخرَفْ

لم تكن تلك المباراةُ ..

مباراةَ شرفْ

إنما وحدك يا فهد الذي

سدّدتَ في قلب الهَدَفْ

من ديوان
مرثية فارس ساق
١٤١٠هـ / ١٩٩٠م

يا عمر!

في ذكرى شاعر العرب الكبير عمر أبو ريشة

الشعرُ. لا الموت في أقدارنا القَدَرُ
تبقى القوافي.. وتبقى أنت.. يا عُمَرُ
أظنُ ضيفك لما جاء.. وابتدرت
له القصائد.. ولّى وهو يعتذرُ
للموتِ ما جمع الفانون من نَشَبٍ
وليس للموتِ هذا الرائع الوَتَرُ

* *

لم أنسَ زورتَنا.. والقلبُ مُنكسِرُ
والحبُّ مندحرُ.. والظلُّ منحسرُ
وأنت مثل عُقابِ هزّه شمَمٌ
يسومه الكِبْرُ ما لا يقبلُ الكِبَرُ
يا للطريح الذي كانت قوادمه
تطوي النجوم.. فما تبقي.. ولا تَذَرُ
يا للقعيد الذي كانت سنابكهُ
تغزو السحاب.. ويغزوها.. فتنتصرُ
تألَّقَتْ دمعةٌ في عينه وخَبَتْ
وكيف، والدمع صنو الضعف، تنحدرُ

* *

ترجّل الفارسُ المغوارُ عن فرسٍ
ما هدّه هو.. لكن هدّها السَفَرُ
لم تحرق الصارمَ البتّارَ.. مَلحمةٌ
وأحرق الغمد من بتاره.. شَرَرُ
يا للثمانين لم يأبه بها.. ومشى
ما قلتَ كالرمح.. إن الرمح ينكسرُ
غضَّ الفتوة لم تدر السنينَ بها

ولم يمرّ بـهـا، أو حـوْلـهـا الـعُـمـرُ
مـا أروع الموتَ عـمـلاقـاً يـجـلّـلـهُ
زهو الرجولة حتى وهو يحتضرُ

* *

ليَهنكَ النوم! لم تسمع بقارعةٍ
أنَّ العروبة في بغداد تنتحرُ
أنَّ الكويت سباها مؤمنٌ بطلٌ
من أعرق العربِ أصلاً .. جدّهُ مُضَر
ليهنك النومُ إلا خزي تعيش به
كما تعيش.. ولا ذُل.. ولا خَوَرُ
ليهنكَ النومُ! هذا مجدُنا طَلَلٌ
تبكي عليه بواكي العز .. مُندثِرُ
أين الفتوحُ التي غنيّت روعتها؟
أين الصهيل؟ وأين الجامحُ الظَفَرُ؟
لا ابن الوليد إلى اليرموك يأخذنا
ولم يَصلْ بنا في قدسنا عُمَرُ
وغاب سَعْدٌ .. وماتت قادِسيته
ولم يجيءْ نبأٌ .. منها .. ولا خَبَرُ
مضى عليٌ .. ولما يمضِ قاتله
مضى الحسينُ .. وهذا بيننا الشمِرُ
كأنما اغْتُصبَ التاريخ واختطفتْ
منه الرجالُ .. وعاش الخائنُ الأشِرُ

من ديوان
مرثية فارس سابق
١٤١٠هـ / ١٩٩٠م

واللون عن الأوراد

الشَبَقَ الخريفيَّ يمسّ الشجَرا

ويحبلَ الآفاقَ بالريح .. وبالرعد .. وبالسوادْ

ويتمادى .. فيذوق البشرا

وترعش القلوبُ .. بالخوفِ من الموتِ ..

وبالشوق إلى الميلادْ

كنت أنا

في الغابة السوداء .. أحدو الضجرا

وأرقبُ الآفاقَ تُنجبُ الأولادْ

* *

سيّدتي !

سيّدتي !

يا موسم الصيفِ عليَّ انفجرا

في غيْبة الميعادْ

رأيت في عينيكِ ..

يا لروعة الأضدادْ

رأيت بدراً مبحرا

رأيت بحرا مقمرا

سمعت كلَّ أغنيات الغوصِ

والرُعاةِ .. والحصادْ

ثانيةً .. وجرّك الصيف إليه .. فانبرى

له الخريف .. جرّني السُهادْ

* *

سيّدتي !

سيّدتي !

أغنيتي مؤلمَةٌ

نشيجها يزعج هذا الوترا

فيشعل النيرانَ في الأعوادْ

كأنها أنشودة السيّابِ ..

ناجي المَطرا

أو شهقات الملك الضليّل ..

في الوهادْ

أو صَرخَات المتنبّي وهو يلقى العُمُرا

والخيلَ .. والليّلَ .. على الأوغادْ

أو دمع ناجي وهو يبكي الحَجرا

ويصبغ الأطلالَ بالرمادْ

سيّدتي !

سيّدتي !

أغنيتي

عذاب كل شاعرٍ

عبر القرون شعراً

ومات قبل الوصل

في مفاوز البعادْ

* *

سيّدتي !

سيّدتي !

من الذي أرجف ؟

من قال الخريفَ انتحرا ؟

من الذي استأجر في جريدةٍ

صفحتها الأولى .. ولفَّ النعيَ بالسوادْ ؟

تأمّليهِ .. سيطرا

فلم يَدَع في الغابة الخضراء ..

إلا ذكرياتِ الأخضر المبادْ

تأمليه .. انهمرا

فنفضَّ الصيف من الشبّاكِ ..

واللون عن الأورادْ

هو الخريفُ سيدُ الفصولْ

يحمل أسرار البقـــاء والنفاذ

والموت والمعاذ

من ديوان
واللون عن الأوراد
١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

الصقر .. والمستحيل

وكالحُلم جئتِ .. وكالحلم غبتِ
وأصبحتِ انفضّ منك اليَدَا
فما كان أغربه .. مُلتقىً
وما كان أقصره .. موعدا

* *

رأيتك .. والجمع ما بيننا
فلم أر غيركِ .. عبر المَدَى
شفاهٌ كما يتحدّى الربيع
وجفنٌ كما تتعرّى المُدى
فيَالكِ من وردةٍ .. أرهقتْ
بخوم الفراشِ .. وسقط الندى
ويالَيَ من شاعرٍ عاشقٍ
ينادي الهوى .. فيخوض الردى
ويتلو عليك عيون القصيد
ويرقب عيْنيكِ .. يرجو الصدى
كطفلٍ يداهنُ أستاذه
ليهمس : «أحسنت!» .. «ما أجودا!»
ويطرق أستاذه .. واجما
ولا يذكر الطفل ما أنشدا
ولا تنظُرين .. ولا تنطقين
وأرجع مستسلما مُجهدا

* *

إذنْ جُنّ من قبلي الشعراءُ
وما كنتُ في الصبْوةِ الأوحدا
ولم يبق من طائرٍ ما شدا

ولا وتــــر لكِ مــــا غـــرّدا

إذن . أنــا أقــبــلت أهــدي الــتــمــور

لــهــجــر .. وأرقب مــنــهــا الجَدا

* *

أيــا ابــنــة كــل إخضــرار المروج

أنــا ابــن الجفــاف .. ومــا استــولــدا

ويــا ابــنــة كــل مــيــاه الــغــمــام

أنــا طــفــلُ كــل قــرون الصــدى

ويــا كــلّ أفــراحِ كــلّ الــطــيــور

أنــا كــلُّ أحــزان مــن قُــيِّــدا

دمــوع الجمــوع عــلــى نــاظــريّ

وذلُ الــيــتــامــى .. وخــوف الــعــدا

عَــرفــتُ عُــصــارَة كــلّ الــهــمــوم

رضــيــعــاً .. وعــانــيــتــهــا أمــردا

وجــرّبــتــهــا .. وحســامُ الســنين

مشــيبٌ عــلــى مــفــرقــي عــربــدا

فــمــالكِ .. يــا دمــيــةَ المترفين

تــثــيريــن هــذا الأســى الأربــدا ؟

ومــالكِ يــا نشــوة الــقــادريــن

تــهُــزّيــن في يــاســه الُمقــعَــدا ؟

* *

ســلامٌ عــلــيك ! عــلــى الــعــاشــقين

يضــمُّــهــم الــلــيــلُ في المنــتــدى

عــلــى كــلّ مــن ذاق .. أو لم يــذُقِ

عــلــى كــلّ مــن راح .. أو مــن غــدا

ســلامٌ عــلــيّــكِ! عــلــى لحظــة

مــن الــعــمــرِ .. أعــطــيــتــهــا المِقْــودا

فــطــارتْ إلى شــرفــات الجنــون

إلى حــيــث يــعــثُــر حــتــى الــهُــدى

فأغرت بي المستحيل اللذيذ

فأسلمني الأفقَ الموصدا

فيا حرقة الصقرِ..شام السَّها

فخرَّ صريعاً .. وما استشهدا

غداً تنقش الريح من ريشه

تعيشُ الصقور .. وتفنى سدى !

من ديوان
واللون عن الأوراد
١٤١٢هـ / ١٩٩٢م



هذا الكتاب ...

يمثل سيرتي الشعرية ويقف عند هذا الحد لا يكاد يتجاوزه. بمعنى أن الكتاب يتحدث عني كشاعر فحسب؛ لا كتلميذ؛ ولا كمدرس؛ ولا كعميد كلية؛ ولا كإداري؛ ولا كعضو في مجلس الوزراء؛ ولا كسفير؛ ولا كأب؛ ولا كأخ؛ ولا كزوج؛ ولا كابن؛ وفي كل تجربة من هذه التجارب، وكثير غيرها، ما يكفى لكتابة مؤلف. ومنها في مجموعها تتكون السيرة الذاتية الكاملة.

على أن فصل السيرة الشعرية عن السيرة الذاتية أمر بالغ الصعوبة، ذلك أن الشعر لا يمثل سوى وجه واحد من شخصية الإنسان الشاعر. ولقد حاولت أن أتغلب على هذه الصعوبة بأن أورد في أماكن متفرقة من الكتاب أجزاء من السيرة الذاتية لم يكن هناك بد من إيرادها، متجنباً الاسترسال، مرجئاً الحديث المفصل عن حياتي إلى الوقت الذي يتاح لي فيه أن أكتب سيرة ذاتية كاملة.

غازى عبد الرحمن القصيبي